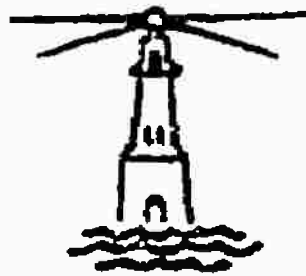


إقرأ

تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاة



دار المعارف بمصر

هذا المعارف دار المعارف

سعد منكاوك

الرِّقَّةُ عَلَى الْعُسْبُجِ الْأَخْضَرِ

٣٧١ انقأ

دارالمعارف بمطرو

اقرأ ٣٧١ - سبتمبر سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

7. [REDACTED]
[REDACTED]
[REDACTED]
[REDACTED]

الرقص على العشب الأخضر متعة الليالي القمرية ، في خضرة سابعة
لونها رائق وحواشيها مهذبة ، لا يחדش مساحتها الواسعة أمام البيت الصغير
تمثال أو شجرة ، حتى أحواض الأزهار نائية هناك في حوض السور ،
ممتدة في شريط رفيع حول بسات الخضرة العبق داخل السور العالى
الذى يحرم على أى عين بشرية أن تختلس ولو لمحة من الجنة .

هى ترقص حول الفراش الأرضى المعد فى الوسط ، وضوء القمر يسكب
على عريها الكامل انعكاسات باهرة ، وعلى خضرة العشب يتألأ جسمها
المسبوع تكويناً وحركة ، أنثى فاخرة حيناً وحيناً آخر فراشة طاهرة .

وهو ينهل رقصها راقداً متجرداً فى حمام من أشعة القمر ، فى
تمام صحوه قبيل الفجر ، لا مخموراً ولا مخدوراً بل سكران برقصها وحده ،
دائرة حوله من بعيد أو دانية منه بكمالها الجسمانى وخفتها الروحانية .

وحما فى صومعة رفعا سورها عالياً فى قلب زراعة صغيرة ، مسورة هى
الأخرى بأسلاك شائكة . . . وبيضاء كالياسمية ظلت تدنو بالحركات
الأخيرة لرقصتها من طرف الفراش حتى جلست تلتقط أنفاسها وعلى
وجهها طلاقة النشوة ، فدلها يده بفوطة أخذت تدلك بها صدرها وبطنها
وهى تومئ بوجهها المبتسم نحو الكوبة الزجاجية المقلوبة كالغطاء على
حلق القلة الفخارية ، فملأها لها واعتدل فى رقدته ليرفع الماء إلى شفيتها
فتغيرت خطوط جسمه هو الآخر ولمعت على سمرة الأشعة ، ثم ابتسم
كل منهما لوجه الآخر قبل أن تستلقى إلى جانبه وتمدد إلى أعلى ظهرها مثله
فى حمام القمر .

وسألها لما بشر النور بمطلع النهار :

— هل ندخل ؟

— كما قدمت للنجوم التحية : أريد أن أحيي مشرق الشمس !

وفي أشعة الشمس الرقيقة التي أخذت في التدفق عبر جدار السور
تفتحت الياسمين الحية ونفحت الصباح الوليد بعطرها . وتمطى هو في
جلسته على طرف الفراش حتى لانت كل عضلة في جسمه متابعاً وثباتها
الرشيق هنا وهناك ، إلى أن أحس فجأة بالجوع وهي تدنو منه متطاوسة .
وتمثل لحاظره في الحال طبق كبير مفعم بالحمام المشوى على الفحم ،
فخطف يدها واندمج معها في حركاتها الراقصة وهو يطير بها نحو الباب
الخلي للبيت ، باب المطبخ . . .

— جائعة مثلى ؟

— جوعى متوحش !

— حمام مشوى ؟

— ما دام هذا هو مزاجك ، وليكن إلى جانبه المشى القديم !

وفي ركن المطبخ أكلا وجبة متوحشين عاريين وهما يضحكان كلما
طرقت العظام الهشة تحت ضروسه النشيطة ، وبين الحين والحين
يغوص إبهامها في طبق المشى ثم يختفى في فمها وهي تزوم مستطعمة مذاقه . .

٢

شبعاً نوماً كل في حجرته ثم التقيا بعد العصر تحت الدش .

— نمت نومة أهل الكهف !

— وجائع مثلى ؟

— أريد أن أغزو شجرة « منجة » وأتغدى من أطيب ثمارها !

— أطيب الثمار في أعالي الشجر . . . أنا أطلع لها !

تصور عيناً متطفلة تلمحها من وراء السلك الشائك وهي في أعلى

الشجرة فمنعها :

— لا أحب أن يقول الناس من حولنا إن بعضهم رأى عندى امرأة متجردة !

— هذا قيد على حريتي لم أكن أتوقعه هنا !

جاء هو بالثمار الناضجة وجلسا في الشرفة العليا صامتين كما يحدث لهما كثيراً حتى غابت الشمس وراء أشجار التوت في الغرب . وشاع في نفسيهما من لحظة الغروب شيء من الشجن ، فهضت وجلست في حجره وحاولت أن تكسر حاجز الصمت :

— هل غضبت من كلمتي ؟ . . هي فعلا سخيفة . كيف أتكلم عن قيد وأنا أعلم ما أنفقت على هذا الركن لكي تحقق لي فيه كل حريتي كامرأة سعيدة ؟!

ووثبت إلى الداخل واختفت لحظات قبل أن تعود إلى الظهور مندلعة إلى البساط الواسع الذي أكسب الغروب خضرته بعض القتامة ، ناشرة طيراتها العفوى في كل اتجاه داخل السور العالي . . . وعما قريب تحتضن الأشعة لدونة جسمها وشفافية ارتجالاته ولطافة حركته . . . لكن صوت خفير « المنجة » عند البوابة البعيدة تردد في إلحاح منادياً برسم من لا يفكر في تلك اللحظة في غير العثور على جلبابه ليدخل فيه . . .

— ضبطته بشوال « المنجة » !

في شحوب ضوء القمر الطالع رأى شوالاً صغيراً مليئاً بثمار زراعته . . . وإلى جوار الشوال وفي قبضة الخفير شاب مضطرب الوجه تحت طاقة مغزولة يطلب الرحمة بالدموع والانكسار ، فضاقت نفسه باللمحة كلها ونظر إلى الخفير في غيظ ونفور :

— أزعجتني من غير داع !

— سارق « المنجة » . . انظر سيادتك !

تأمل الوجه الضارع قبل أن يكلمه :

— هذه أول مرة ؟

— ثانى مرة .

— هل كانت الأولى من عندى ؟

— نعم .

— إذا تركتك تذهب بالشوال مليئاً ونسينا الموضوع ، فهل تعود إلى

سرقى مرة أخرى ؟

— لا طبعاً !

تقبل التوبة . . . وأشار إلى الخفير أن يكف يده عنه :

— اتركه يذهب .

— لو تركناه ، سيعود لنا فى المرة القادمة بعصاة !

— أنا أصدقه . . .

— أنا لا أصدق لصاً .

لمست يد صاحب المكان كتف الشاب الذى ينتظر كلمته الأخيرة :

— أنا أصدقك . . . اذهب بما حملت !

أما هى فحاذرت أن تلمحها عين اللص أو الخفير وهى تتابع المشهد

كله من خصائص النافذة فى الدور العلوى . . . وعندما راق لها الجو

تجردت فى الحال وقفزت هابطة فى السلم الداخلى إلى أن احتوتها رقة النور

عند مكان حبيبها الصامت .

— ضايقتك ما حصل ؟

— إنما هو وجه الفتى لا يريد أن يفارقنى !

— إنك لن تدع ظهور لص يعكر عليك صفو الليل !

وهى تخلع عنه الجلباب ناقش معها وجهة نظر الخفير . . . يرى أن

ما فعلته خطأ . . . يعتقد أن ذلك الإنسان سيفترض أن سبب تسامحى

معه هو الضعف لا الإدراك السليم للموقف . . . وأنا أرى أن الشاب

ليس لصداً بالمعنى الحرفى وأنه سيلتزم بالاتفاق .. وقد يتحول إلى صديق ..
وجنه لا يبرح خيالى !
حاولت أن تحركه للمرح لكنه ظل على حاله من الانطواء فتمددت
هى الأخرى وأباححت وجودها لنفحات النسيم وملاطفات الأشعة .

٣

لم تكن طلعة القمر فى الليلة التالية أقل بهاء ولا أعف شوقاً إلى
كمال جسد يرقص لإلاه الحب على سطح كوكب الأرض . . .
لكن الصفو لم يطل . . . هربت إلى البيت بإشارة من إصبعه . . وأطلت
من خصاص النافذة العليا على شوارب الخفير وقد قفش فى هذه المرة
فى فتاة !

وابتسمت لأن حبيبها نهر الخفير قبل أن يضبط لبسة الجلباب .
— اسمع . . . بعد هذه المرة لن تزعجنى فى الليل أبداً ولو انقلبت
أشجار « المنجة » عفاريت تقص شواربك ، هل أنت فاهم ؟
اهتزت الشوارب بغضبة عنيفة :

— لكن فصلى الليلة يقطع الحميرة من البيت ، وبنجس الزراعة !
أسكته بحزم ليتأمل الوجه الوسيم لشاب فى مثل سن زائر الأمس ،
لكن فيه على الفقر شيئاً من اللطافة ، يحاول بالنظرة الصامتة أن يسرى
عن بنت مسكتها الرعشة وأشبعته وجهها لطمأ . . .
هزت قلبه لمحة عينها النجلاء البليغة وهى ساقطة عند قدميه تناشده
أن يستر عليها . . .

— أين وجدتهما ؟

— فى الناحية القبلىة . . . تحت شجرة « منجة » ! . . .

— سرقا شيئاً ؟

— وهل كان عندهما وقت أو وعى ؟! . . . السرقة كانت ستم طبعاً

بعد الأنس والحظ !

الولد والبنت لا يمكن أن يزيد عمرهما معاً على خمس وثلاثين سنة ،
وهما ينضحان عرقاً وحباً . . . اخترقا أسلاكه الشائكة تحت راية العشق ...
والبنت أنثى وعينها متكلمة . . .

— إذا تركتكما ومعكما ما تقدران على حمله فهل تعودان إلى هنا
مرة أخرى ؟

تبادل الولد والبنت نظرة قبل أن يقول في ثبات :

— لم نجئ إلى هنا إلا بعد أن ضاق بنا الحال هناك !

— لماذا لا تتزوجان ؟

— إذا لم يعقل أهلنا ويزوجونا بطريقةهم فلن نجد غير بستانك !
زجرت الشوارب :

— قالوا لكم عن بستاننا إنه ملتهى الكلاب الضالة ؟ !

لم يعره الفتى التفاتاً : إذ هو مشغول بذلك المعنى المريح الناطق في
عيني صاحب المكان ، وتوجه إليه بالدعاء :

— اجعل لحبنا في ظلالك القدرة على اختلاس قطرات من الهناء !

وإذا بصوت من أعلى يتدفق منه الحزم برغم رقة نعومته :

— انتظر يا ولد ... وأنت يا بنت ... أنا نازلة لكما بالرأى والمشورة !

كانت قد فتحت النافذة على مصراعيها قبل أن تطلق نداءها

الفجائي ، فارتفعت إليها عيون البنت والولد والخفير وتحجرت على إشراقة

وجبهها ونهافت شعرها على كتفيها من كل ناحية كأنه يشهر غيرته على

حسنها . . . وحانت إذن الفضيحة وستعرف الجاهلية المترامية وراء حدود

أسواره أنه جاء معه بامرأة .

٤

اتسعت الفرشة في قلب العشب الأخضر للأربعة .
وبعد أن طرد الخفير من الساحة المسورة حاملاً معه إنذاراً بالفصل
من الخدمة إذا عاد إلى إزعاج الصفو مهما يكن السبب ، لم يبق في
حكاية البنت والولد قطرة تعتصر . . وراحت صدمة التلاقي فتفتحت
الأنف وتعاينت الحكايات واتحد الهوى . . .

شعشت نشوة الألفة في حضن الأشعة المشحونة بكهرباء الفضاء
البعيد، وسألت البنت وهي مبهورة بالأنثى المصقولة التي تكلمها وتضاحكها :
— هل أنت زوجته ؟

— لا .

— هل أنت زوجة أى رجل آخر ؟

— لا .

— لماذا لا تتزوجان ؟

— سيحدث هذا يوماً ما بكل بساطة .

— وما حكايتك أنت يا أحلى ما رأيت عيني ؟

وضحكت قلوبهم وارتوت من الصفاء

— علميني كيف تحبين الرجل ؟

قرصتها من خدها الأسمر الزاهى :

— ولم لا تعلميني أنت ؟

— أنا ؟

— حالنا واحد .. كلانا في موقف الخالصة للحب .. أنا جئت من

المدينة مع حبيبي في ستر الليل وأنت جئت من القرية في ستر الليل مع
الحبيب !

— أنا أعبر عن حبي بالطاعة وليكن ما يكون .

— وأنا أريك في الحال كيف أعبر !

أدرك صاحبها ما تنوى أن تفعل ، ورجاها بنظرة أن لا تنضو عنها
الرداء الخفيف الذى نزلت به وتركه للعشب الأخضر . . . فابتسمت
فى الضوء الحنون ممثلة لرجائه ، وبدأت رقصتها بصيحة مرحة . . . وفى الحال
اندمجت فصارت خفيفة كالجنح الرقيق . . وأمتع هو نفسه دون أن يلتفت
إلى محاسن رقصتها بدراسة مسلية لتأثير الغلالة الخفيفة على الضيفين . . .
وانتهت الرقصة القصيرة هناك عند السور وعادت زاهرة كالنجمة
فقال صاحب المكان لضيفه المبهور :

— ما رأيك فى هذا يا صاحبي ؟ .. نحن الآن أصدقاء ... ما قولك
فى رجل يسمح « لحرime » بالرقص أمام رجل غريب ؟ ..
لكن الفتى ظل جامداً مسحوراً أمام السؤال ، فضاحكه « الحريم »
ليسترد القدرة على النطق :

— قبل أن ترد تصور أيضاً العكس . . . تصوره هو يرقص أمام
محبوبتك !

والبنت قبل الولد استردت قدرتها على الكلام :

— لو حصل هذا لحنقنى . . . إن لم أمت أنا قبلها من الحجل !
سألها صاحب المكان مستملاً نجلاً عينيها :

— طيب ما قولك فى أن نرقص معاً نحن الأربعة هذه الرقصة ؟
ومع سيادة الضحك وجد الغلام أيضاً كلمته :

— لكأنك تطلب منا أن نسلخ جلدنا بأيدينا !

لكن بعد لحظات تبادلت النجوم ومضات برقية تلاقت فى السماء
كالبسمة المتقاطعة ، وكل ما فى السماء من سنا تعانق فى أشعة الضياء
الليلي وانصب فى انعكاسات سماوية على ثلاثة يرقصون حول الياسمين الحية
فى ملابس خفيفة وكأنهم أطياف تعيش بالرقص على العشب الأخضر .

عمق الصورة فقط هو الذى تغير عندما جاءت ليالى الظلام وأخذت حركات الرقص العفوية تبدو كالعسل السحري ، وتكتسب صفة جديدة هى الاندماج بالمعنى المطلق لجلال الكون . . . وظل تيار واحد يسرى بين الأجسام الأربعة الراقصة التى تشابكت أيديها فى حلقة مقفلة إلى أن قطعه نداء الخفير من وراء السور :

— كلب الحراسة مات مسموماً !

ما دام الإنذار لم ينفع فلا بد من طرده وتشييت الغلام فى وظيفته بعد استكمال الإجراء الإدارى . . هكذا أعلن صاحب المكان قبل أن يشتبك مع الخفير بقذائف متبادلة من فوق السور :

— لعل الكلب نائم مجرد نوم ؟

— بل ميت وشبعان موتاً !

— ومن قال لك إنه مسموم ؟

— شكله ناطق !

— عندك شهادة فى الطب الشرعى حضرتك ؟

— بل الطبيب الشرعى هو الذى قرر ذلك بنفسه !

— متى ؟ !

— بمجرد ما شاهد البقع التى على جلد بطن الكلب !

— وأين هو الطبيب الشرعى ؟

— عندنا فى الاستراحة .. أنا بلغت .. والطب وصل مع الإدارة والنيابة

والدنيا !

— كلهم جاءوا عندنا هنا ؟ !

— والعمدة .. والكلب الميت .. الجميع فى الاستراحة والقهوة حاضرة ..

وكل الواجب عملناه بدون إزعاج لكم حسب الأوامر فى آخر مرة ..

- من صباحة ربنا إن شاء الله مفصول من الخدمة !
 — أنا كتبت عنكم المسألة قدر ما استطعت ، إلى أن أمرتني النيابة
 بإخطاركم للحضور أمام مجلس التحقيق ، وربنا لا يكلف العبد فوق
 طاقته !
 — مفصول من الخدمة !

٦

وجدتهم الفجر في كآبة تسلطت عليهم بعد إجراءات التحقيق الطويلة
 التي استلّت من ليلتهم نخاع السرور وأماتت الرقص . .
 ومرت ساعة ثقيلة البطء لكن مع تبشير النور أخذوا يتكلمون في
 شئون صغيرة من شواغل النهار . . . إيقاد الفرن وترتيب البيت وجمع
 ساقط « المنجة » وتهذيب العشب . . . ثم طلعت الشمس على زائر لم يتوقعه
 أحد ، فقد ارتفع نباح جرو لصق السور من الخارج ، قرب الباب
 الفاصل بين حدود الزراعة وحدود الصومعة . . .
 قال صاحب المكان مستغرباً :

— لم يكن عندي غير كلب واحد عجوز هو الذي جاءنا في مآثمه
 بشخصيات مهمة . . والأغرب أن يكون هذا الذي نسمعه عفريت
 الكلب !

لكن الباب الذي فتحته يد ناعمة مشفقة أظهر فعلاً جرواً صغيراً
 بدأ زيارته بتعبير جسماني كامل عن التودد . . وشاركت مؤخرته أذنيه
 وذيله في رقصة تعارف ظريفة . . .

وهتفت التي فتحت له :

— تأمله ! هو صورة مصغرة من الفقيد ! . . هذا ابن كلبك
 بلا جدال !

وهارشت الكلب الصغير بأصابعها حتى حركت فيه كل حوافز

اللعب ، ونهضت تجرى على الحضرة فانطلق وراءها كمن يريد أن يأخذ
بثأره . . . وحميت المطاردة الضاحكة بين الجرو الظريف والياسمين الطائرة
على العشب الرطب بندى الصباح . . .

وانتعشوا في النهار بعد كآبتهم . . . ورتبت المرأتان البيت وأوقدتا
الفرن وخبزتا الفطير على حين تكفل الرجال بجمع « المنجة » والاسترخاء
والترثرة . . .

وانتهى اليوم بأحسن مما بدأ ، إلى أن سترهم الظلام فغنوا وصفقوا
ورقصوا حول كومة الثمار كالحجائين . . . وفجأة نبج الكلب الصغير مرهفاً
أذنيه اللدقيقتين نحو الغرب ، فالتفت صاحب المكان ليجد أمامه
بندقيتين . . .

وتجمدت الرقصة حتى صاروا كالتماثيل ، وسكت الكلب أمام
شبهين طويلين لا يدري أحد كيف هبطا من ارتفاع السور .
وفي السكون العميق دوت رصاصة وسقطت البنت الكحيلة العينين
ميتة عند قدمي حبيبها . . . وجاء أول تفسير للموقف على لسان الشبح
الآخر الذي أشار بيده إلى زميله مطلق النار :
- أبوها !

هذا صوت خفير « المنجة » وهذه شواربه . . . وأضاف مخاطباً حبيبها :
- ترقص في مكاني يا عاهر وتظل حياً ؟

ودوت من بندقيته الرصاصة الثانية فسقط الولد فوق جثة حبيبته ،
وكانت الرصاصة الثالثة من نصيب الياسمين التي في الحال تساقطت
أوراقها البيضاء على العشب ذابلة هامدة . . .

وظل صاحب المكان في وقفته الجامدة أمام الفوهتين غير مصدق
للكابوس الذي احتواه في صدمة ، إلى أن دوت الطلقة الأخيرة :

نهایه رائد

هذه قصة بيت من بيوت القاهرة في آخر النصف الأول من القرن العشرين ، أهله من الطبقة الوسطى . وأيسر ما يقال في شخصية « رجل البيت » - عصام - أنها ليست مما تقع عليه الملاحظة في كل بيت مصرى . وما في مجاهر نفسه من عقد نفسية يخضع على حياة البيت ومصائر أهله - الأم وبناتها الثلاث - لوناً خاصاً قد لا يوفق القصصى المولع بالواقع كل يوم إلى مثله . ولعل هذا هو سر رغبتى إلى الزميل ، غفر الله له ورحمه ، فى أن يأذن لى فى محاولة تسجيل هذه الصورة ، وقد بلغ من كرم الزميل الراحل أنه لم يضع بين يدى ذكرياته وصراحته وحدهما ، بل أضاف إلى حديثه الصادق الشائق كنزاً آخر وجدت فيه أصدق العون ، هو دفتر يومياته ، ودفتر يوميات شقيقته الصغرى .

١

الضجة الفارغة ! كلها ماتت مع الصباح ولم يبق منها إلا هذا الصداح الفظيع فى رأسه ، خلف عظام جبينه . وكان أول ما استرجعه ذهنه من ذكرى ليلته المضنية منظر أخته الوسطى وهى جالسة فى « الكوشة » إلى جانب عريستها فى ثوب الزفاف الأبيض . وتمطى الأستاذ فى فراشه ، وحاك بظاهر يده ذقنه غير الحليقة وهو يعتدل جالساً على طرف الفراش وامتدت يده إلى المنضدة الصغيرة الملتصقة بوسادته فتناول نظارته ذات الإطار الضخم ووسد ذراعيها أذنيه ، وجعل يحرك قدميه على السجادة

الصغيرة باحثاً عن خفيه . ثم أجال في الغرفة نظرة كليلة ناعسة ، فطالعت الكتب في رفوفها ، والأوراق المتناثرة على المكتب . . وعادت تحتل ذهنه صورة أخته هدى وقد عقدت يدها بذراع حجازي أفندي وجعلت تختال في « الزفة » تحت رعد من دقات الدفوف . . وارتسمت على شفثيه الغليظتين ابتسامة تهكم شاحبة . . يالئلك الضجة المسرحية المضحكة التي تقترن دائماً بالزواج ! . . ذلك الغناء الرخيص . . « اتمخضرى يا حلوة يا زينة » . . وقد لا تكون العروس من ربات الجمال ، ولا هي في حديقة النساء بالوردة الياضعة . . « تمهنوا وتمتعوا الليلة » . . والبنات يسمعن ، ويخلصن . . البنات من العذارى وأنصاف العذارى الهائجات المائجات من حول العروس ، وقد استروحن في مراسم « الفرح » وأغانيه الخليعة . . . شتى الخيالات الحسية . . والكلمات الوقحة التي تتردد على ألسنة بعض المدعوين والتي يجهزون بها أصحابها المتظرفون دون حياء : « إن حجازي أفندي لن يجد الليلة وقتاً للتفكير في هندسة السيارات !!.. » وصوت العاملة المجاجل بالكلمات والرقص القبيح وهي تتغنى بمسرات الليلة التي تنتظر العروسين ، ثم وهي تتجنى على الحقيقة المائلة للعيون : « عريس قمر نوره علينا ظاهر » . . والعريس حجازي أفندي ، ذلك المخلوق الأصابع الأكرش الذي تتعثر كهولته في مطلع عقده الخامس ، وصاحب ورشة السيارات الهندسية ، هو آخر من يذكر محياه السماوى بالقمر ، والهوى ، والنور . . والعروس التي تصغره بنصف عمره . لا تكاد الدنيا تسع فرحتها ، وأمها الست دولت ، وهي تخب في ثوبها اللامع العجيب ، بقامتها المكتنزة المفرطحة ، ترسم على وجهها الملطخ بالأصباغ آيات من الرضا والغبطة ، كتلك التي ترسم على محيا تاجر أزرق الزاب أتم لساعته صفقة رابحة . . .

وأقبلت « مبروكة » الخادم السمراء القصيرة تعلن مقدم زائر من أصدقاء عصام :

— سى حامد يا أستاذ .

ولم يلبث أن دخل الزائر . ومع أنه كان فى مثل سن صديقه ، فى نحو الثالثة والعشرين ، إلا أنه كان يبدو أنضج شخصية وأكبر سنًا . ودار الحديث بعد قليل عن شعور عصام وقد خلا البيت من إحدى شقيقاته المحبوبات ، فقال :

— إن غاية ما يخالجنى من إحساس هو أن البيت قد استراح من ضجة الاستعداد للزفاف ، والحديث الذى لا يفرغ عن « الجهاز » والفساتين والمدعوين والفرح ، وزيارات الأسرتين : حجازى أفندى وأولاده من زيجته السابقة عند الست دولت . . والست دولت وهدى عند حجازى أفندى . . وبعد العشاء . . هدى وحجازى ، فى ركن الصائون ، وقد اشتبكت أيديهما وعيونهما فى مناجاة بلهاء . . لقد زال بحمد الله هذا الكابوس الثقيل ! . .

وتأمل عصام صديقه حامد وقد جلس إلى المكتب وجعل يتصفح أصول آخر مقال خطه قلم صاحب البيت عن « الزواج مقبرة السعادة » . كان فى وجه حامد الأسمر الوسيم حزن عميق غامض . ولم يكن عصام يجهل أن ضيفه كان يضمّر لهدى دائماً ميلاً خفيفاً يعتمل فى نفسه على استحياء . أهو حزين لأنها أصبحت لرجل آخر ؟ . . وعجب عصام كيف أحس لهذه الفكرة فى نفسه مسرة شريرة ، كأنما لذه أن يعلم أن هناك رجلاً غيره يستشعر الأسى ، لأن هدى الرقيقة الحسنة قد سقطت بين ذراعى الجلف الحشن حجازى أفندى ! . . ولم يلبث أن استبدت به رغبة جديدة ، شريرة هى أيضاً ، تدفعه إلى أن يقسو على ذلك الصديق الخجول المنطوى على جرحه :

— إننى ليحزننى يا حامد أن تكون هدى الطفلة المرححة الجميلة قد وقعت فى قبضة ذلك الرجل التافه البغيض ، فلقد كانت جديرة بخير منه ، لكنهما لم تعرف كيف تنتظر فرصتها . .

كان يتكلم وهو يرمق صديقه ، ويجد مسرة نادرة في دراسة وقع كل كلمة من كلماته في نفس ذلك الشاب الصامت الذي يبذل أعنف الجهد في السيطرة على انفعاله . . .

وهمس حامد : قسمة ونصيب !

ولكن عصام كان ممن يلتذون بالقسوة ويجدون في ممارستها متنفساً لشغائهم المكنون ، فعاد يقول وهو يقترب من ضيفه :

— إني لأتصورها الآن . في بيت ذلك الخاق ، في ظله ! . . إنها لمهزلة ! . .

وأشعل الضيف سيجارة من عاية صاحبه الملقاة على المكتب ، ثم مشى مطرقاً إلى النافذة فأطل منها على شارع ابن خلدون . . وتأمل عصام ظهر رفيق صباه وزميله في العمل الصحنى ، ثم سدد إليه ذلك السؤال الذى طالما شغل فكره :

— أكنت تحبها يا حامد ؟

ونخيل إلى عصام ، في لحظة الصمت التى أعقبت سؤاله : أن بعض الظهور تستطيع التعبير عن مشاعر أصحابها كما يعبر الوجه ذاته ، فلقد قرأ في ظهر صديقه الإجابة عن سؤاله قبل أن يبالغ سمعه صوته الخافت الأبيض :

— أجل . أحببتها ، وأحبها .

ومرت لحظة صمت قصيرة أخرى قبل أن يسأل عصام ضيفه من جديد :

— إذن تدرك حماقتك إذ تركتها تسقط في ذراعى رجل آخر ؟

فلما التفت حامد ، كانت في عينيه دموع لا تنطق ، وألم عميق مرمرارة الندم الثقيل الفادح :

— عصام . . بربك دعنا من حديث هدى !

هذه إحدى أخواته تذهب ! وقد ولى الزمان الذى كانت غرفته تشهد فيه اجتماع شقيقاته الثلاث ، كأنهن ثلاث أرواح رشيقة خفيفة ، فيجلسن حول مكتبه ، أو يتربعن فى قمصان النوم على فراشه ، ويهدمن العالم ويبيننه من جديد . . وكان يحاول أمانة : كبراهن ، أن تمشط شعرها الناعم الأسود الطويل أمام مرآته الضخمة . ولم تكن أمانة ثرثرة بطبعها لكن شخصيتها اللامعة كانت تفرض وجودها ، ولو لم تفتح فمها بكلمة واحدة ، على كل مكان توجد فيه . . إنها الذكاء الرصين ، والقوام الرشيق ، والسر المعلق . . ولكن هدى ، على النقيض من أختها ، لم تكن تفهم من الحياة غير الحركة والضجة والكلام . وكانت تصغر أختها بخمس سنين . فهي فى الحادية والعشرين ، شقراء ملفوفة ناعسة العين . إنها الحسن المرح ، والقلب الطيب ، والنفس القانعة . . أما صغراهن ، نادية ، فهي الصبا الغرير يحلم بحياة مفعمة بالعواطف ، والخفة المرحية ، تتحدث عيناها الماجنتان البراقتان بشوقها إلى العالم الواسع الكبير .

وكنّ أنس أيامه ولياليه . . وكنّ فى الأمسيات يحكين له — كل بدورها وعلى طريقتهما — ما وقع لهن فى يومهن : شارع فؤاد و « فتريناته » البديعة ، وفيلم روبرت تايلور الحديد فى سينما مترو ، و « بصبصة » الشبان لهن فى عرض الطريق . . كنّ ظريفات ، مسليات ، غامضات وكان هو صديقهن ، وحاميهن ، من أنفسهن ومن الناس ، فى ظل من حنانه وصراحته وتحرره الفكرى . . وكانت هدى ونادية تتبادلان ، فى بعض الأحيان ، أثوابهما . . فكان يسره أن يراهما تطلعان عليه وقد اتخذت كل منهما سمت الأخرى وزياها . . وإنه ليدكر ولع هدى منذ طفولتها بالأصباغ وأحمر الشفاه ، وكيف كانت تفتح عليه صومعته ، فى شىء من الزهو والنشوة والاستحياء ، لتسأله الرأى فيما اتخذت من زينة . . وعصرت قلبه يد ثلجية قاسية وقد ارتسمت لحاظه صورة

مما يصنع الخيال الجامح . صورة أخته هدى وهى تدخل فى تلك الزينة وذلك الاستحياء فراش عرسها فى الليلة الماضية ، مجلوة منمقة بأيدي الماشطات لكى تفتن الذكر البهيم الذى اشتراها لتكون حصه كهولته من متعة الحياة .

لقد حطم هذا الزواج المبتسر شطراً من حلم حياته الكبير . كان دائماً يحلم بزيجات مثالية لشقيقاته العزيزات . كان يريد لكل منهن زوجاً جديراً بها . وبرأيه هو فيها . زوجاً جليلاً ومدحشاً على نحو لم يكن خيال عصام يحسن على كل حال وضع حدوده ورسم ميزاته . وهذا الزوج المنشود ، زوج الأحلام المثالية ، الرائع الغامض ، يتلاشى اليوم حتى يتقمص شخصية حجازى أفندى الجاهل ، التافه ، المترهل ، المتبلد ! أية هوة بين الرباط المقدس الرفيع الذى كان يتمناه لأخته وهذه الصنفقة الحقيرة المخزية التى عقدتها أمه . . إنها سوق للرقيق ، تباع فيها المصالح والأجساد ! . . ثم تأتى العشرة والعادة ، ومطالب الحياة والمجتمع والوسادة الواحدة ، فتوطد فى بطن مروع أركان هذه الشركة الوهمية . . وتصبح هدى وصاحبها زوجين كسائر الأزواج ، زوجين « محترمين » ، وربما خيل إليهما ، فى بعض الليالى ، وكما يخيل للناس ، أنهما ، حقاً ، سعيدان ! . .

كذلك جعل الأستاذ عصام الصحفي الناشئ يحدث صديقاً آخر من أصدقاء الدراسة القدماء . وكان محمود أميناً لخزانة إحدى مدارس القاهرة الابتدائية ، ووعداً من الطراز الأول . كانت حياته تدور حول محور واحد ، هو المرأة . وما من مرة وقع عليه فيها بصر عصام إلا ذكر أنه كان أول من قاده إلى عالم المرأة . وكانا يومئذ غلامين يجتازان مرحلة المراهقة الباطشة . ولقد اجتاز عصام تلك المرحلة إلى آفاق المثل العليا والأفكار السامية بينما لبث صاحبه غارقاً إلى أذنيه فى وحل الشهوات . . . وإنه لحيوان . . إن الرجل السعيد هو رجل أوتى القدرة على السيطرة على غرائزه . إن هذا هو سر السعادة . وليست مشكلة الإنسان الكبرى

أن يختار بين إشباع كيانه الحسى أو إشباع كيانه الفكرى . ولكن
أن يوازن بين هذين المنزعين المتعارضين . . . وما من مرة نظر فيها عصام
إلى صاحبه إلا استشعر الرضا عن نفسه وزاده النظر فى أحوال صاحبه
اعتزازاً بدينه الداخلية الرحبة التى تصب فيها أنهار المطالعة والتأمل
والدرس ، وإيماناً بما فى حياته على هامش العواطف والرغبات من سمو
تنفث فيه العزلة ، مصدر كل قوة ، ومهد كل عمل عظيم وتاريخ
مجيد . . .

٣

لم تعد أمينة التى عرفها أهلها . . .
ولم يكن قد مر على زواج هدى أكثر من شهر عندما بدأت أمينة
تحس كلما دار حديث الأسرة حول هدى أنهم يشيرون إليها ، هى ،
من طرف خفى . . .

فإذا أسهبت أمها فى تصوير سعادة ابنتها الوسطى فهى تلومها ،
هى ، لأنها لم تدخل بعد « بيت العدل » .

وإذا كان أخوها يهاجم الزواج فى أحاديثه ومقالاته ، فهو إنما
يسعى إلى مجاملتها ، هى ، و« جبر خاطرهما » . . . ولم تكن تعلم أن أمها
بدأت فى أحاديثها مع عصام تلمح إلى توفيق أفندى ابن خالة الست
دولت ، وهو موظف فى أرشيف وزارة المواصلات يناهز الثامنة والثلاثين
من عمره ، وفى قدرة عينه اليمنى على الإبصار شك كبير يكاد يبلغ مرتبة
اليقين ، ولكنها لم تكد تردد ذلك الاسم مرتين حتى كان عصام قد أمسك
بيدها وقادها إلى غرفته ورد الباب ثم قال لها : أماء ! لقد سبق لهذا
الحيوان أن تقدم إلينا طالباً يد أمينة ، فرفضته حرصها الله ، لأنى كنت
قد فتحت عينها على حقيقته ، فبالله دعى أختى المسكينتين لقدرها
وكفى ما أصاب أختيها ! . . .

كانت شقية . أشقى فتاة في شارع ابن خلدون — في العالم . . لماذا
وقف أخوها حائلاً دون زواجها ؟ وما سر هذه البغضاء التي يكنها لتوفيق
أفندي . بل للرجال جميعاً ؟ ومتى يكف عن التدخل في شئونها وتنظيم
حياتها ؟ إن حياتها ملك لها وحدها . ومن حقها أن تصنع بيديها
مستقبلها وهناءها . . ألم تخبر هدى رجلها ؟ أليست اليوم أسعد
النساء ؟ . لقد كانت هدى الصغيرة أرشد منها ، فلم تصنع إلى كلمات
ذلك الأخ المدمر المغرور ، ولم تلق بالآ إلى ذلك السم الذي ينفثه في
حياتهم بمحاضراته المريضة عن المثل العليا ، والحياة الرفيعة ،
والزواج القائم على التكافؤ ، وعلى الحب . . الحب ؟ ! . . ومن يستطيع
أن يزعم أن كل بيت سعيد في مصر قام على الحب ؟ .. إنها لا تحب
توفيق أفندي . . هذا حق . . ولكنها نادمة أشد ماتكون المرأة ندماً لأنها
أطاعت أخاها الأحمق ورفضت يد هذا الرجل . . هدى تزوجت قبلها . .
هدى زوجة ، وهي عانس ! سيفوتها الركب ، وتولى الأيام ، ويزحف الشعر
الأبيض كديدان الموت في ليل شعرها الطويل . . ولسوف تقضى
حياتها في برد الوحدة ، لا شيء إلا أن الرجل الذي طلب يدها يكبرها
بائتي عشرة سنة ، ولم يدخل جامعة ، أو يقرأ كعصام كتب الفلسفة
والأدب ! . . إن عينه الواحدة تكفي ! . . ولكم يحبها ولكم جرحه رفضها ! . .
لقد قرأت في عينيه الألم الصامت في ليلة زفاف أخيها ، وأدركت أنه لم
ينسها ، ولم يفقد الأمل في أن تكون يوماً له . . إنه ينتظر إشارة
من يدها لكي يمنحها السعادة التي سبقتها أخيها إلى رحابها . .
ودفنت أمانة وجهها الباكي في الوسادة ، وحنّت عليها في سكون
الليل غرفتها الحزينة الخالية من صوت الرجل ورائحته وسلطانه
لم لا يكون لها ، كأخيها ، فردوسها الصغير ؟
إنها ليست أقل من هدى جمالا وذكاء ، فأين نصيبها من الحياة ؟
إنها تريد نصيبها وقسمتها . . تريد أن تخضع ، وتلين وتستجدي . .
تريد سيدها . . .

واستوت جالسة على طرف فراشها : فطالعتها في مرآة خزانة ثيابها
صورة مائعة في نور مصباح الليل الأزرق ، صورة فتاة طويلة مسترخية
عند سريرها . شعرها نائر على جبينها وكثفها . وقميصها مرفوع
فوق ركبتيها . المتين تضئتان في النور القليل ، وعيناها ذابلتان وراء
أهدابها

توفيق ! من لها بتوفيق الآن . . وأين قوته وحنانه ، وأين صوته ورائحته !
فلما استدارت لترقد ، ووقع بصرها على سريرها الخالي ، أجهشت بالبكاء
لأنها وجدته عريضاً ، واسعاً ، مهجوراً . .

ومرت أيام ثلاثة ، ثم حمت أمينة ذات صباح أن تدخل المصعد
الذي يرتفع بها كل يوم إلى عيادة طبيب الأسنان في شارع سليمان باشا ،
وإذا بها تجد نفسها أمام توفيق ، وكان خارجاً من المصعد وقد وضع يده
فوق قطعة كبيرة من القطن تغطي عينه اليمنى . .

وتبادلت كفاهما تحية فاترة حائرة ، ثم سألها وهو يخطو إلى جانبها في
شيء من الارتباك والحجل نحو باب العمارة عن صحة أمها ، وعن أسنانها
فسألته عن عينه : فضحك وهو يقول لها إنه يخشى أن يكون طبيب
أسنانها أقدر على خدمة زبائنه من طبيب العيون الذي يعبت منذ شهرين
بعينه وأعصابه !

قالت ومدت له يدها : أعود إلى المصعد ، فإن طبيبي ينتظرنى .
لقد كانت فرصة طيبة ، وعسى أن نراك قريباً . .

قال ونظر في عينيها بعينه المكشوفة : لست أدري ، فلقد طلبت إلى
رئيسي أن ينقلنى إلى دمنهور ، ولعل الرحيل قريب .

وخيل إلى أمينة أن مدخل العمارة قد انقلب من حولها أرجوحة
من أراجيح الملاهى ، وارتعدت أهدابها فوق بصرها الزائغ وسمعت نفسها
تقول في صوت غريب ، وكأنها في حلم لا سيطرة عليه لإرادتها . .

— ولم الرحيل ؟ أهو بسببي ؟
 وكان سكوته ونظرته أبلغ من كل بيان . .
 وعاد صوتها الحالم المتمرد على إرادتها يقول :
 — إنك لن تفعل هذا !
 فسألها : ولم لا يا أمينة ؟
 قال صوتها : لأنني لا أريد أن تبتعد عني . . ولا تذكرني بما كان مني
 فأني أريد أن تنساه وأنساه . .

فانبثق من عين توفيق السليمة فرح مجنون ، ونسى الدنيا والناس
 فرفع يدها برغمها إلى شفتيه وقبل أناملها الطويلة العصبية ومعصمها
 النحيل ، وأطاحت القبلة المحمومة بقطعة القطن من فوق عينه اليمنى ،
 فسقطت إلى الأرض ، وطالعت أمينة من وراء أهذاب العين الذابلة
 المبتلة نظرة مسيحة بيضاء لا حياة فيها . .

٤

عندما دخلت أمه غرفته وجدته قائماً في انتظارها وسيجارته تتأرجح
 بين شفتيه :

— ردى الباب ، فإن لى معك حديثاً . .
 فعلت وأقبلت فجلست أمامه ممتعة الوجه مرتعدة اليدين فسألها :
 — أتعرفين أن أمينة تخرج مع توفيق أفندى قريبك ؟
 فأطرقت الست دولت برأسها ، ودمست :
 — إنها قالت لى أمس إنه لقيها منذ يومين فى مصعد الدكتور
 ثم صحبها فى الترام إلى باب بيتنا
 — عظيم ! . . وقد لقيته أمس أيضاً ، وشهدتهما بعض أصدقائى
 معاً فى جزيرة الشاى . . وماذا قلت لما حضرتك ؟
 — قلت . . قلت . . وماذا أقول لها يا بنى ؟

— إمنحنيها بركاتك ! أليست تصيد لنفسها برضاك عريساً ؟
 — يا بني لا ترفع صوتك ، فقد تسمعك « البنية » .
 — إنها تحلم به ، فلن تسمع ! . . هي لا تسمع ، وأنت لا ترين شيئاً ! . . إن رسالتك الوحيدة في رأيك هي أن تدفعي بيناتك إلى أحضان الرجال . وأى رجال ! . . ومنذ وفاة أبي وأنت تنسجين خيوط شقائهن ، وعلى شفتيك ابتسامة التاجرة الماهرة . .

— عصام !

— ألم تفهمي أن زواج هادي قبلها هو الذي يدفعها إلى الجرى وراء رجل سبق لها أن رفضته ؟ إنها في نظرها مسألة كرامة . . وماذا أفعل يا بني وتلك رغبتها ؟ ألا ترى أنها خسرت في الأسابيع الأخيرة نصف وزنها ؟

— أنت أمها . . تحدثي إليها . . قولي لها إن الفرصة لم تفتها وإن من الحماقة أن تضعي حياتها كلها في لحظة طيش تملئها عليها كبريائها . .

— إنها لن تستمع إلى كلامي !

— لقد استمعت إلى كلامي أنا مرة !

— فتحدث إليها إذن هذه المرة أيضاً .

— أمينة تعتقد أنني أكره توفيق ، وتقف مني الآن موقف التوجس والحذر ، وهي تحبك ، وتعلم أنك تودين لها الخير . .

فأطرقت الست دولت برأسها الذي شاع فيه الشيب وعقدت يديها البضيتين السمينتين فوق صدرها ، وهمست في صوت تستبد به الحيرة .

— ماذا أقول لها . . ؟

تكلم عصام ساعة طويلة وأمه تصغى إليه وتهز رأسها ، ثم أمرها أن تذهب فتقول لابنتها ماقال . وجلس وراء مكتبه وأرهف أذنه يسترق السمع إلى الحديث الذي يدور في حجرة أمينة بينها وبين أمها . وكانت تبلغه من الحوار البعيد أصداً غامضة لا يتبين منها كلمة . .

ثم سمع باب حجرة أخته وهو يفتح في حركة عنيفة وتبين خطوات أمينة في الصالة ، ولم يلبث بابه أن فتح فارتطم بالحدار ، وعلى عتبة وقفت السمراء الثائرة ، ملهبة النظرة ، مرفوعة الهامة :

— اسمع يا أخى ! إني عرفت من كلام أمى قسوتك التى فطرت عليها . . لقد لقيتها الحديث كلمة بكلمة : وكأنى كنت أسمعك أنت وهى تتكلم . . وقد جئت لأقول لك إنى لن أسمح لك بعد اليوم أن تتدخل فى خاصة شأنى . . لى من سنى وذكائى ما يبيح لى توجيه حياتى ويؤهلنى لذلك . . وأحب أن تعلم أن توفيق قد طنب يدى مرة أخرى ، وأنى قبلت . وسأتروجه برغمك . . وكل كلام تقوله بعد هذا لن يبعدنى عنه ، بل عنك أنت . .

وكان عصام يعلم أن أخته هذه تهزها الإهانة الجارحة ولا تأخذ بعنانها اليد العنيفة الباطشة ، فجمع لها نفسه فى ابتسامة مرة ساخرة وصوت هادئ خبيث :

— إنى لأعجب لم لم تنهشك هذه الحمى إلا بعد زواج هدى ؟!

قالت وهى تخطو فى الغرفة نحوه :

— ذلك شأنى . وليس فيه على كل حال ما يمنحك الحق فى تحطيم سعادتى بأنانيتك : وقد أندرته ولم يعد لى إلا أن أغادر غرفتك .

— لم يعد لك إلا أن تستمعى إلى !

ولم يكده يلفظ آخر كلماته حتى كان قد خطا خطوتين واسعتين قطع بهما عليها الطريق إلى الباب . .

— اسمعى يا أخت . . أنت فى هذه اللحظة تكرهينى . وليس لك عندى إلا كل خير ، ولست أعترض على زواجك إلا لأن توفيق هذا غير جدير بك . .

— إن تقدير ذلك من حقى وحدى .

— ما أجملك غاضبة !

— دعنى أخرج يا عصام .
 — أتخافين أن أزيح الغشاوة عن عينيك فأحطم أوهامك ؟
 — أخاف أن تقول قولاً تندم ذات يوم عليه !
 — إنها صورة أحب أن أرسمها لك فى كلمات قليلة : شابة عريقة
 وذكية ، جميلة ومتقفة . موعودة بأسمى المتع الرفيعة .. وكهل جاهل
 غبي ، كأنه فأر الأرشيْف . . . فكبرى ياميمى فى حياة بأسرها تقضيها
 مع هذا الثأر . . الإفطار . والغداء ، والعشاء . . والنوم ، واليقظة . .
 النظرة من أعينه . . المداعبة من يده . . يكفى أن تتخيلى منظره فى غرفة
 النوم بملابسه الداخلية !
 وصرخت أمينة وقد تفجر الدمع من عينها وارتعدت شفتاها الرفيعتان ،
 واندفعت نحو الباب : لكن أخاها قبض على معصمها ، وزأر فى وجهها :
 — والقبلة من شفتيه ، والضمة . . .
 وكانت قد أفلحت فى إنقاذ يدها اليمنى من أسر قبضته فرفعها ،
 وأهوت بها على وجهه .
 ولم يتحرك عصام . ولكنه نظر فى الوجه الذى زاده البغض حسناً
 على حسنه ، وبداله كما لو أن شعاعاً نورانياً قد رف على أرق شفتين
 فى الوجود . . .

٥

مرة أخرى حم القضاء ودخلت أخته الثانية فى عصمة رجل لم يكن
 فيما يرى ، أهلاً لها . أصبح بيت شارع ابن خلدون حزيناً موحشاً ،
 قد خلا من ضجة المرح وعطر الأنوثة . وطار عنه روحان خفيفان من
 أرواحه الثلاثة الغامضة الرشيقة ، وأصبح عصام عصفوراً فريداً
 من عصافير الليل ، يرد على نفسه متى كان المساء باب صومعته ويسقط
 بجناحيه الكسيرين تحت نور مصباحه ، أميناً على حزنه ، حفيماً بكتبه ،
 مطرقاً فوق أوراقه . . كان قد خسر معركتين ، معركة هدى ومعركة أمينة

وكانت اخزيمة الثانية فادحة . زفت أخته أمينة إلى توفيق أفندي كما زفت هدى منذ شهر إلى حجازى أفندي ، فى ليلة مبتدلة كثيرة الضوضاء . وكان ذلك عذاباً مزق سكينته نفسه . . واستقرت كلمات المأذون المزركشة المترقصة فى نفسه كالطعنات المسمومة . ومع ذلك أوى الشجاعة بعد إتمام العقد على أن يتقدم إلى أخته وزوجها بكلمات التهئة التقليدية . وكانت أمه تحوم حوله ببصرها وفى عينها الحائرة دعاء إلى السماء أن تمر الليلة على خير . وبالقرب من (الكوشة) جلست هدى وصاحبها ، وفى بطنها انتفاخ تقذى له العين . . إنها تنتظر حادثاً سعيداً . وكان أخوها يتأملها فتأخذه من مظهرها الحديد طمأنينتها الحيوانية التى تغرى بصفعها ، وغبطة الأنثى وقد استكن فى أحشائها الحمل ، واسترخاؤها السعيد لتلك البذرة الجديدة التى تباشر نموها الغامض فى أعماق كيائها الأنتوى . . وكان حامد أيضاً حاضراً . . وتأمله عصام وساءلته نفسه : أهو باق على حب هدى ؟ ألا ينفره اليوم منها منظر حملها ؟ ولم لا يقصد إليها فيحييها ؟ . . ولكن بصر هدى يقع على حامد فتستأذن زوجها وتقبل على الشاب الأسمر الوديع فتصافحه فى بشاشة ومودة وهى تقول قولاً سمعه أخوها « العقبى لك ولعصام » ! قال الله ولا فالك ! أیغدو عصام بدوره ضحية لهذا الخداع الفاشل ، مثله فى ذلك مثل سائر الناس ؟ إنه بينهم غريب . . حتى شقيقته أصبحت كل منهما « حرم » رجل ! . .

أى قبح زرى فى هذا الحشد السخيف من النساء والرجال والأطفال ! ويا لفظاعة هذه الرائحة المتصاعدة من هذا القطيع ، رائحة العرق ، عرق الأبدان ، وعرق الأفكار . .

كانت ليلة فظيعة ، ثم طلع النهار فسكنت الضجة الفارغة وماتت مع مشرق الشمس ..

ولم يكن عصام قد لمح صديقه محمود وهو ينسل من صخب الحفل

إلى حجرته — حجرة عصام — ويسأل الخادم السمراء اللعوب « مبروكة » أن تحمل إليه فنجاناً من القهوة وهو يغمز لها بعينه . . .

محمود لا ينسى المرأة أبداً ، فهو إلى حيث يذهب ، يحمل على كتفه صليب شهوته . . فلما أحضرت إليه البنت القهوة لم ينس أن يداعبها بصنعة ودية رنت على ذراعها الرجراجة ، ولم يعبس لها وجهها البشوش المكتنز . . وخرجت مبروكة فجعل محمود يتأمل هذه الحجرة التي تفوح منها رائحة الورق ، والتي لم يكن يحبها . . إنه يحب الحجرات التي تفوح منها رائحة المرأة ، ويسخر في أعماق كائنه الحيواني النهم من هذا الصديق النحيل العليل ، دودة الكتب ذات المنظار ، الفخور بعلمه وبجهله على حد سواء ، والذي قرأ كل شيء ولم ير شيئاً . . إن صديقه الفيلسوف يخصي الأفكار ويسجلها ، بينما يخصي هو مصروفات التلاميذ ، ومفاتيح النساء ، ويسجلها . . وأفكار عصام لا نساء فيها ، أما هو فإن للمرأة في حياته المكان الأسمى . . وذكر ، وهو يرشف قهوة مبروكة ، رفيقته التي تعايشه — نصف خادم ، ونصف عشيقة — وابتسم ، وتمطت عضلاته القوية وهو يحتر ذكريات الليل الذي ذاقه في أحضانها . . وكذلك وجدته نادية — صغرى شقيقات صديقه — عندما دخلت حجرة أخيها لتعيد النظر في زينتها . .

وكانت نادية تحب في ثوب للسهرة من التافتاه الزرقاء فوقفت مرتبكة أمام هذا الصديق من أصدقاء أخيها الذي طالما سمعت عن معاشقه . . وجعل محمود يتحدث إليها في خفة لبقة حديث الرجل الناضج إلى الطفلة الغريرة ، ويتأمل في سرور لا يحاول إخفائه ، هذا الشيء الطاهر الساذج الغريب الذي لم يعرف في حياته مثله . . هذا الطهر كان يفن حيواناً من طرازه . . وهي كانت تحس أمام رجولته الصريحة الدافقة رغبة طبيعية في أن تخفض له جناح الطاعة . . وإنبثقت في ذهن محمود مقارنة عجيبة بين ليلتيه : في الليلة الماضية كان يضم امرأة هلو كآ خبيرة بالهوى

وكان يخشعها بقميلاته . وكانت تنهكه بحبها . والليله يجد نفسه مع هذه الصبية الصغيرة « الحام » التي يدرك بغريزته أنها ولعة به مفتونة بسيرته ، ولعلها تفكر فيه قبل أن تنام . وترجف عندما يتحدث أخوها عنه ، ولعلها تخفى في ركن خفي من خزانة ثيابها صورة قديمة له مع أخيها من أيام المدرسة الثانوية . . . !

ومن يدري لعل لها « دفتر يوميات » تسجل فيه — كما تفعل بطالات الأفلام والقصص — خواطرها وآمالها . . .
وقال لها فجأة :

— لا بد أنك سجلت خواطرك عن زفاف أختيك في دفتر يومياتك ؟ ..
فانتفضت الدمية ذات الثوب الأزرق وحماقت في وجهه عيناها البرقتان العسلتان :

— من قال لك إن لي دفتر يوميات ؟

وكانت رمية من غير رام ، ولكنه لم يتراجع :
— عصام قال لي !

— وكيف عرف عصام وأنا حريصة على إخفائه عنه ؟
— يظهر أنه عبث عليه ذات يوم في حجرتك . . .
— وقرأه ؟

— من الغلاف إلى الغلاف !

تضرجت وجنتاها وارتعدت ظلال أهدابها فرق لها قلبه وسألها في رقة لم تخل من تكلف : أفى يومياتك يانادية ما يسوءك أن يطلع عليه أخوك ؟
— ليس هذا من شأنك !

ورأى الدموع تلتصع في عينيها ، فأدرك أن كلمة عابثة أخرى منه تكفي لوقوع الأزمة العصبية المزعجة . وبادر إلى الجديس به ما صنع عبثه ، فاعترف لها بأن أحداً لم يحدثه عن يومياتها ؛ وأقسم أن الأمر لا يعدو فكرة طرأت على ذهنه فتلقفها لسانه . . .

قالت وهي تبسم من وراء دموعها :
— أخفتني ! ..

قال : إن الشيء الوحيد الذى أستطيع أن أقطع به هو أنك عندما
تلتحقين بأختيك فى عالم الزواج لن يكون لديك وقت لكتابة يومياتك . .
وابتسم وهو يستمع إلى إجابتها الصبيانية التى كان يتوقعها :

— محال ! إنى لن أتزوج أبداً !

— أيعنى هذا أن عصام سيربح الجولة الأخيرة ؟

فارتسمت فى عينها حيرة غريبة :

— عصام . . عصام . . إنى لا أفهم عصام ! !

٦

أيفهم عصام نفسه ؟

كان يبذل جهداً مضنياً فى البقاء طافياً على سطح ذاته ، لكى يظل
محتفظاً بطمأنينته وسكينته نفسه . ولكن قوة عاتية كانت تجذبه بكل
عنفوانها نحو عالمه الباطن الرحب الذى تمرور عتمته الغامضة وراء أسوار
نفسه . وكانت هذه القوة تلتقى عليه ، وكأن لها صوتاً فى دمه ، سؤالاً
ضخماً رهيباً : ما سر رغبته فى أن يصنع على هواه سعادة شقيقاته ؟
وما الذى يدفعه إلى محاولة السيطرة على مصائر من حوله ؟ . . أيرجع ذلك
إلى ما تحس به نفسه المرهقة من حيوانية الحب التى يسترها البشر وراء
غلالة من الشعر ؟ إنه يكاد أن يكون جاهلاً بالحب ، وليس فى شبابه
غير تلك المغامرة القذرة الوحيدة التى قاده إليها منذ سنوات صديقه محمود ،
والتي خرج منها نيميل إلى أول جدار يبقاه فيقىء عنده اشمئزاز
وتقزز . . لقد وقفت حساسيته النادرة حائلاً بينه وبين متاع
الحواس ، وفى نور الفكر كان يحتقر جنون الغريزة . . ما السر إذن ؟ . .
أهو ذلك الولع الغريب المركب فى طبيعته بلون آخر من ألوان الامتلاك :
امتلاك الأرواح ؟

تلك حتمًا لئلا حياته الكبرى : أن يكون رائد أرواح ، وصانع نفوس
 وخالق أفكار .. وبينما ينكب أصدقاؤه الشبان على ترف المخادع الرخيص
 كان هو يخلق في آفاق الروح الطليقة . وكان ينظر في الرجال من أقرانه
 ويقول إنه يكفي - كى يعرف المرء قيمة رجل من الرجال - أن تدفع به
 في مخدع . . إنه يخلع مبادئه ومثله قبل أن يخلع ثيابه . . ويكشف
 عن سوءات روحه قبل أن يكشف سوءته . . ولقد كان أكبر همه أن
 يجنب عزيزاته الغريبات زواجاً يقوم على اتفاق الأبدان والمصالح وحدها .
 كان يحبهن وينشد عند كل واحدة منهن حباً مقصوداً عليه موقوفاً على
 رسالته . ويتمنى لكل منهن رجلاً من طرازه . . من طرازه هو نفسه . .
 أما أن تميل إحداهن إلى رجل من سواد الرجال بالنظرة أو الكلمة ،
 فتلك هى الخيانة التى ما بعدها خيانة ، والجرح الذى يغور فى صميم
 روحه إلى أعماق الروح . .

وهو يذكر من صور طفولته أنه كان يمقت كل صبي يقترب من
 شقيقاته ويفلح فى إضحاكهن أو الاستئثار باهتمامهن . . ولقد كبرت
 الصبايا ، وتمردت اثنتان منهن على قانونه ، فنالتا حياة باهتة تائهة فى غمار
 الملايين ، ولم يبق إلا نادية هى أمله الباقى . . المؤمنة الوحيدة
 فى معبده .

ونادية لغز . عيناها العسليتان سر عليه حجاب . لقد واعدت
 محمود فى ليلة زفاف أمينة وهى تلقاه من يوم إلى يوم ، وتصحبه إلى
 السينما ، وتمنحه قبلاها وتحلم به كل ليلة وهى تخطر فى الظلام فى حجرتها ،
 وكلما مرت أمام المرأة ألقت على خيالها نظرة فاحصة ، نظرة الحمى
 والخيلاء والحنان . طليعة تلك العاطفة المعقدة المقنعة التى يستر البشر
 حقيقتها وراء غلائل الشعر . .
 وعصام يجهل هذا .

يجهل أن المعركة الثالثة والأخيرة على الأبواب .

موقفه القديم من أخته هدى وأمينه لم يكن عن رغبة أصيلة في الدفاع . عن هاتهما . . لقد كان يدافع عن سعادته الذاتية وكان في حاجة إلى وجود شقيقاته . . وبغيرهن لم يكن يرى الوجود وجوداً . . والآن لم تبق له غير نادية . إنها آخر رباط يصله بطفولته الحبيبة ، يوم كانت تحف به الأثواب النسوية وترق له الأصوات الرخيمة وتحنو عليه الأيدي الرشيقة . . ولو ضاعت هي أيضاً لما بقي له من دنياه شيء ، بل تلقفته الوحشة ويفقد ذلك الإحساس العميق الأصيل الذي يقوم عليه كيانه النفسى ، إحساسه بأن هناك قلباً — واحداً على الأقل — تحتل صورته فيه المكان الأعلى ، ويعاود سلطانه فيه على كل سلطان . .

هى تأميدته . أليست تحترم آراءه ، وتردد كلماته مفتونة بها ؟ إنه لا يبغي أكثر من هذا . .

وعندما تدخل صومعته ويراهما وهى تلمس ملابسه وكتبه وأوراقه ، فإن مسرة لطيفة نقية تشيع فى نفسه وتنشر فى عتمتها أقباساً من النور ، كأنما تخلع يد الأخت الصغيرة على أشياءه حناناً كريماً ، تلك اليد البيضاء الرقيقة التى لم تمسها دناءات البشر . .

٧

وحدث ذات يوم أن تأخرت نادية فى عودتها من المعهد العالى لمعلومات الفنون عن موعدها المألوف ، فلما تأملها أخوها خيل إليه أنه يقرأ فى عينيها ويلمح فى مظهرها إشعاع غبطة داخلية غامضة المصدر .

من أى نبع خفى ينهل وجود هذه الطفلة الحسنة ؟
وما الذى يدور فى هذا العالم المغلق من اللحم والفكر ؟
ألعلمها — هى أيضاً — تخدعه ؟ . .
أتراها تلقى رجلاً ؟ . .

وقال لها وقد جلسا إلى العشاء وحدهما (فقد كانت أمهما الست

دولت معتكفة لمرضها) إنه لثقتة بها يدع لها حرية التصرف في وقتها ولقاء صديقاتها والتسرية عن نفسها ، فهو يعرف أنها فتاة عاقلة ، ولن تكتم عنه من أمورها شيئاً ، فهو صديقها ، ولسوف يركن إلى العزلة التامة يوم تغادره بدورها لتتبع الرجل الذي يختاره قلبها . .
وتضرجت وجتها نادية وقد ذكرت محمود ، ثم سألت أنحاشا دون أن ترفع عينها عن طبقها : ماذا تعنى يا عصام ؟
فارتسمت في وجهه ابتسامة تقطر مرارة ، ولكن صوته كان هادئاً ، دافئاً بالموددة والاستسلام :

- أعنى أنى رجل كتبت عليه الوحدة . . .
- وتريثت نادية قليلاً ، ثم رفعت إليه عينين براقيتين غامضتين وقالت له في مثل مودته :
- إنى لا أفكر في الزواج !
- إلى متى ؟
- أحلم بوظيفة مدرسة في روضة أطفال .
- وإذا تزوجت ؟
- لو أنى تزوجت فإنك ستكون لى دائماً نعم الصديق ، وإن كنت لا أفهم لماذا تتحدث عن نفسك هكذا . . إنك تستطيع أن تتزوج ، وتفتح بيتاً ، وتصنع لنفسك حياة مستقلة كاملة .
- حياة مستقلة وكاملة ؟ . . وارتسم لجأطره وجهه فظيع . . وجه « العالمة » التى زفت أختيه تحت رعد من دقات الدفوف ، وأوشك أن يبكى وهو يسترجع صوته القبيح : « عريس قمر نوره علينا ظاهر ! . . »
- ومن وجهه مغنية الدف السمجة انتقل فكره بلا مناسبة ظاهرة إلى وجه محمود الواشى بحيوانيته .
- وفي الوقت نفسه كانت نادية وهى تداعب حبات العنب المثالجة في الطبق تفكر في محمود وتطالعها صورة وجهه الواشى برقته . .

ألف محمود أن ينتظرها على باب المعهد في موعد انصرافها ، يوم الأحد ويوم الخميس من كل أسبوع ، فكان يتلقى ابتساماتها الرقيقة ، ويحمل عنها كراسياتها وأدوات « التريكو » في حقيبتها الخفيفة الرشيقة ، ثم يتخيران شارعاً هادئاً يتسكعان على رصيفه . .

• وقد توفى نادبة إلى يوم كامل « تزوغ » فيه من المعهد فيقصدان إحدى دور السينما في حفلة الصباح . . وكان يقول لها وهو يضحك إنه لا يحب في الأفلام مشاهدة الهواء الطلق ومناظر الصفحات الأولى من الصحف والرسائل الخطية : لأن الإضاءة في تلك المشاهد تكون من القوة بحيث تحول دون متاع العشاق . . وكانت نادبة في يومى السينما ، تعود إلى البيت في حالة غريبة من الإعياء والكآبة وما إن يقع بصرها على عصام حتى تجيش نفسها ندماً ، وكم من مرة أوشكت طبيعتها الصريحة أن تدفعها إلى الاعتراف لأخيها بسرهما ، لعله خيل إليها أن حبها يشع حولها كالمالة . وأنه سيفضحها . .

ما الذى كان يفتن صاحب نساء كمحمود في طفلة غريبة كنادبة ؟ إنه لم يعرف قبلها امرأة استطاعت أن تمنحه ذلك الإحساس بالاستسلام الواثق والخضوع الكامل . . كانت ظلاً وفتوناً وطاعة.. وكان خضوعها لقبالاته المهمة ومداعبات يديه لا يفتأ يغريه بمتاع أوفى . . وبدأ في مقابلاتهما السريعة في الشوارع ودور السينما يضيق بالقبالات العنيفة العميقة ، ويحلم بغرفة مقفلة تملؤها نادبة بطاعتها ونضرتها وأضواء بشرتها الشمعية المشربة بشباب الدم ، ثم يطرد هذا الخاطر الملح إذ يذكر ثقته بها وإيمانها بحبه أو يذكر أخاها الصديق . . ربما خطر له أن يتزوجها ، ثم تقضى على الخاطر صورة الحياة الزوجية الساخرة التي طالما رسمها عصام نفسه في أحاديثه ومقالاته . .

وجاء من الأيام يوم انتهى فيه هذا الصراع النفسى بصاحبه إلى ترجيح كفة الزواج فقرر أن يطلب يدها ، وأن يكون ذلك في بيته ،

وبعد أن يطرد عشيقته . .
وصحبته نادبة دون اعتراض إلى مسكنه . . وكان قد أعد صيغة
معينة للمناجاة بطلب يدها : فلما وجد نفسه معها لأول مرة في غرفة
واحدة : وهي طائفة ساذجة : نسي الكلمات المعدة وأسكت ضميره
بكلمتين : سأزوجها فيما بعد ! . .

٨

كان عصام قد تماثل للشفاء من مرضه الطويل عندما زارته أخته
أمينة وزوجها توفيق أفندي وطفلتها الصغيرة « نيني » . ومن أمينة عرف
أن أمه التي كانت تقيم عندئذ في سمالوط حيث تقع « أملاك » حجازي
أفندي زوج ابنتها هدى ، يسرها — كما يسر ابنتها وطفلهما « عادل »
الذي أتم شهره الخامس عشر — أن يقضي عصام ونادية أياماً في
ضيافتهم . . وكان عصام في تلك الفترة في حيرة شديدة من أمر نادية
وصديقة جديدة لها لم تقع عليها عينه ، تدعى « خيرية » أو كذلك قالت
له أخته . كانت نادية تدخل عليه غرفة مرضه ، في تمام زينتها ،
فتسأله في عجلة عن صحته ، وقد تسقيه بيدها جرعة من دواء حان
موعد تناوله ، ثم تقول له وهي تحول بصرها عنه متشاعلة بالنظر في المرأة :
— عصام « خيرية » تنتظرنى أمام سينا ريفولى . . فيلم هائل . .
فهل تستطيع أن تعنى بشأنك حتى أعود ؟ . . وربما أحضرت
« خيرية » معى . .

وكان يشعر أنها تكذب ، ولكنه يبتسم قائلاً لها :

— نعم جيئنى بها . . كم أود أن أرى هذه الصديقة الجديدة التي
تكاد تشغل وقتك كله . .

وتخرج نادية منطلقة إلى محمود الذى ينتظارها في مسكنه الصغير
بشارع الزهرة وتاركة أخاها يتقلب في فراشه . . كيف يسعه أن يضع حداً

لاندفاع نادية الصغيرة الساذجة ؟ إن العنف لا يغنى . . وفاته في سنها لا تخرج للقاء واحدة من بنات جنسها منمقة معطرة كما تفعل ، ومشتعلة مضيئة كما يراها . . إنه الحب ! . . ما أجمل هذا النور الذى يضيفه الحب على البنات الصغيرات ! . . الحب هو القوت الغامض الذى يمد الوجه النسوى بهذا البهاء . . ولكن أى لون من الحب ؟ . . العاطفة البريئة ، نشوة التعارف والتفاهم النفسى ، أم حضيض اللذات الوضيعة ؟ . . ولأول مرة في حياة عصام النفسية فكر في أن يتبع أخته يوماً دون أن تشعر ليرى وجه « خيرية » هذه . . من تكون ، أو من يكون ؟ . . لعل في حجرة نادية دليلاً يهتدى به إلى حقيقة تلك الشخصية الغامضة . . رسالة ، أو صورة . .

وفي حجرة نادية تصفح الكراسيات المبعثرة على المكتب الصغير . . وعثر على تذكرتين قديمتين لإحدى حفلات الصباح في سينما ستديو مصر لا بد أن « خيرية » كانت معها . . وامتدت يده إلى أحد الأدراج ، وكان مليئاً بالأوراق والمفكرات و « الأساتيك » وأقلام الرصاص والصور القديمة . . كثر طفلة . . ثم وقعت يده على كراسة ضخمة في آخر الدرج فأخرجها ، وتأمل غلافها الفستقي ، ثم فتحها ، وقرأ في صفحاتها الأولى ، بخط نادية الدقيق كلمة كبيرة « يومياتى » . . آه إنها تكتب يومياتها ! وجلس على طرف الفراش الصغير الذى يضوع من وسائله المزركشة عطر نادية ، وأشعل سيجارة ، ودخل ذلك العالم الغريب من الشعر المنشور . . إن لها لأسلوباً ! . . ولكن : من يكون « م » هذا الذى يظهر ويختفى بين السطور ؟ أتراه يعرف أن نادية تحرق في محبته كل ليلة ، قبل أن تنام ، كل هذا البخور ؟ . . أفى الرجال واحد يستحق هذه الصلوات :

« إن قبلته لم تلهب شفتى وحدهما . . لقد أشعلت النار في شبابى كله ، انطلقت من شفتى مخترقة كيانى ، واستقرت في روى ذبذباتها الدافئة

انتي ستصحبني يوم أموت إلى قبري . . لو لم يكن في حياتي كلها غير
هذه القبلة لكان من حتى مع ذلك أن أقول إنني عرفت ما الهوى ، وما
الصباية وما الفناء في المعبود . . »
أخته تحب . . أختها شاعرة !

وإذا جرس الباب الخارجي يدوى في الشقة كلها فينتفض عصام
واقفاً ويقذف بالكراسة في أعماق الدرج وهو يرتجف كالصبي الملعون ،
ثم يهرع إلى الباب وهو لا يدري أن صوته المرتعد يردد في همهمة غريبة :
« الفناء في المعبود . . الفناء في المعبود . . »

وفتح الباب ، فوجد أمامه آخر إنسان كان يتوقع في تلك اللحظة
وذلك المكان أن يراه . .

كانت الطارقة « روحية » التي تعيش في بيت صديقه محمود خادماً
وعشيقة . ولم تكن الأصباغ التي لطخت بها وجهها الأسمر الوسيم تخفي
ماوراء نظرتها الكسيرة من حزن عميق وكأن في عينها أثر البكاء الطويل ،
وظل السهاد . . وهي تريده هو بالذات ، وقد طال تردددها قبل أن تحزم
أمرها على الحضور . . إنها شقية ، أشقى امرأة . . لقد هجرها محمود
هجراً غير جميل . . طردها طرداً ، كما تطرد الكلاب . . وليس في
حقيبتها غير ريال ، وخاتم ذهبي ، وصورة الحبيب الغادر . . ماذا تصنع ؟
ألا يستطيع الأستاذ أن يعيد إليها عطف صديقه ورضاه وكرمه المأثور ؟ . .
جنيت قليلة ، على الأقل ، تبدأ بها حياة جديدة ؟ . .

وكانت قد اتخذت مجلسها على أحد مقاعد حجرته ، وجعلت تجفف
دموعها الغزيرة وهي تصور له في كلمات متقطعة متعثرة شقاءها وحيرتها ؛
وكان هو يعددها أن يبذل كل ما في وسعه ، فرفعت إليه عينها الرطبتين
وقد انتثر شعرها المصقول على جبينها وارتسمت على شفتيها الغليظتين
المصبوغتين ابتسامة شكر ورجاء . . إنه طيب ، ولطيف ، فليت صاحبه
مثله ! . . فلما رأى النظرة وسمع الشئ قال لنفسه : « إنها ماجأت إلا

لترى شبا كلها على صيد جديد . . . وهي لا تنتظر ولا تطلب غير أن
أخذها الآن بين ذراعي : واحتفظ بها لنفسى . . . كلهن هكذا . . .
دود يعلق بأقضية الرجال . . . »

ورأتها باقيا على جموده فكانت هي التي دنت منه وأسندت رأسها
على كتفه ، ثم ضمته ، ومكنته من شفيتها . . . أعمض عصام عينيه
وقد جاشت نفسه وشفتها في فمه بإحساس من يأكل طعاماً تنقرز له نفسه
وملأت رائحتها أنفه . . . وأحس بها تدفعه في رفق خبير نحو الفراش
وتسقط فوقه فشعر كأنما يسقط في الفضاء من حلق
وذكر المرأة الأخرى في ذلك البيت المريب الذي قاده إليه قديماً محمود
صاحب هذه المرأة ، وإذا به يطلق صرخة رهيبة ويدفع عنه هذا اللحم
الساخن القدر المباح :

— دعيني . . . دعيني . . .

فاعتدلت المرأة وقد استبد بها الذعر وعقلت لسانها الدهشة :

— ماذا ؟ . . . ما بالك ! . . .

— اخرجي . . . دعيني . . .

— أطردي ؟ . . . طبعاً ! . . . الوفاء لصاحبك ! . . . كلكم أوغاد ! . . .

أنت تريد أن يهجرني لكي يتزوج أختك ! . . . الآن أفهم ! . . . ألا تعرف ؟ ! . . .
ولكنه لن يتزوجها أبداً . . . سينال منها ما يشاء ثم يلفظها بدورها ، كما لفظني .

ومادت الأرض من تحته ودار السقف فوق رأسه ، وامتدت قبضته
المتشنجتان إلى كتفي المرأة التي صعقته إشارتها إلى أخته ، وجذبها إلى
الأرض ، وصرخ في وجهها :

— إنك تكذبين ! تكذبين !

في رأسه دوى رهيب « م . . . م . . . محمود ! »

وقالت المرأة وهي تخلص نفسها وتضحك في شماتة :

— أحسبت أنك تعجب امرأة ؟ . . . إنك هزيل طرى خوار !

وأختك الشريفة العفيفة بنت الطيبين ، اذهب فابحث عنها ! . .
واختطقت حقيبة يدها ، وانطلقت خارجة وهي تسوى شعرها . .
فلما عادت نادية بعد ساعة ، كان أول ما قال لها أخوها :
— غداً نسافر إلى سمالوط لزيارة الأسرة . .

٩

سمالوط . الست دولت وهدي وحجازي أفندي وعصام ونادية حول
مهد «عادل» الصغير . . صفقت نادية بكفها أمام تلك الكرة العجيبة من
اللحم الحى الباكي . وجعلت تضاحكها . وتلمسها ، وتناغمها . .
ووقف عصام يتأمل هذا الوحش الصغير الأصغر ونادية وهي تقبل قدميه
العاريتين . . وتقززت نفسه وقد شم رائحة اللبن والبودرة والبول . . أهذا
هو مصير نادية أيضاً ؟ . .

أهذا هو ما تعلم به ، وما تنشده بغريزتها عند محمود ؟
أليس من واجبه هو أن يحطم هذا الحلم البشع ؟ . . نعم يترك نادية
في هذا المنفى مع أمها وأختها ، ويعود في اليوم التالي إلى القاهرة فيقصد
إلى مدرسة محمود ويغالب له في القول وينهاه أن يأتى أخته ويتركه على
جفوة وقطيعة . .

كانت الثقة والقوة ملء نفسه وهو يجتاز فناء المدرسة نحو حجرة أمين
الخزانة . ولكنه لم يكده يدخلها حتى كان محمود قد قفز من وراء مكتبه
واندفع إليه فضمه في مرح إلى صدره وجعل يرقص به أمام المكتب
الصغير المثقل بدفاتر الإيصالات والأختام وعلب الدبابيس وهو يقبله
ويصرخ في أذنه :

— أهلاً بحبيبي . . أهلاً بصهرى العزيز . . خلاص يا عصام . .
تبت على أيديكم . . واسوف أنتقل إلى جوار زوجتي العزيزة وأمحو من
حياتي ذلك الماضي العايب كله ، فلا تقل لى إنك لا ترانى لها أهلاً . .

لا تقل لى إنك لن تمنحني يد نادية . . نادية يا حبيبي ، وإلا خنقتك
بيدي هاتين ، هنا أمام الخزانة ، وليكن ما يكون . . وتطالع صحف
المساء قراءها بعنوان كبير على خمسة أعمدة : « أمين خزانة مدرسية
يقتل صحفياً في مكتبه » ! لا ياعصام ، خير من هذا أن تختار أهون
الشرين ، فتقبلني على عيبي ، زوجاً لأختك ! . .
كل ثقة بنفسه زالت أمام هذا الحيوان المرح المطمئن السعيد .
الزواج الأخير !

آخر لبنة في الجدار الضخم العالي القائم بينه وبين شقيقاته !
لم لا يقاوم ؟ وأين الحديث الذي أعده كلمة كلمة ؟ وما هذه
الابتسامة الخائفة الصفراء على شفثيه ؟ . .

لقد ضاع كل شيء . . الآن هو وحيد . . وحيد إلى الأبد . .
ولسوف يعود بعد قليل إلى ذلك البيت الكبير الخالي ، فيستقبله رفيق حياته
السكون العميق . . ثم يقبل ذلك الرفيق الآخر المرهوب ، الليل الأسود ،
الطاغية . . وعندما تزحف ظلماته ، سيطوف هو بالبيت كالشبح الدليل
في الأطلال ، ويشعل أنوار البيت كلها ، لكي يوهم نفسه أن البيت
ما زال آملاً بسكانه . . لا ، لقد ذهبت إلى الأبد تلك الأرواح الرشيدة
الخفيفة التي طالما عمرت البيت بضحكاتها وأصواتها ، وخلفتها شبحاً
في ظلل . .

كانت أسوأ ليلة في عمره . .
أشعل الأنوار في كل غرفة ، ثم ضاق بالنور فنشر في البيت جو
الحداد . . .

وغاص في هوة من الحزن المظلم . ثم أضاء مصباحه وحاول أن يكتب
ولكن ذهبوا مستغرقاً عجبياً سيطر على قواه ، فاستسلم لحدره ، وترك
السيجارة تحترق في المنفضة ، كأنها بقايا حياة . .
وبغته ، دوت في ذهنه الهامد جليجلة فكرة جديدة !

أجل ! . . . لسوف يعدن : كلهن ! . . .
 لسوف يعدن فيجتمعن عند سريره . ناديات : تائبات : خائفات
 مشفقات . . . إن في صيدلية البيت الصغير أنبوبة كاملة من الكينين ،
 وقد قرأ أن أقراصها تكفى للقضاء على حياة الإنسان ، فليأخذ إذن نصف
 ما في الأنبوبة من أقراص . وبذلك يفرعهن : ثم لا يموت ! . . . وستعرف
 نادية أن ذلك كان بسببها ، فتركع عند فراشه باكية مروعة وتقسم له
 أنها لن تتزوج محمود . . . ستصبح في يده كالعجينة يصوغها كيف
 يشاء . . .

وتولته خفة نزقة . وتصورهن معولات راكعات حول سريره ، وخيل
 إليه أنه يسمع صوته المتحشرج إذ ينادى الموت ليزيد في فرعهن ،
 فنهض إلى الورق وأشرع قلمه وكتب ثلاث برقيات الأولى إلى سما لوط ،
 والثانية إلى توفيق أفندي في شبرا ، أما البرقية الأخيرة فلمنى لا أزال أحتفظ
 بها إلى اليوم . . .

١٠

طفل . طفل ممدود في فراشه . وفي معدته نصف ما كان في أنبوبة
 الكينين من أقراص . وفي نظرتة إلى ساعة معصمه — بين كل دقيقة
 وأخرى — لهفة الانتظار .

لقد أعد المشهد بدقة شيطانية ، وبعث ببرقياتة اثلاث في مواعيد
 متفرقة ضمن بها أن يجتمع شمل الأسرة كلها حول سريره في ساعة
 واحدة . . .

ولم يكن ينتظر النافرات البعيدات وحدهن ، ولا ذلك الكاتب الصديق
 وحده ، وإنما كان ينتظر أيضاً تلك الآلام التي قرأ عنها . . .
 وبدأ رأسه يشغل على الوسادة : وكأن في حلقه حريقاً ، وكأن في
 رأسه دوى مصنع كبير . . .

وتشنجات عنيفة كان قد قرأ وصفها المروع بدأت تعض في بطنه ،
وغشيت نفسه في نوبات الفواق ، فأطلق صرخة الرعب في فضاء البيت
الساكن . .

وانتصب واقفاً وهو يترنح ثم يسقط مرة أخرى فوق الفراش وقد
سالت على وجهه خيوط لزجة باردة من العرق الغزير وتثلجت أصابعه ،
ونادى في صوت مختنق كأنما تخرج نبراته السقيمة من بطنه :
— نادية ! هدى ! أمينة !

لم تأخرن ؟ ومن يضمن له أن القدر الذي أصابه من ذلك العقار لن
يكون فيه القضاء عليه ؟ . . وإذا لم يحضر أحد ؟ ! . . إنسان واحد . .
أى آدمى . . وجه بشرى . . يد رحيمة تمتد إليه . .

ولقد أوشك أن يصرخ فرحاً عندما سمع الخطى السريعة والأصوات
العالية في مدخل البيت . .

ورأى أمه وهدى ونادية يقتحمين بابه ، وسمع صرخاتهن ورن اسمه
في أذنه فأدرك أن نادية تناديه وقد انحنت عليه وأحاطته بذراعيها وغمرت
وجهه بقبالاتها :

— عصام ! ماذا أخذت ؟ ومتى ؟ لم فعلت هذا يا حبيبي . . .
وجعلت تنهداتهن وأسئلتهن تتلاقى وتشتبك فوق رأسه ، فأغمض
عينيه وقد سرت في كيانه مع الآلام الشديدة نشوة الاستمتاع بهذا الرعب
كله ، وهذا الحنان الدافق الموفور . . وخيل إليه أن هدى تغسل له
وجهه بمنشفة مبتلة ، وأن نادية تحاول أن تقيس نبضه . . وأمه المسكينة
كان صوتها ينصب في أذنه كالموسيقى :

— تكلم يا عصام ! قل شيئاً يا حبيبي ! لقد ذهب حجازى أفندى
ليحضر طبيباً . . كيف حالك الآن يا ولدى . . أنا أملك .

لم يكن واثقاً أن هذا الرجل الذي دخل الآن هو حجازى أفندى
فقد كان بصره زائغاً ، ولكنه خمن ذلك عندما رأى للرجل الآخر

الذى أقبل من خلفه وعرف فيه سميت الأطباء . . ثم سمع عويل هدى ،
ونسوت توفيق . ويكاء طفل صغير فى الغرفة المجاورة لغرفته .
لقد امتلأ المكان بالناس ودفء الاهتمام . .
وشقيقاته . . كن كما شاء وتمنى . .

وهذا الطبيب البليد : ماذا يصنع ؟ . . إنه يلتقط أنبوبة الكينين
من فوق النضد الصغير المجاور للفرش ، ويسأل - كم قرصاً أخذت؟ ..
ولم يجب عصام ، ولكنه أدار وجهه نحو الجدار وهو يقول لنفسه
إنه إذا اعترف بعدد الأقراص التى تناولها فإن الطبيب سيدرك الخدعة
ويكشفها لشقيقاته فيسكن عنهن الروع ، وهو لا يريد من مطمئنات
فإن زعرهن هو الشيء الوحيد الذى يعينه على تحمل آلامه . .

- عصام . كلمنى : أنا نادية . . .

- بسببك . . بسببك كل هذا . .

ولم تجب نادية على هذه الهمسة الدليلة ، ولكن يد الطبيب امتدت
إلى ذراعه بإبرة غاصت فى لحمه .

ثم جرعتة يد أخرى - لعلها يد أمه - فنجاناً من القهوة ، فلم يكذب
السائل الدافئ المر يمس حلقه حتى انبثق القيء من فمه وقد هزت بدنه
المنفض بالحمى تشنجات فظيعة .

وبدا كأن ذلك البدن المعذب قد استكان بعد نوبة القيء القاسية إلى
شيء من الاسترخاء ، فخرج الطبيب إلى صالة البيت وتبعته الأم وبناتها
الثلاث ، فلما عدن معه بعد دقائق كان فى وجوههن من الروع واليأس
ما أفزع فتى الأسرة التعس فى محنته . .

- لماذا تبكين ؟ . . ماذا قال لكن ؟ . . أريد أن أعرف . .

أترانى سأموت . . أماه !

فأجهش من حوله بالبكاء . .

- أموت ؟ . أنا أموت ؟ . . أما من سبيل إلى إنقاذى ؟ . . إني

ما أردت هذا ، وما كان الموت بغيتي . . ألا تصنع لى شيئاً ياسيدى . .
شيئاً يرد على الحياة . . .

وتعلق بستره الطبيب : وقبل يدي الرجل الغريب وباللهما بدموعه . .
— إنها غلظت . . هجرنى وآثرن على قربي الحياة مع حيوانات من
هذا الطراز . . . حجازى . . توفيق . . محمود . . لماذا يقف هؤلاء الأوغاد
حول سرير موتى ؟ . . ماذا يفعل السفلة فى هذه الغرفة ؟ . . ماذا يصنعون
فى بيتى ؟ . . لقد أقبلوا ليشهدوا أنى أموت . . فليخرجوا . . ليخرجوا
فى الحال . . أريد أن أظل وحدى مع شقيقائى . . إني لى وحدى ، ولن
أنزل عنهم لأى رجل . . .

وأشار الدكتور بيده إلى حجازى وتوفيق فانسلا من المكان وخرجت
على أثرهما الست دولت وراء الطبيب وهى تشهق بالبكاء . . و دخلت الغرفة
إلا من الأرواح الثلاثة الرقيقة ، فالتفت بسلطان الأرواح المحتضر . .
— آه . . الآن أنتن لى . . عدتن إلى . . يا حبيبائى . .

وفى هذه المرة قاء دما ، تلقت نادية فى راحتيها .
ولكنه ظل يتأملهن من خلال دموعه وينأجهن :
— لم رحلتن ، وختن عهدي ؟ أما كنتن سعيدات معى ؟
أما كنت سعيدة معى يا نادية ؟

فأعولت نادية بالبكاء ، وسقطت أمينة فوق قدميه ، ومرت هدى
على شعره وجبينه بيدها المرتعدة . .

وأراد أن يتكلم ، ولكن الكلمات لاذت بالفرار خارج نطاق ذهنه
كسحابات من الدخان . . ومزقت أحشاءه آلام فظيعة ، ونزع الضمأ
لعابه . . ثم دخل فى منطقة حلم غريب . . وكان فى الحلم جسد امرأة
ضخم عار ثقيل ، قد انطرح فوقه ، كأنما يشرب أنفاسه . . وثمة
يد تشر التراب فى وجهه . . إنيهم يدقونه خيلاً . . وتقلص جسده
فصار كالوتر المشدود ، وهبطت حرارته ولثت بأنفاسه وتسكع نبضه



على عتبات الأبدية ، ثم دخل الغرفة الزائر الرهيب حاصد الأرواح .

° ° °

وقد كان هذا الحداد سبباً في تأجيل زواج محمود ونادية واحداً وأربعين يوماً .

الرقصة الجديدة



كانت هذه أول مرة يهبط فيها من الشجرة إلى الأرض بعد غروب الشمس .

وكان الأفق كله سابحاً في ضوء القمر ، بسماؤه وأرضه وصخره وشجره وأحيائه ، عندما عصف بذلك الحيوان الفريد القابع كعادته عند ملتقى غصنين قويين في ذروة الشجرة ، شوق غامض عارم إلى الهبوط في الليل إلى الأرض ، وكان ذلك في يوم قديم ، منذ بضع عشرات قليلة من ملايين السنين .

هبط الأرض متوجساً يتلفت ، ومشى غير بعيد من الشجرة التي يسكنها كما سكنها قبله أجداده قروناً من الأزمان ، وتأمل نبات الأرض الزكي في المساء ، والأحياء العجيبة الضخمة التي تمشي على أربع أو تزحف على بطونها أو تتلوى وهي تفتح وتنفض الشر . . ووجد رزقاً وقوتاً ، فاستخفه الطرب ، وراح ينادى وحشاً ضارياً رآه إلى شيء من العبث ، ثم تصدى له واستفزه في خبث وجراءة ومناورة ، وزار الوحش وهجم فوثب حيوان الشجر الفريد المرح في خفته القردية إلى الشجرة وجعل يرسل من فوقها عواء الضاحك ، مستمتعاً بما ينفثه السبع الهائج من أنفاس الحية .

إلى تلك اللحظة كانت هذه الشجرة هي دنياه كلها .

كانت له فوقها حياة مفعمة نحافة ، وكان مستوحداً ونفسه كلها وحشة ، ولم يكن له اسم ولا جنس ولا عقل ولا ذاكرة ، ولكن أحلام الزمان غضة في قلبه المتوجس الخفاق .

لم يكن ديباً ولا سنجاباً ولا قرداً : ولكنه ابن عم لها ، يعيش مثلها على الأشجار ويجهل أن له أباً وأماً وجنساً ، وإذا وقف اعتدل في وقفته واستخدم يديه .

وقد عاش طويلاً في القمم الخضراء قبل أن تدفعه فتنة الأرض الغامضة إلى أحضانها . . . كانت طبيعة الأرض تجذبه وتخلق له — من خلال فضوله — عقله البشرى . . . وقد بدأ المغامرة بوثبات خفيفة إلى الأرض كان يعود منها إلى الشجرة وقلبه ينتفض من الرعب . . ولم يكن في البداية ينزل إلى الأرض ذات الأسرار والروع إلا عند شروق كوكب النهار الساطع الكبير ، في ذلك العيد اليومي الذي كان يهلهل له في كل مرة فرحاً بالنور وعبادة له . . ثم وجد من نفسه الشجاعة ذات مرة فقفى في الأرض الواسعة المحيطة بشجرته نهراً كاملاً كله تجربة ومتاع حتى طردته وحشة الغروب إلى عالمه الأخضر الآمن ، حيث يفهم لغة الطير التي تبنى أعشاشها معه على الشجر وترتل له الأنغام بالقرب من النجوم .

ولكنه ، في ذلك المساء ، هبط في الليل ومشى في الأرض يعابث وحوشها ويستطلع سحرها .

وكان قد قطع مسافة في الوادي عندما حدثت له تجربة جديدة رائعة ، في لقاء فريد اهتزت له نفسه بضرام من عواطف الرعب والأنس والرهبة .

رأى واحداً آخر ، مثله . . واحداً يشبهه ويمشى هو الآخر على قدميه منتصب القامة في توجس وفضول وحيرة .

ورآه الآخر ، وصرخ ، ووقف . . . وقفا أحدهما أمام الآخر ، مصعوقين من الدهشة ، والتفت عيونهما .

والتقى في الأرض أول محاربين بشريين من سكان الشجر ، أبناء عم

القرود والدب والسنجاب ، فى الليل ، فى الكون ، فى التاريخ .
وكان كلاهما عملاقاً .

وفى قلبيهما طفولة الزمن ، وحلم قريب بتلك « الجنة » الخضراء
التي هبطا منها .

دهر من الشعور فى نظرة طويلة عميقة كأنها يقظة موجعة من سبات
طويل . . وإذا به يتبين أن هناك فارقاً عجيباً بين تكوينه وتكوين
شبيهه .

كان شعر المخلوق الآخر أطول من شعره ، وكان ينقصه شىء ما ، فى
وقفته اللينة وشهقاته الناعمة ، وكان فى صدره ثمرتان عجيبتان ، لهما
شكل ما أبدعه !

وومض فى عيني الآخر أيضاً إدراك لهذا الفارق العجيب !
والمخلوقات البشعة تزحف وتقفز وتطير وتتلوى غير بعيد منهما ، وفى
سمعهما فحيح صادر من شق فى صخرة . . .

ودمدمت شجرة معمرة وهى تحترق من ضربة صاعقة شق وميضها
السماء متعرجاً . . والأفعى فى الشق تفح فى إصرار . . وكان « هو »
مخلوقاً بشرياً كأنه مسودة إنسان ، خاضعاً لسلطان الطبيعة ومتضرعاً إلى
المجهول الهائل الذى يحتويه ، ولكن فيه يقظة فى النفس والتذاذ بالحلم . .
وكانت « هى » مثله ، لولا شبهة شاحبة من ضعف . . ولم يكن « هو »
يعرف أنها « هى » ولا كانت تعرف أنه « هو » !

لم يكن أحدهما يعرف شيئاً فى تضرعه الحائف الأيكم إلى قوى
الكون ، لم يكن لهما شعائر وطقوس ، ولا صروح وتوابيت ، ولا لغة
ولا شعر . . ولكنهما قضيا الليلة لأول مرة فى الأرض ، وباركاهما بالحب . .
وعندما أيقظهما أول شعاع من أشعة الشمس ، نهضا يهلالان فى
نشوة لوجه كوكب النور ، وإذا بهما يريان فى مكان الشجرة التى دكتهما
الصاعقة خشباً أسود متفحماً وقبساً متوقداً يتوهج لبه فى سحر أخاذ .

نظر إليها ونظرت إليه وانطلقا في مهمة مضطربة تريد أن تتوضح حقيقة الإحساس المشترك . . ثم مد « هو » يده الكبيرة المكسوة بالشعر فأمسك يدها ، وعجب لصغرهما وهو يجذبها معه نحو ذلك اللهب الساحر وبوحى الفطرة المفتحة عن برعم العقل : تعهد أول زوج من الناس وقدة النار حتى لا تحبوا ، وصار الليل يأتي ويذهب دون أن يجذبهما الشوق إلى القمم الخضراء : وقد كانا قبل النار يحبان الغزال الجميل العابر في سلام القرون الأولى ، فصارا صيادين يستطعمان اللحم في سعار .

ومرت حياة فإذا معهما مخلوق ثالث صغير يحبو ويلهو ويضحك ويتعلق فبه الصغير بثدى أمه ، ثم ثان ، وثالث ، ورابع ، وجماعة إنسانية حقيقية في الأرض .

كانت البداية الحقيقية لنشر ظل الإنسان على الأرض وإخضاع طبيعتها لمقتضيات عيشه . .

وجاءت ليلة أخرى ، بعد حياة مرت ، وسبح الكون في ضوء القمر وسبح رب هذه الأسرة في ذكريات تيقظت في عقله ، وذكر الشوق الغامض العارم الذي دفعه في تلك الليلة القديمة إلى الأرض . . إلى لقاء قرينته . . وفاضت نفسه وجاشت . . وتناول عوداً وأدناه من شفثيه وراح يقلد صوت الهواء وهو يغنى في أعواد اللوتس والغاب المحبقة ، وصوت الطيور ، وكل موسيقى الكون التي تعيش في أعماقه .

وعصف به الطرب وراح يصور نفسه الساذجة ويشرح بلا وعى أعماقها وخلجاتها ، وإذا بقرينته وابنيه وابنتيه يترنحون ويتمايلون ، فكان الرقص . . وولدت الإنسانية .

٢

ومرت بضع عشرات قليلة من ملايين السنين ، وجاءت ليلة في حانة من آلاف الحانات ، في مدينة من آلاف المدن .

— قل لي . . ماذا جئت تصنع في هذا البار ؟
 — أشرب وأنتظر امرأة . . هل جلست في حياتك مرة في بار
 تشرب وتنتظر واحدة منهم ؟

— أهى فنانة ؟

— راقصة .

— الرقص شيء جميل . . .

— لعن الله الرقص ! !

— أتلعن التعبير الإنساني الكامل عن نشوة الحياة ؟

— الرقص لعنة . . لعن الله أول إنسان دق الطبل لامرأة فرقصت ! !

— دعنا إذن من الرقص . . أنت إذن تنتظر راقصة هنا كل ليلة . .

أهو الحب ؟

— ستحضر « هي » بعد قليل فتراها بعينيك . . أو على وجه التحديد

تري آخر لحظات حياتها !

— ماذا تعني ؟

— أنا الليلة قاتلها !

— ستقتلها الآن ؟

— أمام عينيك .

— أنت سكران !

— أبداً . . فقط هي بنت حواء . . لعنة . . صيادة . . أما أنا

فإن في جيبي الخلفي مسدساً . . وفي المسدس ست طلقات . . اثنتان

لصدرها واثنتان لبطنها ، أما الرصاصتان الأخيرتان فلرأسها الجميل
 إن شاء الله . .

— إنك تفرغني ياسيدي في أول لقاء لنا !

— المرأة أصلها قرد . . قرد من قرود الشجر . . تراها ساعية دائماً

وراء أى رجل غنى الحبيب ميت الضمير . . كانت حبيبتي وكانت
وديعة . وفجأة انقلبت قرداً كأصل أمها . . الليلة أحطمها وأحطم سعادة
غيرى بها . . يا أستاذ هذه لاتصلح إلا قردة فى قفص حديقة القروء . .
خائنات . . هات يا جرسون كمان واحد كونياك ، وبلاش الأنشوجة
الناشفة دى . . . ترقص عارية وتتلوى كالأفعى الخارجة من تحت صخرة . .
سأقتلها . . . سأضرب فى الصدر والرأس والبطن . . وستشهد بعينيك المشهد
الآخر من هذه القصة . . ستدخل «هى» مختالة فى معطفها الفاخر الذى
أهداه إليها الرجل الآخر . وأنتظرها فى هدوء ويدي فى جيبي الخلفى ،
وعندما تصير على خطوة واحدة منى ، وتفتّر شفتها الكاذبتان عن ابتسامة
اللؤم وتحية الغدر ، تخرج يدي من جيبي بالمسدس وأسدد فوهته إلى
مواطن جمالها وفتنتها فأنثرها على الأرض . . سأقتل الأنثى طويلة الشعر
بديعة الصدر ، الناعمة . . . هاهى ذى تدخل . . نعم هى هذه . . حواء . .
أليست حلوة فى معطف الفراء الأسود ؟ . . هذه يدي تمتد فى هدوء إلى
جيبى الخلفى ، وعلى شفتيها «هى» ابتسامتها العذبة ، سم الأفعى . .

— انتظر يارجل حتى أنجو بنفسى . .

— لا . . . انتظر أنت . . . انتظر . . . أهلا حبيبتي . . . تأخرت
على يا حبيبتي . . أعرفك بالأستاذ . . كنت أكلمه عنك قبل حضورك . .
حضرتها الفنانة المعروفة . . كونياك ياروحى ؟

وجلست «هى» ووضعت ساقاً على ساق بعظمة ، ودعك «هو»
كفيه ولم يعد فى وجهه من الملامح غير ابتسامة عريضة ، وانحنى
نحوها يسألها فى اهتمام وتحجب :

— كونياك ياروحى ؟

— والحساب على . . . ! !

— ماشى كلامك . شنتطك مفتوحة دائماً يابنت يا شاطرة . . هذا

الزمن يا محترم هو زمن النساء . . أين تذهب يا سيدى ؟ ألا تأخذ معنا
 كأساً أخرى ؟ . . إذن، مع السلامة . . لا . . لا تحاول دفع الحساب . .
 الحساب دائماً على الست . . .



1. [REDACTED]
2. [REDACTED]
3. [REDACTED]
4. [REDACTED]
5. [REDACTED]
6. [REDACTED]
7. [REDACTED]
8. [REDACTED]
9. [REDACTED]
10. [REDACTED]
11. [REDACTED]
12. [REDACTED]
13. [REDACTED]
14. [REDACTED]
15. [REDACTED]
16. [REDACTED]
17. [REDACTED]
18. [REDACTED]
19. [REDACTED]
20. [REDACTED]
21. [REDACTED]
22. [REDACTED]
23. [REDACTED]
24. [REDACTED]
25. [REDACTED]
26. [REDACTED]
27. [REDACTED]
28. [REDACTED]
29. [REDACTED]
30. [REDACTED]
31. [REDACTED]
32. [REDACTED]
33. [REDACTED]
34. [REDACTED]
35. [REDACTED]
36. [REDACTED]
37. [REDACTED]
38. [REDACTED]
39. [REDACTED]
40. [REDACTED]
41. [REDACTED]
42. [REDACTED]
43. [REDACTED]
44. [REDACTED]
45. [REDACTED]
46. [REDACTED]
47. [REDACTED]
48. [REDACTED]
49. [REDACTED]
50. [REDACTED]
51. [REDACTED]
52. [REDACTED]
53. [REDACTED]
54. [REDACTED]
55. [REDACTED]
56. [REDACTED]
57. [REDACTED]
58. [REDACTED]
59. [REDACTED]
60. [REDACTED]
61. [REDACTED]
62. [REDACTED]
63. [REDACTED]
64. [REDACTED]
65. [REDACTED]
66. [REDACTED]
67. [REDACTED]
68. [REDACTED]
69. [REDACTED]
70. [REDACTED]
71. [REDACTED]
72. [REDACTED]
73. [REDACTED]
74. [REDACTED]
75. [REDACTED]
76. [REDACTED]
77. [REDACTED]
78. [REDACTED]
79. [REDACTED]
80. [REDACTED]
81. [REDACTED]
82. [REDACTED]
83. [REDACTED]
84. [REDACTED]
85. [REDACTED]
86. [REDACTED]
87. [REDACTED]
88. [REDACTED]
89. [REDACTED]
90. [REDACTED]
91. [REDACTED]
92. [REDACTED]
93. [REDACTED]
94. [REDACTED]
95. [REDACTED]
96. [REDACTED]
97. [REDACTED]
98. [REDACTED]
99. [REDACTED]
100. [REDACTED]

دعنى أيتها الصديق أعود مرة أخرى إلى هذه الذكرى الغريبة من ذكريات حدثتى ، فأقص عليك ذلك الحادث القديم الذى وقع لى يوم كنت طفلاً فى العام التاسع من عمرى ، وقد أعاده إلى ذاكرتى فى هذه اللحظة منظر ابنتك الصغيرة عندما دخلت علينا منذ قليل وعلى كتفها عباءتها المنزلية الخضراء .

كان عمى يصحبنى كل ليلة إلى ذلك « السيرك » الكبير الذى شغل القاهرة فى ذلك العهد موسماً كاملاً ، إذ كان يضم مجموعة عجيبة مشيرة من أمهر اللاعبين وأبرع الحيوانات المدربة ، وكان عمى يعرف من أفراد الفرقة بهلواناً مغريباً ذائع الصيت يدعى « ابن عمار » فكنا نزوره فى بعض الليالى فى غرفته التى يحرسها زئير الأسود وفحيح الأفاعى .

وقد نشأت بينى وبين ذلك اللاعب المشهور مودة عظيمة ، وكان رجلاً ضخم البنيان موفور الصحة مهيب الطلعة ، فى طبيعه سداجة ، وإذا تحدث بلهجته المغربية فكأن حديثه الموسيقى . . وقد ألفت أن يتحفنى بين الحين والحين بهداياه النفيسة ، ومازال عندى منها صورته تلك التى تحمل عبارة الإهداء الرقيقة وتوقيع صاحبها .

وكان « ابن عمار » دائم الرضا عن نفسه ، جم الدعابة والمرح ، وكان - فيما يبدو لى - يزاول عمله الخطير بنفس الاطمئنان والبساطة والثقة التى يخلق بها ذقنه أو يشعل سيجارته ، فكان عجباً أن ندخل عليه ذات مساء فنجدّه عابساً مضطرب السخط ، وبدأ حتى لى أنا الصغير أنه يعانى قلقلة عصبية غريبة ، فأقبل عليه عمى يسأله عن أمره ، وأجاب صديقى الضخم :

— لقد ظهر مرة أخرى . إنه الليلة هنا ! . . .

وسقطت من بين يديه المنتفضتين عليه الأصابع التي كان يصنع من ألوانها وجهه حين دخلنا عليه ، فركلها بقدمه فحطمها وهو يسب ويلعن في لغة هي خليط من المغربية والفرنسية . . .

قال عمي : عمن تحدث ؟ ومن هو هذا البطل الذي استطاع أن يثيرك إلى هذا الحد ويفقدك ما ألفناه من اتزانك ووقارك ؟

قال ويلاه ، التي أمام المرأة ، ترتجف بالفرشاة الصغيرة :

— الكابوس الثقيل . . . مصيبة المصائب . . . الحاج زيتون

المغربي !

— زيتون المغربي ؟ !

قال ابن عمار : إنه سر من أسرار الطبيعة . . . وعندما يغيب ليلة عن السيرك يتنفس المروضون واللاعبون الصعداء ، لأنهم يعلمون أنه قدر مكتوب . . . وهو متفرج مزمن ، قد تبعنا في كل بلد ذهبنا إليه . . . وكنا نظن في بعض الأحيان أننا أفلتنا منه ، ولكنه لا يلبث أن يظهر بغتة في مقعده المختار ، ملتفاً بعباءته السوداء ، ومحدداً في اللاعب بعينيه الثاقبتين الثابتتي النظرة اللتين تشعان في وجهه الأغبر الصارم . . . إن له نظرة مروعة ، كأنها قبلة الموت . . . هي شعاع ينطلق من فوق ثغره الدقيق الذي يبدو في سكونه وصمته كأنه يلقى ما يشاء من الرغبات الغامضة في جو الملعب . . .

فتساءل عمي وهو يشعل سيجارة :

— لم أفهم . . . أي ضمير في وجود هذا السيد بين المتفرجين ؟ . . .

أهو شؤم ؟ وبالله من يكون ؟

— وهل أدري أنا ؟ . . . إن اسمه الحقيقي مجهول كصاحبه ، وهو

لا يتكلم حتى نعرف جنسيته وهويته . . وأغلب الظن أنه هندي من أهل الفراغ والمس الروحي . عاش في مراكش . وله ثراء ، وبين جنبيه إيمان بقوى الروح التي لا حدود لها . . ونحن الذين أطلقنا عليه اسم « زيتون المغربي » ، وهو اسم جدير بوجه صاحبه الذي لم يكتف من الزيتونة بلونها فاستعار أيضاً شكلها . . وقد كنا خلفناه وراءنا في « رباط » وفي زعمنا أنه باق هناك ، فإذا به الليلة يظهر في مقصورته . . قيل لي هذا الآن ، فكان علمي به سر حالي الذي ترائى عليه أيها الصديق . . إنني . . إنني . . خائف . . .

— خائف ؟ !

— إلى حد فقدان الثقة بنفسى !

قال عمى وهو يمشى إلى صاحبه :

— وأى أذى يمكن أن يلحقه بك أو بغيرك حضور هذا الرجل الغريب إلى الملعب ؟ إن هو إلا وهم يا أخى !

فصاح اللاعب المشهور :

— الأذى كل الأذى في حضوره ! . . اسمع يا صاحبي . . أنت على طول عهدك بنا ومعرفتك لنا لا تستطيع أن تعرف أى أسرار نفسية تحرك البهاوان — إذ هو معلق في الفضاء على ذلك الارتفاع العظيم — من يده أو قدمه أو أسنانه القابضة على حبل أو حلقة حديدية . . فى كل ثانية من الدقائق الخطيرة التي تستغرقها « النمرة » يكون البهاوان منا تحت رحمة أعصابه وسيطرته على إرادته . . إنه عرضة للإفلات والسقوط والموت تحت أنظار الجمهور الجشعة المروعة . . وسره كما قلت لك فى السيطرة الكاملة على إرادته . . فاو أن إرادة خارجية . . إرادة غير إرادته . . تدخلت فى عمله بشكل حاسم لكان فى ذلك ضياعه . .



وهذه المشيئة الخارجية الجبرية لا يمكن أن تأتي من مصدر عادي ،
وهنا سر زيتون . .

— يا أخى قل لى ما حكاية زيتون هذا !

— إن هذا المخاوق . كسائر مخلوقات الله . صاحب شهوة يعيش عليها . . ولكن أى شهوة شهوة زيتون . . . إنه إنسان درب إرادته وقواه النفسية الحارقة وروضها حتى صارت فى يده كالسيف الصارم . . إن لذته الكبرى هى هذه المشاهد العنيفة التى تبعث فى النفس البشرية — على درجات متفاوتة — شعوراً من القسوة الوحشية يصحب الرجة التى يحدثها فى الأعصاب توقع الخطر ، والتى تتطور فى بعض النفوس الشاذة إلى رغبة آثمة فى وقوع الشر . . وزيتون — عليه ألف لعنة — صاحب نفس شاذة باطشة . وقد أوتى حساسية لا حد لها ، وإرادته سوط فى يده يخط به . . تقريباً . . مصائر الناس . . صدقنى يا أخى إنه فلتة .. إنه يكتب أقدار اللاعبين على الحبل أو المروض أمام الوحش ، وكلاهما كما بينت لك يكيّف أفعاله ويسيطر على حركاته بقوة عضلاته الخاضعة خضوعاً مطلقاً لقوته النفسية .. لطاقة الروح الإرادية فى كيانه .. أما القوت الذى يتغذى به هذا المخلوق البشع . . أما أمنيته السارة وفرحته الكبرى ، فذلك أن يشهد أحد أولئك اللاعبين مع الموت وهو يذهب فريسة حركة طائشة من يده لاختلال طارئ على سيطرته على نفسه . . إنه ينتظر ، من مكمنه ، متحفزاً كالثعبان ، متوثباً كالنمر ، مترصداً كالقضاء ، ذلك الدوار المفاجئ أو تلك الحركة الخاطئة التى تقذف بإنسان حياً إلى موت فظيع يجعل منه فى غمضة عين حطام جثة غارقة فى الدم . . وهذه اللحظة الخاطفة التى تتم فيها الكارثة المفجعة هى من صنع بشر . .

— من صنع زيتون ؟ !

— من صنع زيتون . . من صنع من حققت عليه ألف لعنة ! . . .
هذه هي لذته ! . . . فهو يعرف متى يرسل من إرادته ذلك الشعاع
الباهر أو ذلك السيال الأمر فيحدث به في إرادة ضحيته خللاً حاسماً
يكون فيه حتفه . . .

وفي ركني كنت أرتعد فرقاً . وكان العرق يسيل على وجهي وظهري .
حتى أوشكت أن أصرخ بالبكاء سائلاً عمي أن يخرجني في الحال من
ذلك المكان . . ولكن عمي ضحك ووضع يده على كتف صديقه :
— ما هذا الذي تقول يا ابن عمار ؟ !

— إنك لا تريد أن تصدق ، ولكن هذا الرجل الحارق الرهيب قد
أضاع من زملائنا وزميلاتنا سبعة أو ثمانية في السنوات الأخيرة لا شيء
إلا لينال لذته ورعده الشنيعة ويروى عطشه إلى ذلك المشهد البشع الرائع . .
مشهد إنسان حي يموت أمامه أشنع مية . . أتذكر « عائشة » بطلة
ملعبنا التي قضت نحبها العام الماضي في أنقرة تحت أنظار عشرين ألف
مشاهد ؟ إنه يا أخي هو قاتلها ! . . ظلت أمداً طويلاً صيد زيتون
وقيد نظرت الشيطانية . . كنا نعرف وكانت هي أيضاً تعرف . . ولكنه
لم يفقد الرجاء . . وظل بها يعالجها ، وقيل إنه دفع في طريقها شاباً بديع
الشباب فأحبته ، وأن حبيبها قضى في مخدعها عشية الحادثة ساعات ،
أحالتها خلالها كومة من اللحم والعظم واهنة العزم مضغضة الإرادة ،
وبهذا وحده استطاع في الملعب أن يسلط أمره الغامض ، فهوت من ذلك
الارتفاع الشاهق وسط صيحة من عشرين ألف حنجرة ، وعلت الثغر
الدقيق الساخر ابتسامة غامضة ، وطوى الشيطان عباة السوداء على كتفيه
وغادر الملعب بعد مصرع عائشة وابتلعه الظلام . . وما كان ليصدقنا
أى مجنون لو أننا جعلنا نصيح : إليكم القاتل فخذوه !

وسمعنا في تلك اللحظة دقاً على الباب وصوت غلام من خدم السيرك

ينادي :

— دورك ياسيد !

فانبعث ابن عمار — وقد سمعها — واقفاً يكرر في همسات متصلة :

— دورك ياسيد . . دورى . . دورى . .

ولمعت حدقتاه في وجهه النحاسى الوسيم ، وعاد يهمس كأنما يخاطب نفسه :

— ها هو ذا الليلة هنا . . ولعله ، ببدء من عينيه ، أو بحركة من شفتيه ، أو بإشارة من يده ، قادر على أن يجعل من هذه الليلة آخر عهدي باللعب وبالحياة . . آخر دور . .

ورأيت عمى وقد امتقع لونه يجاهد ليسخر من خوف صديقه . . ودفعه إلى الباب دفعا ، ثم تناولنى من يدي وهرع بى إلى مقصورتنا ، وما إن جلسنا حتى دوى الملعب بتصفيق حاد ، فقد ظهر البطل المحبوب بين الحبال فى أعلى قمة الملعب . .

كان عمى عن يمينى يلهث بأنفاسه والعرق يغطى صدغيه وجبينه ، وكان صديقه ابن عمار هناك عالياً فى القبة يقفز بمهارته المذهلة بين تلك المجموعة المعقدة من الحبال والحلقات فى سرعة تخطف البصر . .

وهمست وقابى يندق فى صدرى :

— عمى . . أين زيتون !

فارتعدت يده المستندة إلى ذراع المقعد :

— أجنث لتتفرج على ابن عمار العظيم أم على . . زيتون ؟

ولم يكذ يرفع بصره مرة أخرى إلى قبة الملعب حتى كان الجمهور قد زار وهو ينبعث واقفاً فى رعب جماعى مروّع وقد شهد بطله الكبير يهوى فجأة كالحجر إلى حافة الشبكة ومنها إلى الأرض بعد أن أفلت قبضته الحلقة التى وجهتها إليه زميلته . .

وقد أنسى كل ما مر بي . ولكنى لا أنسى لحظة الرعب التى
 سمعته فى مكانى عندما شهدت . فى المقصورة المتجاورة : عباءة سوداء
 تهزول خارجة من المكان ، منظوية على ذلك السر الغامض المائل
 فى هيكل إنسان من أبناء الفناء . . .



ههس صوتها اللين كضوء الشمعة : متى تكتب قصتي ؟

فنظرتى بريق عينها الوحشى تحت قوسى حاجبيها المرعين وأجابها :
« سوف أكتبها يوماً ، وفى ذهنى منذ الآن عنوانها . ولكنى فى حاجة
إلى فترة من الزمن تسكن فيها نفسى إلى فكرة كتابة قصة كهذه . .
قصة نفس بشرية أوتيت كل هذا القدر من الوحشية »

— وما العنوان ؟

— « الوحش خارج القفص » . .

قالت : « أتحتقرنى وترهبنى بعدما مزقت بين يديك قناعى ؟
إن هذا العنوان وحده يقول ذلك ! »

ووقع بينهما صمت عميق . .

كل شىء ساكن إلى أقصى مدى السمع ، وظلال الأشجار الضخمة
مبسوطة على الطريق ، بين الحركة والسكون . . والسيارة تطوى الظلال
فتمحوها فما ترى العين ، كأنها تهتك أستاراً . . ووراء عجلة القيادة
ذلك الوجه الأسمر الجميل الذى تنطلق القسوة الفطرية فى قوسى حاجبيه . .
وعن يمينها ذلك الرجل الذى يكتب قصصاً عن الوحوش والبشر . .

منذ ساعات قليلة لم يكن يعرف عنها شيئاً ، أما الآن فقد رفعت له
النقاب عن روحها ومزقت بين يديه حياءها وأباحته نفسها يرتاد
مجاهلها ، وفى يدها المرفوعة مصباح ينير له سبيله فى أدغالها الرهيبة . .
قالت له : « سأجعل منك كاهناً ، وعلى ركبتي أركع ، وبين يديك
أعترف بخيرى وشرى ، ومجدى وعارى » . .

وعادت تسأله : « أترانى وحشاً ؟ » . . . قال : « لست وحدك الوحش ! . . . » قالت : « تقول هذا لترضيني . . . »

قال وبصره إلى الطريق الذى تلقى عليه الأشجار الضخمة ظلالها وتنشر فيه غيابات السكون : أقص عليك بدورى قصة صغيرة : قصة وحوش لا تعدد لها : وحوش فى غابة كبيرة . . . ذلك أنى أوتيت منذ أعوام حظاً لم يؤته أحد من الناس ، إذ شهدت بعيني أسداً يفترس مروضه . . . والأسد وحش كما تعلمين ، والمروض إن كنت لا تعلمين إنسان ، أخ من البشر . . .

— وأين كان ذلك ؟

— فى السيرك . . .

— والأسد أكل الرجل أكلاً ، أمامكم ؟

— تعلمى الصبر واسمعى . . . كان مقعدى فى الملعب بحيث لو مددت ذراعى للمسست الأسد داخل قفصه ، وكان اسم الأسد « سلطان » . . . وكان وحشاً صعب المراس تلتمع عيناه تحت لبتة السمراء كما تلتمع عيون بعض النساء تحت قوسين من حاجبين يمان عن قسوة دفينه باغية . . . وكان المروض منتصباً وجهاً لوجه إزاء الوحش ، ومعتمداً بإحدى يديه على حربة ضخمة ذات حدين ، ويده الأخرى تحرك السوط فى وجه الأسد . . . وكان فى ساحة الملعب حشد من الناس . . . ينظرون . . . وكلهم بشر فما فىنا ليلتئذ وحش إلا الأسد ولم ألبث أن لحظت أن إحدى قدمى المروض مهبطة ملفوفة وأن الأسد فى حالة غير مألوفة من الهياج والتمرد ، فهو يرفض إطاعة الأوامر التى يصدرها إليه مروضه ، وقد كشر عن أنيابه وجعل يرسل زئيراً عالياً يهز أركان الملعب وينفس به عن غيظه الساخط وكبريائه الجريحة . . . ولكن المروض لم يعبأ بغضب الوحش ، بل جعل يسوطه ويزجره . . . ولعل هذا كله لم يكن فيه شىء جديد ، فتلك هى على كل حال المباراة المألوفة بين إرادتين ،

على إحداهما آخر الأمر أن تخضع للأخرى . . وأقبلت لحظة خيل إلينا أن المروض قد اكتشف فيها عند تلميذه العاصي علامات العودة إلى الرضوخ والطاعة ، فقد كف عنه سوطه ، وأراد أن يرجع إلى الوراء خطوة واحدة ليترك للأسد المسافة الكافية للقفز فوق الحاجز ، ولكن قدمه العاجزة عثرت بحريته ، فترنح بقامته المديدة ، وأطلقت الجموع المحتشدة في الملعب صرخة عامة قصيرة . .

وفي أثناء جزء من ألف من الثانية ، استطعنا أن نعتقد أن الرجل سيستعيد توازنه . . وكنت أشهد نظرة الرعب في عينيه ، وكان أول من يعلم أنه قد اضطهد الأسد في ليلته وأنه هالك إن سقط . .

ولقد سقط الرجل على أرض القفص كتلة لا حراك بها . . وعجبنا في غمرة الفزع أكان سكوته عن قصد منه ، أم كان رعباً وهلعاً . . والحق أنه لم يحاول أن ينهض من كبوته ، وأظنه كان لديه الفرصة الكافية لو شاء أن يفعل . .

أراك تلعقين شفتيك بطرف لسانك الأحمر الدقيق ، كأنما نجيل إليك أنك في مكان «سلطان» .

* * *

والآن فانظري ماذا كان . . كان الصمت العميق يخيم على ساحة السيرك ، وقد نهض «سلطان» إزاء الإنسان الملقى أمامه بحيث لم يكن الجمهور يرى شيئاً من ملامحه . . فأى لغز خفي كان ساعتئذ في عيني الوحش ؟

قالت : أحسبه كان يلعب فيه بطرف لسانه ! . .

— أما الناس . . ماذا كان في أعماق نفوسهم من الإنسان وماذا كان فيها من الوحش ؟ . . إن المرء لتساوره في مثل تلك المواقف الرهيبة إحساسات غير متوقعة ، ومذهلة . . بينما كان الصمت المروع سائداً

والأسد والمروض ثابتين في وضعيهما كأنهما شخصين لوحة بارزة :
غزت نفسى عاطفة غير معقولة لا أدري مأتاها : أهى من الانفعال
الحقيقى ؟ أم من الفضول الوحشى الكامن فى الواعية الخفية لنا
نحن البشر ؟ . . لا أدري . . والذى أدريه هو أنى كنت فى تلك اللحظة
أخشى أن يطول انتظار « سلطان » ! . . كان فى أعماقى صوت وحش
يقول لى إن هذا الوحش أحمق إذ يكتبنى بهذا التحديق فى جسم الرجل
الملقى تحت رحمته ! . . ولم أكن الوحيد الذى ساورته تلك الرغبة الفظيعة
الغامضة : بل كانت كل الوجوه من حولى تكاد تفصح عنها ، ولكن
لم يكن يسع أحدا أن يجهر بما كان يتمنى فى سريره : أن يتذوق
الوحش ، تحت أعيننا . لحم فريسته . .
فى تلك اللحظة كنا كلنا وحوشاً . .
مزق المشهد أقمعتنا : وكشف خبيثتنا . .

وكان انتظارنا قد طال - ثوانى كالدهر - والوحش الذى تركزت
فيه وحشيتنا منتصب كأنه القدر : مدرك أن عليه هو - وقد تغيرت
ظروف الصراع - أن يتقدم وينعم بولمتنا وقرباننا . . ففعل كأنما تدفعه
إرادتنا ، ووضع فوق كتف الفريسة - فريستنا كلنا - أحد مخالبه
الثقيلة . . وحدث هنالك انفجار صاحب رهيب ، فقد دفعت المقاعد
إلى الوراء ، وارتفعت من مئات الحناجر صيحات تتكلف الإشفاق
والروع ، وهرع نحو جدران القفص الحديدية من استطاع ، وتدافع
الناس وداس بعضهم بعضاً ، وشبت النساء على أطراف أقدامهن . .
ولكن هذا المرح العنيف لم يصرف الوحش عن فريسته ، وإنما التفت نحو
الحشود الملتفة بلفظة ملكية وفحصها باحتقار هادئ ، ثم عكف على
صاحبه يهزه . ويعضه . . وما لبث أنه امتلأ بما لا ندري . .
ربما بلحم آدمى ! . .

واو لبث تلك الأمنية الأليمة تجيش فى النفوس المحيطة بالقفص

دقيقة واحدة أخرى لكان قد التهم فريسته وقضى الأمر . . ولكن النفوس كانت قد استردت طابعها الكريم ، وأولئك الذين كانوا في مبدأ الأمر قد شاركوني رغبتى الوحشية فى التفرج على مذبحه ، قد عادوا كما عدت يستغفون هذا المشهد البغيض عندما تحققت أمنيته تحت أعينهم أو كادت . . وكأنما كان « سلطان » يقرأ أفكار الناس من حوله ، فقد ترك ضحيته على غير انتظار وكف عن تمزيقها ونهشها كأنما هو قد خضع آخر الأمر لمشيئة تلك النفوس التى تعاونت على إملاء إرادتها عليه . .

قالت صاحبة الصوت اللين كضوء الشمعة وهى تلعق شفتيها الحمراء بإسائها العصبى :

— ما أسرع ما ارتدتم من نشوة الافتراس إلى الطابع « الإنسانى » الكريم . . وإنى ، أنا ، لأعجب للأسد كيف نزل عند إرادتكم ، وباع بذلة الخضوع نشوة الدم !

— لم يكن وحشاً كاملاً ! . . إنى أعترف أن ذلك الوحش المروض كان أقل منك فى وحشيته درجة ! . . وقد أجبره سلطاننا نحن على أن يتراجع وجلاً ، وما لبث أن فتح باب القفص عن رجلين قد شرعا حربتين ما كاد السبع الضارى يراههما حتى تقهقر إلى باب آخر وراءه يوصل إلى قفص خلقى . . وأقفل الباب عليه . . وهرع الرجلان إلى الجسد الذى لم نكن نعلم بعد ما حل به ، ولكن الرجل لم يلبث أن نهض يعون زميليه قائماً . . وكان عنقه يتزف دماً وقد سلخ جلده ، ومن جبينه — بين عينيه — كانت تتدلى كتلة قرمزية من اللحم الحى ، كأنها شاهد على مخلب « سلطان » (١) ! . .

(١) نشرت هذه القصة أول مرة فى جريدة « المصرى » منذ أكثر من عشرين سنة ، وقبل أن يفترس أسد اسمه « سلطان » — أيضاً — مروضه فى سيرك القاهرة فى نهاية سنة ١٩٧٢ .

وانحنى الرجل للجمهور الذى أوشكت رדתه إلى الوحشية أن تضيقه ،
وانسحب يجر ساقه المهيضة . .

و لم يكد يحنى حتى اتجه اهتمام الرجال والنساء إلى أخيهم الوحش
وقد صار فى القفص الحلقى مع زميله المنتظر وهو يذرع القفص فى
انتعال بالغ : وكلما مر أمام زميله الجاثم فى الركن لحس له هذا بلسانه
بقعة قرمزية من الدم على ساقه . .

وأقبل من ورائى سيد جليل فأدخل عصاه من خلال القضبان
وجعل يضرب بها سلطان كلما مر من أمامه ، وسلطان ينظر فى
استخفاف إلى هذا البشرى الذى لم يطق أن يكون وحشاً أكثر من ذقمة
واحدة !

وهمس متفرج آخر فى أذنى ملخصاً شعوز الجميع :

— لماذا يضربه ؟ إننى كنت فى صف الأسد !

نعم كانت صلاة صاحب العصا نفاقاً بغير إيمان !

والتفت إلى صاحبه التى كانت تقود السيارة فما راعه إلا أن رأى
قبضتها على عجلة القيادة ترتعدان . . وكان كل شىء ساكناً إلى أقصى
مدى السمع ، لولا ذلك اللهاث المحموم من صدرها . . وكان كل شىء
ينطق بالجمال فى تلك الليلة الصافية ، فمن رأى السيارة تطوى الظلال
حسبها تضم عاشقين ، لولا أن سائقها كانت تعلق شفيتها بطرف لسانها
الدقيق العصبى كما كان يفعل — على دم رجل — لسان « سلطان »
فى القفص !

كانت تصلى . . . صلاة الوحوش المؤمنة !



[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

لا يا صديقي . هذا الذى أخذنا إليه عثمان تحت تلك القبة المضروبة
فأنفقنا فيه ليلتنا ، ليس ملهاة أطفال ! إنها الدنيا ! إنه عالم كامل ،
وعجيب . . إنه السيرك ، أكبر مسرح فى العالم . ذلك الذى يتآخى فوقه
الإنسان والحيوان .

أخرج بنا إلى شارع الهرم ، وقد سيارتك على مهل ، واصغ إلى
أحداثك عن صورة من عالم السيرك غير هذه التى شهدناها الليلة . .
صورة تعيش منذ عهود سحيقة فى نفسى ، وقد تتضاءل معالمها تحت
الرحى التى تطحن أيامنا وتذرها مع الريح ، لكنها لا تلبث أن تبعث حية
أمام مشهد كهذه الكف التى رأيناها الليلة ، كف مروض الضواري
التي قضمها الوحش ذات مرة . .

قال صديقي وهو يتشاءب فوق عجلة القيادة :

— أحسبني أعرف القصة ! أليست قصة البهلوان الذى . . .

كلا يا حسن ! بل هى صورة أخرى لست أدري لم كان يتردد
القلم دائماً فى يدي كلما هممت أن أكتب عنها ، ولم يكن بطلها بهلواناً
يغازل المصير على حبل ، ولا راقصاً بارعاً فوق ظهر حصان أو فيل ،
ولا مروضاً يسيطر على ضوار تزأر فى قفص . . لم يكن حتى أحد أولئك
الفلاسفة الذين يصبغون وجوههم ويزركشون أزياءهم ويفلحون فى جعل
الناس يستلقون من الضحك على ظهورهم . .

كان إنساناً عادياً مثلى ومثلث ، يرتدى — إذا تصدى للموت على
طريقته — طرطوراً تدندن فيه الأجراس ، وقميصاً سابغاً من الحرير
الأحمر اللامع ، ويركب « بسكليت » . . نعم ، « بسكليت » يا أخى . . !

وكان يدور ويدور وهو متجمع فوق آله كحشرة عجيبة حمراء ، ظهره قوس . وأنفه بين ركبتيه . وساقاه تعملان في البدال في سرعة متزايدة ، و«البسكليت» يتطوح به حتى ليخيل إليك في بعض دوراته السريعة الحافظة أن رأسه يكاد يمس أرض القرص المعدني المستدير الذي يدور فوقه ، والذي : هو أيضاً : يدور . . يدور حول محور تسيطر على حركته وسرعته قوة موتور كهربائي . . لكنه يدور في الاتجاه المضاد لاتجاه «البسكليت» . . وكلما زادت سرعته الآلية رأيت الحشرة الحمراء المنكبة على «البسكليت» تجاهد بكل قوى عضلاتها وإرادتها كي تصارع قوة الدوران المضادة القاذفة ، كما لو كان يكافح ريحاً غاضبة عاتية . .

أتراني استطعت بهذه العبارات المضطربة أن أرسم لك صورة كاملة لأداة العيش التي كان ذلك الإنسان ينتزع بها ، كل ليلة ، وجبة عشاء له ولزوجته العرجاء ؟

ربما كان من واجبي أيضاً أن أبين لك أن القرص الذي كان يدور فوقه لم تكن له حافة ، وأن قطره لم يكن يتجاوز الأمتار الأربعة ، على حين كان ارتفاعه عن سطح الأرض نحو عشرة أمتار ، وأنه كان في الحقيقة شيئاً جهنمياً يبدأ دورانه في بطاء ثم تزداد سرعته ، أسرع فأسمع ، حتى لا تعود العين ترى منه غير أسطوانة براقية جن جنوبها ، وكأن سطحها بنحطوطه الدائرية التي حفرتها فيه العجلات على مدى الأعوام بركة ماء صقيالة ألقيت فيها حصاة فانداحت دوائر دوائر . . .

وقد ذكرت لك أن الرجل كانت له زوجة . . وأنا لا أنسى تلك السيدة الشقراء التي كانت من جنس زوجها ، من بنات الشمال . . وكانت هي الأخرى ، ترساً صغيراً في عجلة السيرك الهادرة ، ثم سقطت ذات ليلة من القبة العالية فتشمت ساقها اليسرى ، فهي اليوم عرجاء تمشي متوكئة على عصا من الأبنوس الأسود ، وإدارة السيرك تمنحها معاشاً

أسبوعياً هز يلاً : زاعمة لما في حياء الكرم أنها تؤدي عملاً له قيمته : لعله إمساك الدفتر وحساب نسبة الضرائب ، أو شيء من هذا النحو لم أفهمه تماماً . . .

كنت أراها دائماً واقفة إلى جوار أحد الأعمدة الضخمة التي ترفع القبة فوق الساحة ، في ثوب بسيط ، وروحها تطل من عينيها في لفحة عميقة على رجلها الذي يدور ويدور فيتزعج ضحكات السرور وشبهات الفرع . . .

رجلها ذو الطرطور ، الذي تحبه ، ومن خشيتها عليه : كل مرة ، تسمر كائتمثال أمام الطابع المروع للعبته ووسيلة رزقه : . . . وفي المرحلة الأخيرة الخطيرة من « اللعبة » عندما كان يبدو أنه يوشك في مزاج من الجحد والهلل أن تقذف به إلى الفضاء قوة الدفع المنبعثة من مركز الأسطوانة ، كانت كل واحدة من تلك الترنحات القاسية الخطيرة تنتزع من الجمهور ، ومن بعض زملاء اللاعب ، نفس الشبهة المحتنقة التي تهر كيان المرأة شريكة حياته . . . أبدأ لن تبرح ذاكرتي يا أخي صورتها وهي مستندة في إعياء إلى العمود الخشبي الشامخ ، بينما الأسطوانة البراقة تحطف خطف البرق مرسله زمجرتها الصماء وقد طقت في حافتها القاتلة شرارات كهربائية وامضة ، خضراء وحمراء ، وذلك الصغير الجهنمي يصحب المأساة كلها ، حاداً قاسياً ، كأنه عواء مستمر كالندير . . .

وفي كل مرة كنت أقرأ في عينيها أسؤالا أليماً ، هو خبزها اليوم : أتراه اليوم مواعده مع الموت ؟

وكنيت أتأملها طويلاً بعد أن ينتهي « الشغل » فترق لهما نفسي وهما يخران في كل مرة جالسين جنباً إلى جنب . . . ولكم قرأت نفسيهما . . . لقد انتهت « اللعبة » هذه المرة أيضاً بسلام . . . كفت الصفارة العصبية عن شكواها المتصلة ، وهدأت الأسطوانة العالية من سرعتها قليلاً قليلاً

حتى توقفت .. وهامى ذى الحشرة الحمراء التى كانت تجنى القوت وتصارع قوى الوجود قد قفزت إلى الأرض الثابتة : وانحنى فترنمت فى الطرطور أجراسها . وابتسمت للأكف المائتة . . هامو ذلك الكائن البشرى بخطو فى إعياء إلى الركن الذى يعلم أن صاحبه تنتظره فيه . . إنها تتلقاه بابتسامة تمطر فرحاً مرّاً . . لقد نجا من الموت . . ربما كان ذلك غداً . . فى حفلة النهار . . أو فى حفلة الليل . . لكن الآن ، فى هذه اللحظة ، أمامها ليلة . . ليلة كاملة يعيشانها معاً . .

فى تلك اللحظات التى كان يطيب لى فيها أن أسرى بروحى فى روح هذا الزوج من الناس . كنت أحس أن عالمهما يفصلهما عن كل عالم : حتى عالم إخوتهما الذين يضطربون حولهما . . وأنظر إليهما فأراهما - من مكائى البعيد - يفرشان على الأرض ورقة من صحيفة ويضعان فوقها أوجبة العشاء : تذاكاه أليفته . . ربما كان ذلك هو عشاؤهما الأخير معاً ، لكنهما يضحكان . .

ترى ماذا يقول لها وتقول له ؟ إن حبهما ضخم يسع الكون كله . . ولعلمهما يحلمان . بمكان جميل يأويان إليه بعد السنين العجاف وينثران عليه الزهر والنغم ورغد العيش : وكل جمال . .

يا صديقى قد أنسى كل ما رأيت وعرفت فى السيرك : ولكننى لن أنسى أنه ما من أحد منهم ، لا المروض الجبار فى قفص السباع ، ولا البهلوان المارد على حبله ، ولا المهرج العالمى الذى يبصق على الحياة فوق نشارة الخشب التى تكسو أرض الساحة ، ما من أحد فى ذلك العالم العجيب قرأت فى وجهه ما كنت أقرؤه فى وجه ذلك الإنسان الذى ترن فى طرطوره الأجراس ، إذ يتصدى للموت فى سبيل القوت فيفرض على نفسه : مرة أو مرتين كل ليلة : تلك المحنة التى يبلغ من فظاعتها فى بعض اللحظات أن يرفض وجهه الإذعان لإرادته ، فترتسم عليه

كل الحقيقة الرهيبة المفجعة . ويغدو . . حقًا . وجه محكوم عليه
بالموت . .

عد بنا الآن يا أخى من الحرم إلى المدينة . فما أحسبك تذوقت من
حكايتي الساذجة شيئاً يعوضك عن ساعة نوم أضعتها ! .



فـ لـ لـ لـ لـ

— يا بيه ... يا بيه . . . اشترى منى ورقة والنبي . . .

توقف الرجل : ونظر إلى البنت الصغيرة التي طالعت له من وراء
كشك المترو : ونهرها :

— يا شيخه غورى انت كمان . . .

كان يبحث عن تاكسى ، وكان شارع عماد الدين هامدا الحياة
فى النعجر الشاحب . والبرد لاذع .

— خذ لك ورقة . . . مين عارف يا بيه . . . يمكن تكسب . . .

امتدت يد الرجل الأنيق فى شىء من الضيق والعجلة إلى جيب
معطفه وخرجت دليئة بالنقود . وامتدت بقطعة صغيرة من ذات القرشين
إلى البنت الصغيرة .

— خاى . . . وغورى بقى من وشى . . .

التقطت البنت الصغيرة قطعة النقود من فوق جلد القفاز البارد ، وسألت
السيد وهى تضع أوراقها الملوثة تحت أنفه :

— إسعاف ؟ أقباط ؟ مواساة ؟

— لا . دا علشانك . . . بس حللى عنى بقى . . .

وحث الرجل الخطى إلى ناحية شارع فؤاد وهو يتطلع إلى مرور
تاكسى خال يسرع به إلى بيته الدافئ الوثير فى الزمالك ، لكن البنت
الصغيرة تبعته من بعيد تتسكع بقدميها القذرتين الخافيتين . . .

كانت فى الثانية عشرة من عمرها ، نحيلة سمراء قراءى فى أهزال
الجوع ، ولها شعر أسود طويل . وقذر . وكان جيبها معصوباً بمنديل
أخضر . وثوبها البالى الأسود القصير يعلو ركبتيها ، وركبتها أيضاً

قذرتان . . . وكانت تقترب منه وهي تخشى رأسه . . . كان الرجل واقفاً الآن تحت مصباح النور التمام أمام صيدلية الناصية . فجاءته البنت الصغيرة مرة أخرى من أمامه وقالت له في انكسار :

— يا بيه . . أصل الساعا دي ماتلقاش فيها تاكسى كثير . .

— أنا بعدين رايح ألتفك كف ماتخديش غيره . .

— ما تخلى بالك طويل امال ياسعادة البيه . . يمكن أفيدك . .

سكت الرجل لحظة وهو يتأمل الصبية في عجب ، فابتسمت له ، ابتسامة قاسية حزينة .

— تفيدنى يا بيه يا بنت الكلاب انتى ؟

رفعت إليه عينيها العسليتين المريضتين وهمست :

— الدنيا برد وأنا سقانة قوى . . وجعانة إن كنت تصدق . .

جعانة قوى . . والليل طويل يا بيه . . ونادر لما أفندية ولا بهوات يا خدوئى . .

— يا خدوئى ؟ !

قالها وهو واقف أمام مواطنته الصغيرة كالمصعوق . .

— انتى بتقولى إيه يا بنت ؟

— فى خرجة السيما السواريه . . ساعات يعنى . . واحد من بتوع آخر الليل . . ولا شلة أفندية . . أتمسكن لهم علشان ياخدوا منى يا ناصيب . يكلمونى ويضحكوا معايا . . وساعات يخافوا منى بعدما يكلمونى وأجاوبهم . . ويسيبونى . .

وابتسمت مرة أخرى ابتسامتها الناضجة القاسية ، وقالت :

— السن يا بيه . . علشان قاصر . . لكن سعادتك لو جيت معايا

دلوقت بولاق ، فى البيت ، اختى حسنية أكبر منى . .

وكالمسوع صرخ الرجل وراء تاكسى فارغ كان سائقه قد مر به
كالسهم : تاكسى . . تاكسى !!

لكن صوت البنية الصغيرة كان لا يزال يتوسل فى أذن الرجل :
حسنية أكبر منى . . وأحلى يا بيه والله العظيم . .

عندها جرى الرجل بأقصى سرعته نحو التاكسى الذى كان يتراجع
إليه ، فلو رأيته حسبته ينجو بعمره من جبّ الأفاعى .



[REDACTED]
[REDACTED]
[REDACTED]
[REDACTED]
[REDACTED]

أنت ساخط أشد السخط لأن العالم المبهوم بالتجرد والعلائية قد خلا
من روعة الغموض وسحر المجهول ، وأنا لا أقرك على زعمك ؟ ولا أرى
معك أن النزعة العصرية قد قضت على عهد « الجنيات » وكل ما يسيطر
على قلوبنا ويهز أعصابنا ويشبع نهمننا الغريزي إلى روائع المجهول ، فأنا
أعتقد أن في صميم حياتنا العصرية أشباحاً وأطيافاً ذات رؤوس
آدمية تسير بيننا وتحتك بها كل يوم وكل ليلة دون أن ندري ، وأن
العالم لا يزال عامراً بالغيالان والوحوش والسحرة ، حتى بين من نلقاهم كل
يوم ، وبين أقرب الناس إلينا !

إليك هذا القطيع من النساء والرجال ، قد أقبلوا ليعتصروا اللذات
كلها في هذا البيت الجميل الحافل بالأضواء والموسيقى والخمر والعطر ،
فتخير من تشاء من الرواد ثم دعني أحسر لك القناع عن كل وجه يقع
عليه اختيارك ، لأكشف لك الهول الكامن وراء كل محيا صبيح أو
مظهر خادع أو ابتسامة مشرقة ..

إن هذا البيت صورة مصغرة من الحياة نفسها .. بهو واسع عامر
بالأقنعة ، لكل من رواده قناع يستر به الغول القابع في كيانه ، فدعني إذن
أخذ بيدك في هذا البهو ، وتخير منه نماذجك ...

إليك هؤلاء النسوة الرشيقات الأنيمات العطرات ، قد برزن كالعرائس
الحشبية التي تعيش دون أرواح ، بعيونهن الجوفاء الغارقة في كحل صناعي .
وشحوبهن الطباشيري المروع ، وتلك الجروح الغائرة الحية المفتوحة في
وجوههن ... ألسن جثثاً لها كل مظاهر الحياة ، هاربة من محلات
الموتى لتغوى الأحياء وتضلهم وتضيعهم ؟ أي سحر شيطاني يشع منهم
نخاويات النفس خربات الروح ، بارادات كالدمي العاجية ، منفذات

ببشرتهم الشاحبة التي أضناها سهر الليل . بابتسامتهم الدموية التي يرسمها على نفورهم . يرووهم النارغة إلا من كل لغو باطل . . .

نعم أستطيع أن أحدثك فأطيل الحديث عن « ساحرات » العصر الحديث . . . لكن لنكتف الليلة بهذه الحيفاء التي أذهلك عن نفسك حسنًا . . . هذا بينها وأولئك ضيوفها . . . بأي مستور من أسرار الشهوة الفظيعة تقود ذلك الثرى المعروف من أنفه وتمسكه من وسطه كما يمسك القرد وتنسيه زوجته الشابة وأطفاله الحسان ؟ بهذه الابتسامة العجوز المنداة بالدم ؟ بمحدثها البلورية ولونها الخزفي وأسنانها الصدفية ؟

إنها الآن في تجربتها الرابعة الكبيرة : فعلى يديها وبفضلها انتقل إلى دار السلام ثلاثة أزواج كانوا ملء الدنيا صحة وعافية ، فأفرغت نخاع عظامهم واستلت موفور شبابهم ، ولبثت هي نضرة متوردة ، قد ورثت مع ثرواتهم صحتهم بعد أن أذابتهم كالشمع في مخدعها الوردى . . . وهي الآن تعالج الرجل الرابع ، ولعله لا يزال يقاوم ، ولكن صدقني إنه رجل هالك !

سيدة كل حفل وربة كل جمع : عطرها يضيوع في كل مسرح من مسارح الخلاعة ، وقدمها ترقصان في كل ليلة رقصة الخطيئة . . . حذار إن نادتك عينها . . . حذار إن همست إليك شفتاها . . . حذار إن امتدت إليك يداها . . . ضع كفيك على عينيك لا تشهد ، ضعهما على أذنيك لا تسمع ، ضعهما على قلبك لا يضل ولا يغوى !

سيقول لك الذين يعرفونها إنها في الأربعين ، وتزعم هي أنها في الخامسة والعشرين ، فلنقل إنها امرأة في الثلاثين من عمرها الذي بدأ في المجهول ويعلم الشيطان وحده أين ينتهى . . . كان اسمها يوم ولدت « زهرة عبد الذكور » أما اليوم فهي الغانية الشهيرة المتألقة « سهر نبيل » . . . وليست هي بالمرأة البارة الجمال ولا هي بالألمعية الذكاء ، لكن الخلاق

و« الماكبير » والحياطة — أولئك الذين يعدون أعظم فناني العصر الحديث - يعرفون كيف يظهرونها في أروع مظهر تطلع فيه غانية . . .

هي للجماهير ربة من الأرباب . وهي في صميمها طبل أجوف ،
خاوية خربة . ميتة العقل والقلب . تتكشف سوءاتها ونقائصها عندما تنضو
عن كتفها رداء المجد وينحسر عن محياها قناع الشهرة المتألق البراق . . .

الرجال عندها ليسوا رجالا ، بل مراحل الطريق إلى المجد !

كان أولهم فتى ريفيًّا من ذوى قرابته في البلدة التي نشأت في دروبها
على قسوة الحرمان . . وكان الثاني مفتش القطار الذي ركبته إلى القاهرة
يوم هربت من القهوية ساعية وراء حلم غامض بالمال والنجاح . . وثالثهم
صاحب أول بيت سكنته في العاصمة . . ورابعهم أستاذها الذي دربها
للمدينة وأعدّها للأنوار والظلمات ، وهو صحفي تألق فترة من الزمان ثم
خبأ نجمه على يديها ، كأنما كان الشمعة التي احترقت لتضيء لها
السييل . . ثم انطلقت وجدها تفرس الرجال الواحد بعد الآخر كأنهم تلك
الأحجار المرقومة التي توضع على جانبي الطرق الزراعية لتدل الناس على
طول الطريق !

إنها تعرف كيف تختارهم من بين مشاهير رجال الصحافة والسينما
والأدب . . ومع النجاح المطرد في عالم السينما العجيب تغيرت معالم حياتها ،
فهى اليوم تربح الآلاف من الجنيهات وتطالع صورها الناس ويتردد
اسمها على كل لسان . . وسهرات بيتها هذا حديث المدينة . . وانظر ! . .
إن ملعب التنس عندها مساحتها أكبر من قطعة الأرض التي يمتلكها
أبوها عبد الذكور في كفر أبو عساف . . وضيوفها الآن كما ترى هذا
القطيع من أرباب العبقرية والمال والمخرجين والمنتجين والنقاد والأدباء ،
وأزواجها السابقون ، واللاحقون بإذن الله . . يحرقون من حولها البخور

ويتمتعون بها شاربة وضاحكة وراقصة ومبدولة . . . وستنهي أيها الصديق هذه السهرة وينصرف حملة الأقنعة إلى عالمهم ثم يطبع الفجر على أطلال ليلة ، فيشهد الغانية وحدها ، قد جمدت كالتثال وطال جمودها ، ثم تنفجر فجأة في بكاء عصبي تتخلله التشنجات والرعشات ، والدنيا بكل ما فيها خالية من حولها وخاوية على عروشها . . . وتفزعها في الوحدة صورة حياتها الشوهاء . وتبدي لها حقيقة نفسها ، مخاوة صناعية كأهدابها وشعرها .

تمثال بارد لا حياة فيه ، أعرفه أنا كما أعرف بطانة قناعها . . . عروس خشبية لها كل مظاهر الحياة . . . دمية عاجية يعتصر قلبها البليد وسط صحرائها المخيفة الجرداء ، حزن لا تغسله أنهار الأرض كلها ، وكبرياء مرة ، وأناية بشعة موحشة كصحراء من جليد . . . وقلق على المستقبل . . . الخوف من الغد هو قوتها اليومي . . . وبرداء المجد المفضفاض ثقيل على كتفيها الضعيفتين . . . إن مجدها ومضة غابرة . . . لقد شهدت كثيرات من زميالاتها يهبطن بعد ارتفاع ، فإن الكواكب تسقط كالشهب المحترقة في السماء إلى ليل العدم الأبدى . . . وكن مثلها آلهة تعبد ، وتؤخذ لهن مئات الصور ، ويأهج الناس بأسمائهن ، ثم سحب الزمان عليهن ذيول النسيان . . .

وتجلس وحدها ، متعبة مضناة ، منهكة البدن والأعصاب ، تفكر في رقم تليفون رجل . . . أى رجل !

لا مرح ولا غزل ولا هتاف ، معبودة ممزقة الأوصال ، إلهة ذات قلب ميت !

ها بنا يا صديقي ، لقد أوشك أن يبرز الفجر وآن لنا أن نودع ربة البيت ، ولا تنس قبل أن تمثل بين يديها قبل الرحيل أن تضع على

وجنهك قناعك . فإنك والله أنت الآخر وإن كنت لا تدري قناع
بديع !!



تركت صديقي المحامي غارقاً في حديثه التليفونى الخافت مع فتاته
ووقفت بعيداً عنه فى نافذة مكتبه المظلمة على ميدان العتبة ،
أتأمل فى شىء من الشرود منظر الميدان فى مطلع المساء ، وقد ضجعت
فيه الحياة بصخب دمجى مذهل ، من صياح الآلة والبشر ،
وتعرت بلا حياء فى رقصة مضحكة عجيبة من حركة دائبة تبدو فى
بلاقتها كأن لا هدف لها . كأن الميدان كله ، من فوق ، دست هائل
يمور فى قاعه هلام حى كثيف ، بلا عقل ولا إرادة ولا جمال . . أى
مسرح مخبول غاب عنه المخرج وجن فوقه الممثلون . . لنهرب من اللوحة
العامة المثيرة : ولأخذ فى مسقط العدسة عينات على حدة . .

هذا الرجل المندفع فى قلب الهلام الحى والذي يبدو أن وراءه
الزمن الأبله الذى صدمت عقاربته . .

أو هذا المتأنق كالبرعم المتحجر . يتسكع وراء ظهور النساء . .
أو هذه التى يبدو أنها توجه لتربية عجيزتها عناية خاصة . .

أو تلك التى تنادى على ورق اليانصيب ، وفى صوتها آية الكد
المضنى ، ولكأنى أرى الأشواك ناتئة فى قفاها . . كل وحدة من هذه
الوحدات البشرية دنيا وحياة وقصة . . وهذا الذى يصيح ملء حنجرتة
ونافوخه وهو يعدو من أول رصيف محطة الترام إلى آخره ، ومن آخره
إلى أوله ، هو صديقي عبد العاطى سنبل عبد العاطى ، بائع الصحف
المتنور . . ابن البلد الذى ألقى على مرة سؤالاً لا أنساه : أى معنى
تجلى لوالده غفر الله له يوم دعاه باسم جده ؟ وكأنه يسعده أن تتكرر
دائماً فى التسلسل الوراثى للأسرة هذه النسخة التقليدية من صعلوك القاهرة



الضائع . . لقد تنكر عبد العاصي من زمن بعيد لاسمه وصار يدعى في هذه الدنيا « زلطة » . .

وأنا رجل يعيش في عالم خلقه لنفسه بنفسه ، لكن للدست المقعر الخائل نداء لا ريب في قوته وهو يهز أحياناً أعماق النفس فيثير منها مكنن المشاركة الأصيلة ، وعندها تنساب الذات المستفردة كالبخار المنتشر في ذلك المحيط المتلاطم من المشكلات والرؤوس البشرية . . وصديقي لا يزال يداعب صاحبه في التليفون ، أما أنا فقد هبطت إلى الصراط الذي يعدو عليه « زلطة » مخترقاً بصوته قاع الدست . . إن عالمي الخاص الذي أعيش فيه مستقلاً بفكرى وروحي عن عالم الآخرين لا يفصل حياتي ومشاعري ورسالي عن عالم الناس الزاخر بألوان الجهاد في سبيل حياة أفضل ، ولا عن المعركة التي يخوضون غمارها . . وأنا الآن أسعى مع فرع من فروع التيار في اتجاه شارع فؤاد ، بين ألف قناع وألف مشكلة وألف لغز . . لكن المرء يسعه أحياناً ، حتى في خلال الوهلة القصيرة الأمد التي تلتقي فيها عينه في الطريق بوجه أو نظرة ، أن يقرأ قصة أعوام من حياة إنسان . . وأمام الفترينات المضئية تحس فجأة بكل روح العصر الذي نعيش فيه ، وربما ذكرت رقم المبلغ من المال الذي يقبع في جيبك ، وذكرت جيوباً أخرى لا تنطوي على مال . وتسمع « بنية » سمراء حلوة تقول لأُمها أمام فستان غال جميل « هاتيه لي وبلاش رأس البر السنة دي ياماما . . » وأنت لم تكن في حاجة إلى هذه الهمسة المؤثرة لتدرك في الزحام المتسكع أمام واجهات المتاجر الكبيرة أن النساء قد غلبن في هذه الدنيا على أمر الرجال . . ما أكثرهن . . إن الثوب الذي غطت قيمته في اعتبار إحداهن على رحلة الصيف هو حقاً ثوب بديع ، قلت أمامه لنفسى ، أنا أيضاً ، إنه كان يسرني أن أهديه إلى زوجتي لو أن لي زوجة . .

واستدرت لأتابع تسكعي وفي سمعي توسلات « البنية » إلى أمها

وشىء من العطف على رغبتي ، فلمحت عيني . ولما أكد أخطو ،
صفحة وجه يمر بي . . إن الذاكرة مخزن عجيب . . شىء في هذه اللحظة
الحافظة من وجه عابر يرسل في الوعي سيالا غامضاً منبهاً يريد أن
ينقض على أعماق المخزن المظلمة فينتفض الظلمة عن ماض بعيد . .
من تكون هذه المرأة النحيلة التي مرت بي منذ هنية ، في الاتجاه الآخر . .
أتراني عرفت يوماً ما : من لم يكن لها من هذا الوجه المضميم ولا هذا
الضمور الشاحب الحزين إلا خطوطه الأولى النضرة ؟ . . وأين في
المكان والزمان عرفتها ؟ . . من تكون ؟ . . ربما كنت ضحية إحساس
خاطئ ، ولعل لمحة العين السريعة التي هزت ذكري غامضة قابضة في
أغوارى هي التي خدعتني . . وتلفت ورأى فلم أر إلا الخضم البشري
لاتبين فيه شبهة لذلك الثوب الرمادي السايغ الذي خيل إلى أن المرأة ترتديه
ولا تلك الورقة البيضاء التي خيل إلى أنها تمسكها في يدها . . لقد
تاهمت مرة أخرى في الزحام وابتلعها الهلام المتحرك ، تلك الذرة الضائعة
في البيداء التي تسفو عليها رياح القرون .

زحام أمام فترينة كريستال وتجف رشيقة . . وهذه الأباجورة
تصلح لغرفة النوم في شقتي الجديدة التي لم يتم فرشها . . لكن الثمن
٢٢ جنهما . هؤلاء القوم لا يعبأون بأعصاب فقير يحب الأشياء الجميلة . .
تلك المرأة . . من كانت ؟ . . إنني أعرفها . . إنها هنا في أعماق
ولو تاهمت من الوجود كله . . لكنها لا تريد أن تصحو من همودها
فتوضح معالمها وتكتسى وجوداً وتحمل اسماً وتعيش في نفسى كما عاشت
مرة أولى . . إنها في ذاتي وجدها ، تستطيع أن تعيش مرتين . . ولكنها
لا تريد . . هوذا اسمها يتفزز على طرف لساني . . اسمها . . ياسيدى
مساء الخير وأهلاً وسهلاً وأذهب الآن في حال سبيلك . . كلا . هذا المغفل
الذي كان يوماً ما جاراً لأسرتي يصر على أن يكون السلام باليد ،
وأن يسألني عن إخوتي واحداً واحداً . . أوف . . أخيراً زالت الغمة ،

وانصرف ثقیل الظل بعد أن أنبأني في زهو أنه رزق بنتاً ثالثة أسماها بكل
كثافة روحه « فتكات » . . لكن ماذا كان اسم التي مرت بي في لحظة
فنادتني أن أبعثها في نفسي ؟

وفجأة توهج شعاع . . وتوضح في ذاكرتي : أول كل شيء ما لم
أكن أتوقع . . لا اسمها ، ولا كيف كان عبورها في حياتي وإنما هو
صوت . . نعم صوت : . صوت أنثى تغنى . . صوتها هي سمعته
بكل خصائصه ونبراته . . بل إن كلمات « الموال » الذي كانت ترنم به
ارتسمت في إحساسي المتجمع مضيئة بارزة : في وضوح أوشك
أن يكون — لفرط قوة تدفقه من الأغوار السحيقة أليماً . .

يا بايع الدر في سوق الزلط مسكين
تطلع عليك الكلاب تنبح شمال ويمين
يلقي الزلط مشترى . . والدر ياخذ مین

نعم هي مديحة . . وارتد باب الخزن مفتوحاً في ضربة واحدة ،
ومن وراء الصوت تدفقت كل أجزاء الصورة هادرة متشابكة . . طوفان
يرغى ويزبد منقضاً على الحواس كلها ، وعلى مناطق في النفس لا اسم
لها في أية لغة . . الصالة ومسرحها . . الجمهور والليل . . التخت
كله . . عوض « الرقاق » ودنجل صاحب الدريكة ، وسائر الموتى
يبعثون . . ورفع إذن عن حياة بأسرها ستار ، وقامت ترقص الظلال ،
واكتست الخطوط المنسية كياناً مادياً جديداً . . مديحة . ولم أعرفها .
أيها الزمن الأبله كيف لا تعي ولا تنطق ، كم غيرتها الدنيا ، في
سنوات . . كم سنة ؟ . . ثلاث عشرة سنة نعم ، هو هذا . . يوم
كنت أقف وراء منظر ساذج في الكواليس وأرقب الراقصات وهن
يندفعن إلى المسرح في موكب زاعق الألوان والعري والعطور الرخيصة . .
نعم . اسمك يا هذه مديحة . لكنك كنت راقصة صغيرة ، وكنت تغنين

أحياناً وأنت ترقصين مع المجموعة فتردد النسوة غناءك . . كنت دون
عامامك الثامن عشر ، وهما أنا ذا أراك الآن وقد بعثتك حية كما رأيتك
ليلة أمسكت بطنك بين يديك وأنت تدخاين لاهثة شاحبة من المسرح
إلى الكواليس ، وسط تهليل السكارى وصيحاتهم ، وقلت لي : « أصلي
حبلى » .

أراك يا مديحة وهذا صوتك في أذني وأرى العرق يسيل تحت شفوف
ثوب الرقص على فخذيك اللتين كانتا منذ هنية تثيران سعار الجنس
في قطاع المحمورين . . كنت نضرة وكنت جديدة على الوسط ، وكان
لك شعر طويل يسترخى على ظهرك أو يثور على محياك فتبرق
من خلاله عيناك البريثتان المدعورتان ، وأسمع صوت مدير المسرح
وهو يتألفك - في تلك اللحظة التي أوجعك فيها الجنين - مؤنباً لك
على ما خالفت به ساقاك في الاستعراض سيقان زنيالاتك ، كأن لهذا
التزمت الفن في حيث كنت تعملين قيمة . . وأسمع ردك وإنه ليحز
الآن في قلبي كما حز فيه يوم قلته أول مرة : مغلش يا أستاذ شفيق ،
دانا حبلى في الشهر الرابع . .

كان لك في ذلك العهد إله وكان إلهك مدير المسرح الذي ينقذك
أجرك ويملك فصلك ويتحكم في يومك وغدك ، وكان في أحشائك
ذلك الثقل الحى الذى أودعه فيها أول رجل غشك وذهب عنك إلى حديث
اختفى في المجهول . . تلك الداهية التي احتملتها وأبيت إلا الصمود لها
بكل ما في ربيعك الغض من حيوية وطاقة مكافحة . . كم غنيت للقرش
وكم تأود خصرك الموجع للعيون وعلى شفتيك ابتسامة ، ثم مهاويت متخذة
من راحتيك المتشنجتين حزاماً لبطنك الموجوع بحمله ، وكم سمعتك
عندها تسين وأنت تضحكين ذلك الجنين التعس : « آه يا ابن الحر بنجى
الغشاش ، ياما أنت راخر حاتورينى » .

أنت أنت يامديحة صرت شبحاً يمر بي في الشارع فلا أعرفه . .

أنت هذا الشبح المنطفيء الواهن الذي عبر منذ قليل في طريقي . .
 لم تعودى إذن تلك العملاقة من عملاقة الوجود الدائبة على عملها في يأس
 مرح ، يوم كنت راقصة بلا أم ولا حبيب . . البروفة في الظهر ،
 والسهرة في الليل . والكأس والأرق والرجل . . لم يعد في وسعك إذن أن
 تمكرى بمخمور شهوان تضاحكينه في ملاينة ، وتفرشين لتوقعه جناح
 أنوثتك ، حتى إذا ما نأت كفايتك من وجبة عشاء وعمولة شراب
 زرعت في مكانه وهربت بحملك المسكين إلى المسكن الصغير الذي
 هب بدوره الآن يعيش في نفسى . . المسكن الضائع في قلب شبرا ،
 حيث كانت تعايشك زميلتك السمرء ذات الأرداف الثقيلة . . ماذا
 كان اسمها . . لست أدري ليس لها عندى اسم ، وكان في نفسها
 هى أيضاً جمال من ذلك الطراز الأصيل الذى يخلعه الكفاح على المرأة
 في سوق الحياة . . وكانت تحبك ، وكل زميلاتك أحبينك وعطفن على
 حالك ، وكن يحصين الأسابيع في انتظار مولد الطفل ، ويفتحن
 الكتشينة عن البخت ليقرأن مصير ابن مديحة في الدنيا . .

الآن أذكر اسمها ، زميلتك السمرء . . حورية . . وأذكر جلستها
 في الكواليس بين فترات الظهور على المسرح ، وقد وضعت ساقاً عارية
 على ساق عارية ، وعلى كتفها شالها الأحمر ذو النجوم الصفراء
 الدقيقة ، كأنه سماء تحجرت نجومها على أديم من الدم ، وفي يديها
 إبرتا « التريكو » الطويلتان تعد بهما جهازاً كاملاً من ملابس الأطفال . .
 ثم ترفع رأسها وهى تمايل طرباً عندما يهز صوتك أعماقها ، ولا تبالى
 أن تصيح لتسمعك على المسرح : « الله يا روحى أنا . . كمان والنبي
 يا حبة عيني على بياعين الزلط . . »

وجاء فتلقفته الأذرع العارية وحنّت عليه النفوس التى بليت العيش
 فضافت تجاربه إلى آفاقها المحدودة أعماقاً من الحس وراء أعماق ...
 أذكر مهادك في غرفة الرافصات يا ممدوح . . لقد نموت في عالمك المكنون

وأملك تزاول العيش على خشبة الرقص وبين موائد السكارى ، ثم جئت
إلى الدنيا فإذا مهدك هناك فى الركن حيث وضعت لك الأيدى الرقيقة
تلك السلة من سلال الغسيل المجدولة فوق كرسى عتيق إلى جوار مرآة
الزينة . . كانت مديحة تحملك إلى الصلاة كل مساء ، ثم تعود بك
قبيل الفجر إلى المأوى الضئيل فى مجاهل حى شبرا الكالحة ، حانية
عليك وهى تضمك تحت معطفها إلى صدرها الدافئ الذى يتحلب لك
من الحب رياً وزاداً . . والأيدى الناعمة التى لم تعرف منذ هوت إلى قاع
اللدست المحبول غير قرع الكتوس وإشباع الشهوات صارت ترتجل لك
الأغاني وتغدق عليك مكبوت الفطرة السخى وتصنع لك مع رحمة الحب
لعباً لا تعيها وملابس من كل نوع ومن كل لون . . وكنت تبتسم لى يا بن
مديحة كلما دخلت عليك الركن وحنوت على مهدك ، فأقرأ فى ابتسامتك
ثمار الحية ورنين الأصفاذ وأرى النعش الذى ولدت تحمله على كتفك
وكل شقوة الحياة التى لا تدرى فى غفلتك من أمرها شيئاً . . ثم يبلغنا
— أنت وأنا — زئير الجمهور وهو يحى أملك إذ تنهى على المسرح أغنية
أو رقصة ، ولا نلبث أن نراها تقتحم علينا ركنك ، محلولة الشعر عارية
إلا من غلائلها وجداول العرق تنساب على فخذيها وحول سرتها العارية
كالثعابين الرطبة اللزجة . . وأسمعها تناجيك فى دفء الأزل الذى
يرتعد له بدنى : « يا روحى . يا دوحة ! ماما سابتك جعان . . يقطعنى
يا حبيبى . . وتضغط بيديها معاً أحد نهديها فتخلصه من سجنه الحريرى
الشفاف ، وتنحنى فوقك بتلك الكرة البلورية الدافئة ذات العروق
السخية والشعر الظمآن إلى شفتيك ، فلا جلال فوق جلالها ، وهى تهدهدك
وترضعك أملك العارية . .

• • •

حدود تسكعنى الآن هى رصيفما شارع قصر النيل ، من عند
مسجد الكخيا إلى الميدان الذى يتوسطه تمثال رجل يجنب فى سروال

مضحك . . . إننى أتمنى الآن أن ألبى مديحة فى هذا الزحام مرة أخرى .
وأتمنى ذلك بجماع إرادتى وقوة نفسى . . . وتزعجنى تحية سريعة من زميل
صحفى يتسكع بدوره وعينه تصنع لكل امرأة جميلة تمر به مقايضة
تغمرها له كهولته . . . إن فى حياة مديحة أيضاً صحفياً هو الآن ميت فى
الموتى ، ولم يلمح قط . . . وكان « عامر » عندما عرفها صحفياً ناشئاً فى أول
الشباب . وقد أحب تلك الأم - الصغيرة الراقصة ، ووجدت أمومتها
فى شخصه سكناً طيباً . . . وأخذت مديحة يومها رأى فيما عرضه عليها
باسم العطف و الحب ، وكنت الصديق الذى زارهما فى بيته بشارع جلال
ليلة انتقلت إليه بابنها وبحياتها كلها ورجائها الباقي فى قوة مجهولة نرعاهما
وصار « عامر » يقضى نهاره فى كفاحه الصحفى أو ينفقه فى بعض
الأحيان متردداً على المسارح الصغيرة والمغنيات الناشئات لبيع أغنية
من تأليفه ، فقد كان زجالاً أيضاً ، أو كان يحاول أن يكون كذلك . .
ثم ينطلق مع الليل إلى الصلاة التى تعمل بها رفيقته ، فينتظرها فى صبر
مهذب حتى ينفض السامر فيعود بها وبممدوح الصغير إلى العش . .
منحها نفساً طيبة فمحتته ودها ووفاءها وكل أنوثتها الصريحة العاقلة . .
وكان يحدثنى عنها وكان فى حديثه إعجاب ذكى بروح الكفاح والتعفف
التي تكشف له عنها شخص مديحة . . . وأعتقد أن كثيراً من المعانى
التي كانت تتردد فيما كتبه لها من مزاويل وأغنيات كانت من
وحيها . .

كانت هذه مديحة التى عرفتها فى ماض يبدو لى الآن بعيداً كل
البعد فى قاع بئر الزمن العميقة . . . عرفتها ورأيتها حتى وهى تغسل
ملابس ابنها الصغير فى بيتها عرفتها وكنت لها صديقاً ثم غابت فى زحمة
الدنيا ولم أعثر لها على أثر عند عودتى من رحلة طويلة فى الخارج ،
فقد مات صاحبها فى حادث واختفت هى من « الوسط » وضاعت
مع ابنها فى الدست الهائل الذى تغلى فيه حياة الأحياء قبل أن

تتلقفهم مهزلة الموت المحبومة . . . والليلة وبعد كل هذه السنين مرت
 بي الصديقة القديمة فلم تهش لها نفسى ولم تنبسط ذا يلى . . .
 والمرارة الموجعة التى انسابت فى نفسى كاد ينشق عنها حلقى فى صيحة
 ممزقة أو تنبثق من عيني دمعة خرساء . . .

وإذا بها خارجة من صيدلية وفى يدها ربطة صغيرة . . .
 — مديحة . . .

وقفت المرأة المهزولة ذات الثوب الرمادى الرصين ونظرت إلى
 هذا الرجل الذى ينادىها باسمها وتجلى فى نظرتها أنها تنكره . . . فندت
 عن نفسى ضحكة ترثى لنا ، وهمست فى وجهها والناس يمر بنا موكبهم
 فى كل اتجاه :

— « ياتى الزلط مشرى . . . والدر ياخذ من . . . »

وإن هى إلا لحظات جاشت فيها نفسانا بانفعال اللقاء الغريب
 حتى كنت قد ملت بها إلى ركن هادئ قريب أرى فيه الدنيا فى شخصها . . .
 أمامى مخلوقة أخرى من هزال ورقة حال كأنما لم تعيش فى هذا الهيكل
 الناحل الذى تفتححه العين تلك التى رقصت فى نضارة العمر على
 دربكة دنجل واشتهتها ، من وراء خصلات شعرها المنشور على وجهها
 وجسدها ، مواكب القطعان المحمورة . . .

تحدثنا طويلاً ، وعميقاً ، وبكىنا بلا دموع . . .

— الربطة دى ؟ . . . دوا الممدوح ياخويا . . . دوحة عيان أوى . . .

— سلامته يا مديحة . . . عنده إيه ؟ . . .

— خاسس أوى . . . وحرارته جامدة . . . وبيكح ومسهرنى الليل . . .

بيكح أوى . . .

وتكلمت مديحة . . . سمعت الكثير عما بلته فى دوامة الحياة خلال

كل تلك الأعوام التي انقطعت عني فيها أخبارها . . عرفت كيف أبت أن تنفع أمومتها في خضم الدنيا الذي يشيع فيه الزلط ، ويرخص الدر ، وكيف تهوى عالمها وانحصر ، وكيف هانت وذلت في بعض الأحيان كبرياؤها . . وحاولت أن أتخيل غلاماً عليلاً في عامه الرابع عشر ، وأن أصعد معه الأعوام في مراقي السن أو أنحدر معه الدركات في مهاوى المصير : منذ كان يرقد كالأمير في سلة المهد وتلتف به حاشية من راقصات عاريات كالجواري . ينغمس له أعذب أصواتهن ، وينحنين على مهده فيغلقن عليه من أنوثتهن ، ويصحو وينام على أذرعتهن الشابة المعطرة وابتساماتهن المصبوغة الناطقة بالحب . . وصحت في نفسي وأنا أسأل مديحة عن عنوانها الجديدة بضعة أخرى من حياتنا الأولى : ليلة « السبوع » العجيبة التي أقمناها للمولود بعد انتهائه العمل في الصالة ، على المسرح المضيء وحده في صالة غارقة بمقاعدھا وورائدها في ظلمة أسيفة شاخصة . . على كل هذا الماضي مرت الحياة بعجالاتها الساحقة وعربدت دوامتها النزقة . . هي ذى شاحبة ومنبوذة ، ورجاؤها الباقي من كل ما عاشت هو أيضاً عليل ، والموكب الأصم الأبيكم قد تركها تهوى إلى القاع ، وهي قد هوت دون أن تند عنها صرخة ، هي التي كانت الحياة عندها قبل أن تبلغ العشرين شيئاً واحداً هو أن ترفع رأسها وترقص وتربى ابنها وتخلق منه رجلاً نافعا ومحترماً .

إن الليلة التي بدأت في نافذة مكتب صديقي المحامي قد انتهت إلى حجرة زرية تمرض فيها امرأة مستوحدة وحيدة الذي يأتمر به الموت ، وإن الابتسامة المريضة التي تقبل بها الولد هداياي لتنسخ من الوجود كل ابتسامة رأيته في الزمن القديم على وجه أمه . . فلما دق الباب دقة نكست لها الأم رأسها وقالت قولاً أحسبها أجابت به عن تساؤلي الصامت عن مصادر النقود التي تعيش عليها وتحصل بها على الدواء : إنها هي نفسها

كما أرى لم تعد كأنتى تصلح للبيع ، لكن جماعة الرجال المحدودة
التي تقبل على بيتها كل ليلة لتدخين الحشيش عندها قد أقيمت الساعة
على عاداتها بالعشاء ، والمزاج . . . بعض النساء . . .

عندها رن في وجودى كله صوت عبد العاطى بائع الصحف إذ يتقبل
يبشاشته المعهودة تحيتى وسؤالى عن الحال قائلا لى فى مرح أسيف :
« ياسيدى ! . . زلطة فى سوق الزلط . . وآهو ماشى الحال ! ! . . »



الضمان

كان الجوع أهون ما يلقاه « عباس » من دنياه ، لكن ضحكته العالية المعديّة كانت تشرق على الوسط الفنّي كله ، وما كنت لتجد بين أهل الفن الذين يعجب بهم عماد الدين وملاحقاته من هو أجدر من عباس بصفة الفن الخالدة .

وقد كنت ألقاه في قهوة أهل الفن حيث كانت توافيه صاحبتة « فتحية رومبا » بعد أن تفرغ من عملها في « الصالة » . . شابة ذكية لطيفة كانت معروفة ببهاء طاعتها وخفة روحها ، ثم تدور حولهما حلقة غريبة من شباب أهل الفن فلا يلبث ذلك المشرب العجوز أن ينقلب إلى مسرح من مسارح البوهيمية ، يتصدره دائماً وجه عباس الشاحب وشعره المهوش وضحكته الفذة وصوته المسرحي العريض وسرته المهذلة العتيقة وربطة عنقه الضخمة السوداء .

وكانت القصائد السخيفة التي ينظمها أحد أفراد هذه العصابة العجيبة — الأستاذ « عبد السلام وهي » — تكاد تدفعني في بعض الأحيان إلى ضربه . . وحتى « زينات » ، الغانية التي كان ذلك الشاعر يعيش من « كدها » والتي كان هو يدعوها ربة الشعر وسيدة الوحي ، لم يكن يبدو عليها أنها تفهمه لكنها كانت تحبه وتنفق عليه وتقول :

— لولا شعره لعبدته !

وهذه العصابة من حطام الحياة الفنية التي تحيا حياة مرحة راضية ، هي بعينها التي أقبلت عليها ذات ليلة فإذا هي شقية واجمة ساخطة . . وكانت « ربة الشعر » أول من لقيني على باب المشرب ، فما كادت تراني حتى هتفت بي :

— جئت في وقتك . . إن صاحبك في شر حالاته .

فبادرت بالدخول ، ووجدت صديقي عباس في ركنه المشهور ، وحيداً وأمامه كأس « الزيب » وأطباق سلطة الطحينة والخس والفول النبات ، وعلى محياه فيض من الأسى والألم ينم عن حزن غادح يأكل قلبه . . فأدركت أن نكبة حلت بصاحبي ، فما يطير بابتسامته الخالدة ، التي لم يطر بها البؤس والصعلكة ، غير نكبة داهية . .

وتوقعت أن تكون صاحبه قد هجرته ، فقد كانت في العهد الأخير شديدة السخط على حياتها معه . .

وكان ذلك هو ما حدث فقد طارت صاحبه من عشه إلى حيث لا يعلم ، وقد قص على قصة هذه القطيعة وهو يعب في خمر قهوة أهل الفن المريبة ويدق المائدة في انفعال عصبي مزعج بكفه البيضاء ذات الأنامل القذرة البديعة !

وواسيت صديقي ما استطعت ، ولكنه كان يهتف بي :

— إنها عشرة سنين ، أصبحت أكبر عاداتي . . والعيش بدونها ساعة واحدة يكاد يكون أمراً مستحيلاً . . ولست أدري لم كرهت أخيراً العيش معي . . . أقبلت ليلة أمس تصرخ في وجهي أنني أفسدت عليها حياتها إذ زينت لها دائماً هذه الحياة وأحطتها بهالة كاذبة من نور المجد وقداسة الفن ، وأنها تعرف الآن أنني خدعتها عن نفسها ، وأنها ذاهبة غنى إلى رجل غنى كريم ينتظرها لينحها الأمن والحفظ والدعة . . وقلت لها : إنك إنما نشأت بين أحضان البساطة والفاقة التي تطبع حياة أصحاب الخلق الطليق ورواد الفن الحر والحظ السيئ ، والبهيمية مختلطة بدمك وروحك ولا مفر لك منها . .

وسكت صديقي لحظة . ثم استطرد في صوت يختلج بالألم المكبوت :

— وجعلت أحدثها متلطفاً مداعباً عن جلال هذه الحياة وسحرها ،

وعن « الرسالة » التي حملناها نحن معشر البوهيميين والأحرار من أبناء الفن في هذه الأرض الملعونة الموبوءة بالذهب والفضة ، وسألها مخلصاً أن تنقذني إلى نفسها وتدع البطر فما أفسد شيء حياة أهل الفن إفساده لها . . . وسمعتني صامتة ، ثم مضت إلى الباب ، فتركتها تفعل — فما كان ليربطها بي في رأي غير حبها لي — ثم إنها عادت أيها الصديق فأخذتني بين ذراعها وهي تنشج بالبكاء وروتني من شفيتها قبل أن تخرج وحبها إلى الدنيا . . . إلى حيث لا أدري . . .

* * *

ومر أسبوع شغلتنى فيه أعمالى عن مأساة عباس وعن قهوة أهل الفن ، ثم عدت إلى القاهرة ذات مساء فكان أول ما سمعت في عماد الدين أن عبد السلام الشاعر قد جن . . . فهرعت إلى قهوة أهل الفن ، وإذا أول ما يلقاني منها صوت عباس يطلق ضحكاته العريضة المشهورة ، ولقيتني بالعناق ، وجعل يدور بي بين الموائد راقصاً . . .

قلت أنت الذى جن أم عبد السلام ؟

فقادنى من يدي إلى الركن ونظرت فإذا « فتحية روميا » قابضة حيث اعتادت أن تقبض من مائدة عباس ، ولقيتني بكف صديقة وهي تشد على يدي هاتفه :

— انظر لقد عدت إليه نائبة نادمة مستغفرة لذنبى .

وقلت لعباس : ولكن . . . عبد السلام ؟

فصاح بي : دعك منه . . . هات واحد ويسكى للأستاذ يامانولى .

قلت : لا يا عباس . . . إنما أريد قصة عبد السلام . . .

قال : أكنت تنتظر له غير هذا المصير ؟

فدفعته إلى المائدة هاتفاً به :

— اجلس يا صاحبي ، واهداً ، وهات القصة بتمامها .

قال عباس بعد أن طلب لنفسه كأساً أخرى من « الزبيب » :

— كانت « زينات » يوم عرفت « عبد السلام » ذارعة رصيف لم تشتغل بعد بالرقص في الصالات . . وقد التى بها في ليلة لم يكن ذاق فيها طعاماً ، فاشترت له رغيفاً من الخبز وقطعة من اللبن ازدردهما إلى جانبها على الرصيف ، تحت أحد مصابيح الشارع . . ثم غادرها دون أن يشكرها ، فقد شبع وجعل يفكر في نظم قصيدة عصماء في غرفته الحظيرة بفندقه بالحى الحسينى . . ولكن صاحب الفندق — وكان قد ضاق بهذا النزيل المفلس — طرده شرطدة ، فخرج ، قبيل الفجر ، يبحث عن مأوى . . وبينما كان يحول في الشوارع هائماً على وجهه لى التى أطعمته من جوع تذرع الأرصفة فى انتظار الرزق . . فتفتحت فى قلبه المنحط رغبة سافلة فى أن يصاحبها إلى بيتها . . وهناك قضى النهار كله نائماً ، وعندما أقبل الليل خرج إلى جولاته الليلية فى المقاهى والبارات بعد أن حمل القليل من المال الذى كان معها . . وما لبث الشاعر العظيم أن اعتاد هذا اللون من العيش ، واعتادته معه ضحيته زينات .
وأتمت فتحية حديث صاحبها :

— لقد كان ندلاً عظيماً ، عليه اللعنة . . وكان ، فى العهد الأخير ، يضربها ويسىء إليها سرّاً وعلانية مع أنها كانت مورد رزقه الوحيد ، وكان ينظم لها بنفسه الصيد ، وقد أعانها فى بعض الليالى — بمساعدة بعض العريجية الذين غدوا أصحابه — على سرقة نقود الزبائن السكارى من جنود الحلفاء . . وهذه المرأة هى التى كان جزاؤها أن يضربها عبد السلام فى مسكنها بشارع جلال ضرباً مبرحاً قبل أن يغادرها إلى غير رجعة . .

قلت : إنى لا أفهم : لماذا غادرها عبد السلام ؟

فصاحت فتحية :

— لأنه مجنون ! !

قلت : وكيف عرفتم جنونه ؟

فارتفعت صيحة عالية مشتركة من أطراف قهوة أهل الفن :

— إن رجلا يهجر زينات الحميلة وما تدره من ذهب . . . هو مجنون
لا ريب في جنونه !!

وصاح ممثل خامل مهوش الشعر من وراء كوب النبيذ الأحمر الذى
يهتز في يده :

— كلنا عرفنا ، يوم هجر زينات ، أنه مجنون . . . ولم يصدقنا هو
في مبدأ الأمر ، ولكنه انتهى هو أيضاً — أمام إجماع الوسط الفنى كله —
إلى الإيمان بتلك الحقيقة التى لا يرقى إليها الشك !

ومالت فتحية على يد عباس فقبلت أطراف أنامله القدرة البديعة
ومسحت في راحته خدما ، وهمست :

— ما أعقلنا نحن يا حبيبي !



يقول مثل إيطالى : « حيث يوجد النور ، توجد المسرة » .
وأنا أنوى الليلة يا أصدقائى أن أحدثكم عن قصة زينب ، وما أدرى
لم ذكرت هذا المثل حين انتويت أن أقص عليكم هذا الحادث المشجى .

لقد دارت حياة زينب فى ظلمات حياة قصيرة ، ولكن فى هذه
الظلمات شمعتين أوقدتهما يد رجل واحد ، شمعة أضيئت ليلة دب
إلى زينب سيدها ديب اللص الحسيس فعلمها القبلة والهوى ونعم بحسبها
وشبابها ، وشمعة أوقدت ليلة ودعت الحياة والشباب . . كلتا الشمعتين
أوقدتهما يد رجل واحد ؛ كان سلطان الحياة والموت فى عمر زينب ؛
وهو اليوم يشغل منصباً خطيراً من مناصب الدولة ، ولندعه الليلة
« أحمد عبد البارى » .

وفى تلك الأيام البعيدة التى أحدثكم عنها ، وحتى الآن وإلى ما شاء الله
يمكن أن نعتبر أحمد عبد البارى نموذجاً للرجل الذى تكون المرأة أساس
حركاته وسكناته وهدف حياته وشغل ليله ونهاره . وقد قضى فى المدارس
ما يزيد على خمسة عشر عاماً فانزلق كل ما تلقاه من علم وتهذيب
وثقافة على طبيعته الحيوانية كما ينزلق الزئبق على صفحة من الورق ،
فخرج من هذا العمر الطويل ولم يبق منه فى تكوينه العقلى والخلق
إلا التافه القليل .

وقد عرفته فى أسبوط ، منذ أكثر من عشرين عاماً ، فعرفت فيه
ذلك « الحيوان الكامل » المتمتع بنخصائص الأنانية والبلادة والحمول
الذهنى ، والمبادرة إلى اللذة العاجلة فى اندفاع السمكة الحمقاء إلى
الطعم . . .

وقد شكّا إلى لأول عيادي بمعرفة عمله المضمّن وماله المهرق ونومه المضطرب ، وكان حديث العهد بالوظيفة وبأسيوط ، وكان أحب شيء أن تخوض بسمع منه في سيرة النساء ، وكثيراً ما سمعناه يسأل :
— عجباً لهذه المدينة هل خلت من النساء ؟ !

كانت المرأة غداء يقظته وقوت أحلامه ، يتمثلها في حمى الحرمان كأنما هي طيف من العطر والنور والدفء يزور الناس ولا يزوره ، وربما سمع ضحكة ناعمة من وراء نافذته فأرقته في مضجعه حتى مطلع الفجر ، وربما مرت على طريقه ملاءة سوداء ملفوفة على بدن ضامر مشدود فشدت وراءها أعصابه شداً يكاد يدفع به إلى الجنون . . ومضت بضعة شهور كان أحمد عبد الباري خلالها موضع تسليتنا وتندرنا ، ثم فوجئنا بانقلاب غريب طراً على شخصيته ، فقد شهدناه مرحاً مشرقاً لا يتحدث عن النساء ، وبدأ عليه أنه قد أوتى سكينته النفس من حيث لا ندري ، فأردت أن أقع على سره ، ف وقعت على مأساة زينب .



وكان أحمد عبد الباري قد حدثني ذات مرة عن الأيام التي سبقت سفره إلينا من قرينته البعيدة ، وذكر لي عرضاً أنه جاء من هناك بخادم صغيرة ، وأنه يحس الكثير من الضيق والخرج لوجود هذه « الجاسوسة » معه فهي لن تتردد في الوشاية به عند أهله إذا ما اطلعت على غرامياته المقبلة ، وكانت تتمثل له عقبة سخيفة في سبيل تمتعه بالنساء الحميلات اللاتي كان يدبر في خياله الحصب المهتاج قصص غرامهن المنتظر به وفي كل غرام جديد منتظر كان خياله يرسم له خطة بديعة لخداع خادمتة زينب .

وقد علمت فيما بعد أن زينب كانت تمت إليه في الحقيقة بقرابة بعيدة غامضة ، وأحسبها كانت في السادسة عشرة من عمرها ، على حين

كان هو يكبرهما على الأقل بعشرة أعوام . .
عمل ممل رتيب ، وحرمان طاغ مستبد ، ورجل هدفه المرأة ،
وفتاة صغيرة ساذجة من أقصى الريف ، كأنها رسالة لم تفنص !

والذين خبروا النفس البشرية منكم يعرفون ولا ريب تلك الطرق
الملتوية التي تلجأ إليها النفس للانحراف من هدف إلى هدف بقصد
التكميل أو التعويض أو العزاء عما فات أو مالا سبيل إليه .

وقد كان أحمد عبد الباري صاحب نفس بدائية باطشة ،
وعندما أعياد انتظار الأحلام ولم تفده الحيلة واستبد به طبعه الحيواني ،
وجد نفسه يكف من تلقاء ذاته عن اضطهاد خادمتة الصغيرة ، ولم تعد
تثيره بلاذتها وبدائتها وجهلها وقذارتها ، ولم يعد يؤذى سمعه حديثها
فالتفت إليها على غير وعى منه ، وعلى مدى شهور لا أيام . .

وجد نفسه يشتري لها ثياباً جديدة ، وحلياً رخيصة براقية ،
ويعلمها النظافة والتجميل ، ويدللها ويلطفها ، وبعد أن كانت تنام
في المطبخ على حصيرة رق لها قلبه فأصبحت تنام فوق فرو جديد
على أرض مخدعه أمام سريره . .

ثم أقبلت الليلة التي عاد فيها من المقهى فوجد مسكنه غارقاً في
الظلمات ، وعلم من زينب وهي تفتح له الباب أن التيار الكهربائي
قد قطع عن الحى كله منذ قليل فأعطاهما قرشاً لتشتري شمعة ، وعندما
عادت بها وأوقدها وسقط نورها على محيا زينب وبدنها رقصت دماء
أحمد في عروقه ، فقد بدت له خادمتة الصغيرة في ذلك التور الخافت
كأنها امرأة جديدة تولد من نور شمعة ، وتألفت بشرتها السمراء تحت
ومضات النور كأنها النيذ وراء الباور ، فتناولها بين يديه وقبلها ،
وطمأنها لما بككت ومناها . . . ومن ذلك اليوم أصبحت تنام معه في
فراشه ، وتأكل من طعامه ، وتشرب من شرابه ، وتشغل منه
ليله ونهاره .

كان كأنما صنعها بيديه ، وبث فيها من روحه ، فكان سيدها وأستاذها ومولاها . .

وكشفت له زينب في كل يوم عن حسن جديد ، كأنما كانت ، وحدها ، امرأة لكل يوم . . وشهدتها عينه التي لم تشهد امرأة مليحة سمراء ، وعندها ألبسها الحرير وعطرها وضمخها بفته الشهواني الأصيل ، تبدت له تحفة يهيم بها القلب ويعلق بها الخاطر ونسي نساء الأحلام ، فلم تعد أطيا فهن تراوده في يقظة أو في منام ، ولم يعد يحدثنا عنهن متى لقينا ، وطالعنا منه في مجالسنا رجل سعيد يتفجر من أعطافه المرح والرضا عن نفسه وعن الناس .

ويعلم الله وحده كيف كان عيشهما ، أما أنا فأعلم أنه لم يذق — خلال عامين — غير هذا الطعام . . أصبحت زينب كل النساء ، كفته خيرهن وشرهن . . كانت تحرم عليه النوافذ فلا يقربها وتسأله عن وقته في الخارج كيف يقضيه ، وكانت عيشتها ، مثل علاقتهما ينجم عليهما الصمت والحدوء . .

ثم سمعت أن أحمد قد خطب لنفسه ابنة رئيسه . . وتساءلت عما هو صانع بزينب وقد جعل منها امرأة ذات قلب ورغبات ، وأو لقيته في ذلك العهد لنصحته أن يجعل منها زوجته . . ولكنه لم يفعل ، بل أقبل عليها يوماً فحدثها عن « عبد الستار أفندي » الباشكاتب ، وأبلغها أنه دعاه إلى تناول العشاء على مائدته في إحدى الليالي ، وقال لها إنه ينتظر منها أن تعد للضيف الكريم خير ما جادت به مواهبها في فن الطهي من ألوان الطعام . .

وفي اليوم التالي قال لها إن الباشكاتب لن يحضر وحده ، إذ أن السيدة حرمه تعظمت وقيأت الدعوة . . وبعد يوم آخر حدثها عن تواضع الباشكاتب ودمائه خلق حرمه

وكيف قررا أن يحضرا معهما بناتهما الثلاث ليحضرن وليمة العشاء . .

* * *

وفي تلك الليلة كان الحديث حول مائدة أحمد عبد الباري يدور مرحاً مشرقاً ، حول كبرى بنات الباشكاتب ، وكانت جالسة عن يمين أحمد ، متوردة الوجنت مطرقة في نخجل مصنوع ، ووالدتها وشقيقتهما يحادثنها بنكاتهن وعبثهن . . ولكن أحمد كان بادي القلق متوتر الأعصاب وكان يحاول كلما أوشك الحديث أن يخرج من التلميح إلى التصريح ، أن يغير مجراه ، وربما صرف زينب المشرفة على الخدمة ، وقلبه يدق بين ضلوعه ، فقد كان يحس أنه جالس على قمة بركان لا يدرى متى ينث حممه !

وقد قيل إن التيار الكهربائي انقطع فجأة من مسكن أحمد عبد الباري قبل أن يفرغ ضيوفه من تناول العشاء ، فأسرع إلى المطبخ ليجلب الشموع التي كانت هناك على الرف . .

وأشعل واحدة من تلك الشموع ونادى زينب فلم تجب ندائه ، ومرت بخاطره - كلمحة البرق - ذكرى تلك الليلة القديمة التي اكتشف فيها أنوثة زينب في ضوء شمعة . . .

ونظر عرضاً ليرى مكان زينب فصدمه منظر لم يفهمه عندما وقع عليه بصره . . ثم أطلق صرخة مروعة فهرع إليه ضيوفه ليشهدوا زينب معلقة من عنقها في حبل متدل من سلم خشبي وقد برزت عيناها وتدلى لسانها . . . طويلاً . . فظيلاً . . صامتاً كل الصمت .

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

كانت المدينة أجمل مدائن البشر ، شادها أهلها بأشد أنواع
المرمر بياضاً وأقوى ألوان الرذائل رسوخاً على الزمن ، ورفعوا بيوتها عند سفح
الجبل على الترف الداعر وعلى عمد مرمرية ضخمة عالية مرصعة بالزمرد
والياقوت ، وعليها قباب تتلألأ أنوارها وتنعكس على صفحة البحر
القريب . . . وكانت تصطبغ في بيوتها الأنيقة الدافئة إذا كان
الشتاء ، الرطبة إذا كان الصيف ، حياة رفيعة مترفة يتردد صداها في
شوارعها الجميلة العريضة . . . وكان لي في المدينة ، وفي شارع من أكبر
شوارعها ، بيت من أجمل بيوتها ، يقوم على بساط فردوسي من الجمال
الأخضر . . . وكنت عندما أذفت الآفة جالساً عند النافورة المرمرية
في حديقتي أسمع خرير مائها الفضي الضاحك ، وكانت ليلة تسير فيها
الحياة على الأرض في سبيلها المألوف ناعمة الليال ، وتتلألأ في السماء ملايين
الأكوان كأنها حبات الماس متشورة على المحمل الأسود . . . ليلة ينفي
جمالها ذكر الموت أن يخطر ببال . . .

ولست أذكر تماماً كيف وقعت الواقعة ، فإن للأحلام منطقها
الخاص ، وهو منطق عامتي اليقظة أن أكن له من الاحترام أوفى
نصيب . . .

أقبلت من رحاب النضاء أجرام مندفعة هادرة تنفث النار وقد توسطها
وقادها نجم كأنه وهو يقترب من الأرض ، هول متوهج في السماء ، وفي
سعيه المنطلق زرقة توشى حواشيها صفرة . . . وكأنما كان هذا النجم
الثاقب يقصد هذه المدينة وحدها ، فهو موكل بأهلها ، فلم يلبث

أن صار في سمائنا يشق الظلماء نحو أرضنا وله هميس تنخلع له القلوب . .
 وإذا الأشجار من حول تحصدها الحرارة التي تتقدم النجم في مسراه ،
 وأحالت الحضرة الفردوسية في حديقتي وحدائق جيرانى رماداً أسود
 كريهاً ، ورفعت بصرى إلى الجبل الذي طالما رد عن مدينتنا صروف
 الدهر فإذا صخوره المعمرة تذيب وتتدفق حصى وتراباً في مسارب الجبل
 نحو المدينة لا يصددها شيء . . .

وكانت تلك بداية النهاية ، فقد صدم النجم الأرض غير بعيد من
 قصر سيد المدينة - وبينه وبين بيتى مائة بيت . . وبدأ لي
 أنى لا محالة ميت ، وأنه يوم الساعة والدنيا تبيد . .
 وانطلق في القضاء ، حيث سقط النجم ، عمود من النور كأنه سحابة
 قرمزية ، وبلغت الحرارة من الشدة مبلغاً جعلنى أحس أن شرايىنى
 توشك أن تنفجر . . وتناوشتنى زوابع ضارية عاتية ، وفارت المياه
 تحت قدمى من شقوق الأرض ، وحملت الرياح الموج سقوف بيتى
 لتلهو به فوق أعالي الشجر ، وطارى فى الجو بيوت كم أنفق أهلها
 فى بنائها وزخرفتها واختفت بما فيها مصعدة فى سماء جن جنوبها ،
 وعلا عزيف الرياح ودوى كالطبول .

رأيت الهول يتلو الهول ، وأشفيت على الموت وشارفت غمراته ،
 وسمعت صراخ الموتى فى كل مكان ، وتأدت إلى تلك الجحيلة المكتومة
 المتصاعدة من باطن الأرض كأنها نذير ، وشهدت بعينى المدينة
 الجحيلة وهى تحترق كأنها كسرة خبز تفحمت على النار ، ورفعت
 بصرى إلى السماء فرأيت كسفاً زاحفة من السحاب الراحل تتجمع
 لتنفض بالبرق الخافق ، وهبط بصرى إلى الجبل الأشم فإذا هو قد صار
 غوراً عميقاً فى الرمال . .

وانطلقت أعدو فى شوارع المدينة وسط ألسنة متطاولة مندلعة
 من النار ، وعمد من الدخان تنشد السماء . .

وكان أهل مدينتي من حولي يتراكمون في ظلمات الذعر ، ومن البيوت التي طالما نعمت بالقصص والسم كان يرتفع عويل طويل كأنه ينعي الذين غابوا في أكفان من رماد . . هو الموت إذن ، وهذه ساعته . . . ألتقط أنفاسي على هذه الصخرة الناتئة عند شاطئ البحر ، منتظراً أجلى ، وداعيا الموت أن يكون رحياً بي فيأخذ روحي أخذاً رقيقاً كما تأخذ المرء سنة النوم . . وغمرت نفسي فجأة سكونية لم أدر مأتاها ، تزين لي هذا الركون إلى فكرة الموت . . وأطبقت الظلمات على وكدت أرضي بها ، ولكن هاجساً من غريزة البقاء هجس في نفسي يقول : « لا تمت قبل أن تكتب قصة هذا الحلم ! . . . »

وإذا بي أسعى إلى استعادة شغفي بالحياة ، فلما وفقت إلى سحب يدي التي كنت قد مددتها عن طواعية لمصافحة الموت ، عدت من تخوم الموت إلى المدينة التي تعاني سكراته . . في ذلك الموقف الحاسم تخلّيت عن وهم صحتي طيلة حياتي بأن جسمي هو ذاتي . . الآن أدركت أنني شيء أعظم وأنبل وأخلد من الجسد الفاني . . أنني جوهر عظيم ، ولو أتيحت لي أن أتخلص في هذه المحنة من جسدي لغدوت أسنى وأعظم وأقرب إلى راحة نفسي وكمال ذاتي . .

عدت إلى المدينة الممزقة أمشي في شوارعها الطويلة بين صفوف من المنازل الملتهية ، وأضرب في ظلمات طامية تغشيها غلالات من اللهب ، وحول رأسي عصفت الرياح وتحت قدمي سيول خاتلة تعوى على جانبيها الذئاب وتفتح الأفاعي وهي تتلوى في رقصة الموت وتلدغ من نجا من الهول الأكبر . . . ورأيت في الماء المتدفق في شقوق الأرض جثثاً تدور مع الدوامات قبل أن تمضى طافية مع التيار . . وعلى الأرض المشخنة قوم تنفجر من شدة الحرارة جماجمهم وبطونهم . . وكان الجرحى يصرخون . . وكان الموتى أيضاً يصرخون . . ورائحة احتراق اللحم البشري تمزق



إحسانى بإنسانيتى . . وفى كل طريق وطئته قدماى لقينى مشهد مشير
مجانين يصرخون ، وعمى يتعثرون ، ونساء معولات شائعات ، وقطط
وكلاب وجياد تعدو ولها صراخ آدمى ، ووجوه يقطر منها الدم ، ودم تقطر
منه أنفاس الحياة . وصبايا كن زينة ليل المدينة ونهارها قد سلخت
جلودهن وبترت أيديهن واحترقت على عيونهن الأهذاب فما عدن
يصالحن زينة . . .

وسمعت وراء ظهري أنيناً ، ثم أعولت امرأة واستنجدت بى :
— أنت أيها الميت العابر ! . . ألا تأخذنى معك ؟

فنظرت إلى المسكينة وقد صار وجهها ، كوجه الأرض المرتعدة
فى ليلتنا الليلاء ، مشخناً ملفوحاً كريهاً ، وقلت لها :
— تعالى والى معى نفس المصير .

قالت وهى تتعلق بذراعى بساعد يقطر طرفه دماً حيث قطعت
الكف :

— أى مصير ؟ . .

قلت : وهل أدرى أنا ؟ . . هذه فيما أحسب نهاية العالم . . لم يعد
من حى إلا قليل ، وإلا الرياح الحرقاء تعوى كأنها عفاريت مجنونة تعدو
وتصرخ ، وألسنة النار تتحسس أنقاض البيوت قبل أن تقتحمها . .
هذا هو الإنسان هشيم ورماد ، وهذه هى الأرض قفر مسود مدخن
يمتد إلى آخر مدى البصر تحت الوهج المتضرم . . وهذه مدينتنا قد أمست
جذوة مستعرة لها أجيج وصفير . . وهذا هو اللهب ينطلق كالوحش
الجائع وقد شبع منها نحو البحر فيشب فوق مياهه وثب الخفاش المسعور
كأنه جسر من مارج من نار . . أما عالمنا القديم كله فقد دفن تحت
جبل من الرماد . .

قالت لا نجاة إلا البحر . . وإنى ألمح عند الشاطئ القريب قوماً
يتصارعون عند زورق صغير . .

كان البحر في عنفوان ثورته كأنه شلال أبيض هائل من ماء يغلي ،
وكانت الصخور تقتلع من قاعه وتندفع في الجو فهوى على طلاب النجاة
في ذلك الزورق الوحيد . . وكانت الرياح تتقاذف ماء السماء وماء البحر
فكأن رذاذه إذ يصفع الوجوه رصاص من فوهات البنادق . . وكان القوم
عند الزورق تسعة رجال قتل منهم في المعركة ثلاثة . . فهبطنا ثمانية
من الأشباح في زورق ، وأبعدنا عن الأرض الملعونة والسماء تمطرنا وابلاً
من كتل ملهبة تتساقط علينا رماداً متوهجاً . .

وكان الماء يغور ويغلي ، وكذلك كان شوقنا إلى النجاة وجهدنا في
سبيل البقاء . .

وكان في الثمانية الهاربين رجل مجنون أفقده الهول رشده فلما أوشك
أن يفتك بالمرأة الضعيفة قذفنا به دون رحمة إلى الخضم المظلم المجهول
فكان من نصيبه ذلك الكفن من الزبد الناصع البياض . .

كنا قطيعاً أعمى ينشد الفجر . .

كنا العمالقة العطاش إلى الغد . .

فلما بزغت الشمس بعد دهر طويل وصراع مرير طلعت على عالم
ميت بارد ليس فيه من آثار الحياة غير الزورق بركابه السبعة وتلك
الأرض البيضاء الغامضة التي تبدت لهم من بعيد . . أرض جديدة
رسا عندها زورقنا ، باردة في وحشتها ، لم نكد نهبط إليها حتى أطبق
علينا زمهرير أشد من السعير عذاباً ، وزغب الثلج الأشهب ينساب
على الأرض في سحببات رقيقة مسفة تسوقها رياح كأنها هي أيضاً
تحتضر . . وليس وراء ذلك سوى الثلج والحمد ، وصمت آلاف من
السنين قد تجمع في مكان واحد . . فمنا من صاروا بعد قليل تماثيل
باردة لعل الأرواح التي فارقتها قد غدت هي أيضاً بعض ذلك الثلج
المنذوف على أديم من الحمد . . ومنا من هربت أطرافه من البرد فسقطت
مبتورة . .

ولم تمض ساعة حتى كان الموت قد تخطف أرواح رفاقي ولم يدع لى رفيقاً غير تلك المرأة التى كان معدنها من معدنى والتى غالبت معى النار والريح والماء والجلايد . .

ومضينا ، هى وأنا ، نضرب فى الأرض الباردة البضاء المبسوطة ومن حولنا روح الحمود وخاطرة الفناء . .
قالت الأنثى الخالدة :

— نحن عشنا بعد كل هذا ، فلن نموت أبداً !

وعندها كانت الجذوة الباقية من روحى تقول لى فى وهدة الضعف إن من الخير لى أن أموت . . كان البرد يتسلل إلى أحشائى ويغرينى بالموت ، فحيثما سرت بعد اليوم فى الأرض لن أجد غير الصمت الرهيب المطبق ، وغير هذا النقاء المنزع المصمت الشامل . . وأنا فى هذه الحياة — وبعد أن قضى آخر رفاقي الرجال — وحيد . . الأرض بالثلج بيضاء . . والسماء فى مثل بياض الثلج . . والهواء فى مثل بياض اللبن . . ما كل هذا النقاء ! . . هذه الظلمة البيضاء ! . . أى عيش هنا لبشر ؟ كوكب طاهر قد انعدمت فيه الحياة بخيرها وشرها . . هلك كل حى ، حتى الشمس بردت . . لن يقوى على الحياة فى كوكب الأرض بعد أن أصبح قبراً مجللاً بالبياض يسبح مترنجاً فى الفضاء السرمدى سوى إله . . وخير لى أن أموت لساعى . . ولكن هذه المرأة لا تريد أن تموت ! . . لها الحياة إذن وحدها . . لسوف تكون آخر حى يدب على سطح الكوكب الميت . . ولسوف تقضى ما قسم لها من حياة فى هذه الثلوج . . ومن يدرى ؟ . . ربما كانت ذبالة خاوية من الحياة لا تزال ترقد مطمورة تحت هذه الثلوج ، تتحين الفرصة لتكون نواة خلق جديد .

بنت الحلال

كانت قد نزلت من البيت إلى الشارع راجية أن تراه وأن يكلمها ،
فلما رآته على نور النيون الفاقع في لافتة عم بشندى البقال ، وهو يمشى
على مهل وبين شفتيه سيجارة ، ارتعدت وارتجفت الأرغفة الطرية
في يدها .

كانت عمها « زكية » ضيفة عليهم في تلك الليلة ، وكانت الأسرة
تأهب للعشاء عندما تنبهت أمها الست « بمبة » إلى أن الحبز الموجود في
البيت لا يكفي ، فلم تكلم تتكلم حتى كانت فاطمة قد خطفت ملاءتها
قائلة إنها ستسرع بإحضار الأرغفة المطاوعة من عم بشندى ، قالتها وهي
تتنفض بالرغبة في أن ترى محمد ، وأن يشاور عقله في هذه المرة
فيكلمها .

واشترت من البقال العجوز وتلكأت ما استطاعت في انتقاء الأرغفة
الخمسة ، ثم عادت تتلكأ عائدة إلى البيت في الشارع الصغير . . وعندما
مرت أمام حارة داود ترددت لحظة عند مدخلها الذي غشيه الظلام . .
ترى أى هذه البيوت بيت محمد ! . . كانت تسمع أنه يسكن حجرة
بالطابق الأرضي من أحد بيوت هذه الحارة . . ووقفت ونفثت الهواء
الخفيفة التي تمس جبينها تداعب طرف ملاءتها المحبوك على خصرها ،
ثم شعرت فجأة بوجوده ، فتألفت في حركة مذعورة ، فرأته مقبلا من
الدكان ، طويلا أسمر . . ليته في هذه المرة يخرج من صمته ولا يمر بها
بدون أن ينالها منه أكثر من تلك الابتسامة التي لاتعرف إن كانت للتحية
أم للسخرية . . . ليته يدفعها بنخشونة إلى الظلمة داخل الحارة ويقبلها

بشفتيه الغليظتين . . ليتة هو رجلها !
 لكن محمداً : مرة أخرى : ابتسم عندما مربها ومشى إلى البيت الثانى
 على اليسار ففتح الباب ودخل ورد الباب فى هدوء فأغلقه .
 اشتعل دم فاطمة فى رأسها ووراء أذنيها . . ولفاطمة نظرة ترشقها
 صريحة فاحصة فى العيون فتجيرها وتقلقها وتكلمها ، لكن النظرة
 المشهورة فى الحى كله خابت أيضاً فى هذه المرة . .
 مربها معرضاً ، ورد الباب فى وجهها !

كانت بتتأ فى عامها الثالث والعشرين ، سمرتها لطيفة وأنوثتها
 وافرة ، وقبل وفاة والدها المعلم برعى الذى كان صاحب عربات حنطور
 فى بركة الفيل ، كادت « فاطمة » تحصل على شهادة كفاءة التعلم
 الأولى ، ثم حجزتها الست « بجمة » فى البيت حتى صارت لا تغادره
 إلا فى ملاعنها ، مثل الكثيرات من بنات الحى اللاتى لم يذهبن إلى
 مدرسة ولم يفتحن كتاباً . . ثم جاءتها مصيبة حياتها يوم رضىت أمها
 ونخالها الشيخ عويس أن تخطب برغم أنفها إلى عبد اللطيف ابن المعلم
 منصور الجريء صاحب ورشة النجارة الواقعة على ناصية الشارع . .
 واعترضت فاطمة لكنهم احتفلوا بالخطبة . . زوجها من أول مغفل طلب
 يدها ، كما قالت لعمتها زكية وهى تبكى . . إن « رجلها » الذى طالما
 حلمت به وانتظرته من طراز آخر غير عبد اللطيف . . « رجلها »
 لا جميل ولا غنى بل رجل ! . . رجل ظاهر الرجولة ، تحبه هى فوق
 حبه لها ! . . . رجل من نوع محمد رئيس عمال الصنف فى مطبعة باب
 الخلق ، على أن يكون أغنى قليلاً إذا أمكن . . محمد هو الذى يهز
 أوتارها الداخلية المكبوتة ، المشدودة . . عندما تراه فجأة فى الشارع
 تتسمر فى مكانها كالمأخوذة وترتجف بسخونة مسكرة لذيدة . . لكنه هو
 يبتسم ويمر فى هدوء ، كأنه يعرف سرها ولا يبالي . . وهى تشعر فى
 تلك اللحظات أن السور العالى الذى يحصر شبابها لن يثبت طويلاً

ولو جعلت تسنده من الجانب الآخر ألسنة الحارة وكل سلطة التقاليد والأسرة . .

كانت فاطمة وهي مخطوبة لعبد اللطيف تحب « محمداً » . . وكان عبد اللطيف يخضر لزيارتها فتفحصه من رأسه إلى قدميه وأنوثتها تفيض بالاحتقار والتمرد : وبالرغبة في إذلاله وتعذيبه و « تطفيشه » . . إنها لن تكون أبداً زوجة لهذا الرجل ، هذا الوجه الجزيل الذى تغشاه صفرة ، هذا الاسترخاء البليد فى عيني الحشاش المحترقتين دائماً بالدم ، وهذه النظرة المنكسرة . . مستحيل . . هذا النجار الطرى المدمن وارث ورشة المعلم منصور الجوىء لن يكون أبداً حلم العمر الذى كم أرقها فى فراشها ورفع درجة حرارتها ونشر فى بدنها رعدة هناء موعودة . . لا . لا . . لتتر الدنيا كلها مع أمها وخالها ! إنها تريد « محمداً » . الحياة هى أن يكون لها محمد . . الكتفان العريضتان والرجولة الحشنة . . لكنه « ولا كأنه هنا » . . يبتسم — فقط — ويمر بها هادئاً متعالياً !

إن يوميته خمسة وستون قرشاً ، فالعله يبحث عن عروس من بنات الموظفين ! . . هى لا تعجبه . . لقد مربها فى سخرية وكبر وصفق بابها فى وجهها . . كانت فاطمة تمشى فى ذهول والأرغفة مدلاة من يدها وترنحت فى دوار فتلكأت فى خطواتها . . قاس خشن . . رجل أحلامها ! وفيجأة عادت تنسل فى ظلال الجدران ، مندفعة نحو حارة داود . . وفى اندفاع مخبول وجدت نفسها تدق الباب وهى تتلفت حوالىها فى الظلام. الباب الثانى على اليسار . .

وفتح الباب . . ظهر محمد : فتلقت بيدها المنتفض كله وقع نظرتة الظافرة الفاهمة ، ونكست رأسها ودخلت بدون كلمة . . وكانت ترتعد من قدميها إلى رأسها .

بعد ساعة استقبلت الست « بمبة » ابنتها بثورة عنيفة : ولما حلت
إلى أمور تجرى من وراء ظهرها .

ولم تتكلم فاطمة كثيراً بل ألقت الأربعة على المائدة في فتور وقالت
لعمتها زكية إنها لن تتعشى ، ثم دخلت حجرة النوم فلبدت في السرير
ووجهها إلى الحائط . وتظاهرت بالنوم .

وسمعت أمها من الصلاة تكلم عمتها وتهدد باطلاع ابنتها الكبير سيد
سائق التاكسي على لكاعة البنت في الشوارع . . وبعد أن تعشت الست
« بمبة » مع ضيغتها والأولاد الثلاثة الصغار ، وحجزت لسيد الكبير عشاءه
حتى يجده مجهزةً عند عودته كالعادة قرب الفجر ، دخلت بالست زكية
على البنت كى تحاسبها على عملها الجديدة . . الناس أكلوا وجه الست
« بمبة » . . يقولون إن فاطمة لا تحب عبد اللطيف . . إن قلبها مشغول . .
أهذا يليق باست زكية ؟ . . كلمها . . أدخل لها عقلها في رأسها . .
وتقدمت الست زكية فضربت بكفها ردف البنت المذكورة في السرير
وقالت وهي تضحك :

« فزى يا بنت وكلمينى . . بتحجى مين ياسيلة وانى مخطوبة لزينة
شباب الحمة ؟ » وقبل أن ترد فاطمة منفجرة في أمها كانت قد طرقت
باب الشقة يد تعرف فاطمة رنّها على الحشب وتعرف صاحبها . .
وسمعت النسوة الثلاث من حجرة النوم صوت الباب وهو يفتح ، ثم
صوت عبد اللطيف وهو يلاطف الأولاد ويحملهم قراطيس هداياه
وهم يقودونه في سرور إلى حجرة الاستقبال .

بحث الست « بمبة » عن طرحها على الكنبه وهى « تزوم » فى ابنتها
التي هبت جالسة فى غيظ :

— قولى يا بنت الخطيبك . .

— « سم يلفه » !

— بس شاطرة تتلكمى بالليل فى الشوارع . . خطيبك ، قولى له . .

قامت فاطمة وعمتها تربت ظهرها وتتملقها فأدخلت قدميها في
شيشب أخوها العتيق ووضعت حول كتفيها شالا قديماً تدارى به جلاباب
البيت البسيط ، ثم تلمطت متثابرة وسارت نحو حجرة الاستقبال وهي
تتأفف بصوت غير خافت :

— داحنا بقينا نص الليل يا عالم ! . . دى مواعيد حشاشين ! . .
أوف . .

ودخلت عليه وهي تزفر وحاجباها مرفوعان في استغزاز صريح ومرت
نظرها قبل كل شيء على كتفيه المتقاربتين في الجلاباب البلدى الرمادى ..
كل شيء فيه بغيض . . جزمته الصفراء وجوربه المهدل . . شارب
الرفيع المبروم وظهره المنحنى وارتعاش أهدابه . . وفي لحمها ودهنها
تهددت صورة كتفين قويتين كانتا منذ ساعة في يديها !
— أهلا بطاظة !

ومن فورها أدركت أنه مسطول ، فتكلفت الغضب وهي تصفعه
في غلظة متعمدة بعينيها وكلماتها ، فكانت تحيها له :
— ماتبطل الهم ده بقى يا عبد اللطيف قبل الجواز ! .. صحتك عدم ..
حاتجوز راجل عجوز عمره ثلاثين سنة !
ذهل عبد اللطيف ولم يسعفه غير صوت الأم وهي تقتحم الحجرة
وراء ابنتها المجنونة في ذعر وأسف :
— إننى بابنت اتلطشتى فى عقلك ! ! اتفضل ياسى عبد اللطيف
دى أصلها قايمه من النوم تخرف ، بعيد عنك ، أهلا بحبيبي ..
وكان الخطيب مضطرباً وهو يقول لأم الخطيبة :
— يظهر الست الصغيرة ماهش مبسوطه من الزيارة . . أحسن
أستأذن دلوقتى . .

— كنت جاي فى إيه يا ابنى وماشى فى إيه . . إمشى يامقصوفة
الرقبة جهزى الشرابات لسى عبد اللطيف .

وخرجت فاطمة في سرور وهي همس :

— شربات إيه . . . دا عاوز حاجة سخنة تشغل المزاج .

ولم تطل الزيارة التعة . . . جلس عبد اللطيف دقائق مع الست « بمبة » تجرع في آخرها كوباً من الشربات الأحمر ماعت لها نفسه ، ثم أصر على الانصراف .

وغادر البيت بدون أن تظهر له فاطمة . . . كانت في لحظة انصرافه ترغزغ عمتها في وسطها وهي تقول لها في مرح عصبي :

— جوز بني انتي ياعمى . . . انتي عينك كلها نظر . . .

وظلت الست « بمبة » واقفة على رأس السلم وهي تشيع الضيف بأرق ماتعثر عليه من كلمات حتى اختفى في الشارع . . .

وبعد دقيقة واحدة كان أهل الحارة كلهم يستمعون إلى زعيق الست « بمبة » وابنتها وهما تتشاجران بأعلى صوتهما ، فقد فاض بالأم الأسى على ضياع الخطيب ، وفاض بالبنت الفرح الذي جالجل في كيانها منذ الساعة التي عاشتها في أول الليل في حضن محمد .

* * *

قصد عبد اللطيف من فوره ورشة النجارة فوجد والده المعلم منصور على « الدكة » الخشبية التي تنزوى وراء الباب ، وقد خلع جلبابه البلدى واتكأ في عظمة جسمه الضخم المترهل في قفطانه اللماع فشغل أكثر من نصف مساحة الدكة العريضة

وحيا الابن أباه وجلس إلى جانبه مطرقاً في صمت .

قال الوالد :

— الواد « بعضشى » عنده تعميرة كويسة ! !

فلم يرد عبد اللطيف .

— كنت فين ! عند فاطمة ؟

هز عبد اللطيف رأسه بدون أن يخرج من صمته .

ودخل بعضشى ابن صاحب قهوة كنوز الحكمة يحمل فى يده
شيشة فوضعها على الأرض وناول الميسم للمعلم ، ثم مد يده إلى صدره
— فيما وراء جالبا به المفتوح — فخرجت تحمل ورقة بنفسجية مكورة على سر
لا يزيد فى حجمه على ساعة اليد الصغيرة التى كانت أرقامها النسفورية
تبرق فى معصم عبد اللطيف .

وتناول المعلم منصور الجرىء الورقة ففتحها عن سرها فى أناة وحرص ،
وتناول منها ذلك الشئء الصغير فأدناه من أنفه ، واختبره بين أسنانه
قبل أن يرفع بصره إلى الغلام الواقف أمامه ليقول له فى صوت تم
نبراته الحشنة عن السرور والارتياح :
— كويسة صحیح ياواد يا بعضشى .

تبسم الولد وانحنى على الشيشة فرفع جمرات النار عن هامتها المنسقة
ومد يده إلى المعلم بدون أن ينظر فأسقط المعلم فى اليد الممدودة قطعة صغيرة
كان قد اقتطعها بأسنانه وعالجها بين أصابعه . فهياً لها بعضشى مكانها
ورد الجمرات حوالها فى ضربات خفيفة رشيقة بطرف الماشة النحاسية
الصغيرة ، ثم أهاب بالسيد الضخم المتسلطن فوق عرشه الحشى :
— شد يا معلم واتمتع .

نمٹ المعلم الكبير الدخان من فمه وطاقى أنفه فى خيوط ثلاثة ضخمة
وناول الميسم لخليفته .

ونمٹ الولد للخروج بدون أن ينسى أن يؤكد أنه سيعود بين الحين
والحين بجمرات جديدة ، وساد الورشة المظلمة الواسعة صمت طويل
لا تعيش فيه غير حشرجة السعال فى حنجرة المعلم بعد كل نفس يجذبه
من الشيشة . . ومن وراء الأب والابن أخشاب مسندة إلى الجدار ،
وهياكل الكراسى الناعرة فى الظلمة . والابن يتناول الميسم من يد الأب
ويتذوق بدوره بضاعة بعضشى ويثنى عليها .

وفجأة قال عبد اللطيف وخرجت العبارة المعدة مع الدخان في وقت واحد من بين شفتيه :

— أنا عاوز تسامحنى فى فسخ خطبة فاطمة !

سأل المعلم الكبير فى فتور ذاهل :

— ليه ؟ حصل شىء .

— ما احناش لايقين على بعض والسلام . . شايله مناخيرها لفوق

قوى . . تقعد لى ساكتة واللاماسكة رواية كلام فارغ وتسبب الكلام

معايا لأمها . . وطالعة فيها باخوها الواد سيد ومكسبه . . وعمرها

ما ضحكت لى عنها زى ما بتضحك عنين العرايس لخطابها . . قصر

الكلام لا أنا هاضمها ولا هى نازلالى من زور . . مانفعلش لبعض . .

كان يريد أن يشرح إحساسه الحقيقى فلم يجد غير كلمات غامضة

مائعة . . كان يريد أن يعبر عن شعوره الألم بأن خطيبته تزدريه ،

وأنه صار يخشى مواجهتها ، هو الموفق فى رزقه والمرموق من بنات الحى ،

وإن كان لا يقرأ ولا يكتب مثلها . . كان يريد أن يصفعها فى الكلام ،

هنا ، كما صفعته هى هناك منذ لحظات فى بيتها . .

ظل المعلم ساكناً ، فقال عبد اللطيف مرة أخرى .

— سامحنى فى فسخ الخطبة . النهاردة أحسن من بكره .

ووضع قطعة جديدة من الفحم الملتهب فوق هامة الشيشة وجذب

من الميسم أنفاساً قصيرة سريعة ثم قدمه للوالد . . ومع الدخان نادت عن

صدر الوالد تنهدة طويلة . . بليدة . . وسمعه الابن يهمس همساً يتكسر

على شفتيه ويكاد يضيع فى شاربته المنتفش :

— هى زعلتك الليلة ؟

— قالت لى إنها ما تتجوزش راجل عمره ثلاثين سنة وعجوز من

بدرى . . . يخلصك ؟

والمعلم الكبير تأثر عندما سمع هذا الكلام :

— لا يا بنى خلاص . . . النساء على قفنا من يشيل . . . دورلك
على بنت الحلال اللي تعجبك أنت ، وأنا ما على إلا أخطبها لك . .
شد ما تضييعش النفس !

وعاد المعلم منصور الجريء يكرر حكيمته :

— النساء على قفنا من يشيل . . . تعرف الواد بعضشى ده فى الحق
بيجيب اليومين دول أحسن تعميرة فى بر مصر .

* * *

ومرت ساعة قبل أن يتشهد المعلم الكبير ويقول للمعلم الصغير :
— قوم بينا نروح ننام والصباح رباح .

تعاون الأب والابن على وضع العوارض الحديدية فى باب الورشة
وامتحان أقفالها ، ثم انطلقا فى الظلام والغيوبة كعادتهما كل ليلة
إلى البيت .

وأمام حارة داود رفع الأب بصره إلى السماء السوداء ودعاها أن تهدي
عبد اللطيف ابن الحلال إلى بنت الحلال .



فى ربيع سنة ١٩٤٦ ، لكن الجوى فى دار عبد الصمد أبو فرماوى
منعم بالانحصار الكئيب والعزلة ، سقف خفيض وجدران عارية داكنة .
الباب فى الصدر ، عن يمينه زير قديم فوق غطاءه كوز مقابوب ،
وعن يسار الفرن وملايس رثة معالقة بمسار فى الجدار . عبد الصمد ،
بين اليقظة والنوم ، مستلق فى إعياء على حصيرة قريبة من الفرن ،
لا تحركه أصداء المولد فى ساحة القرية القريبة من داره . وعند ركن
الحصيرة قلة من الفخار الأحمر .

عبد الصمد : (يعتدل على صوت طرقات على الباب وهو يدعك
جنيه الأيمن) مين ؟ .. آه يا جنبي .. مين ؟

بركات : (صوت من الخارج) أنا بركات يا عبد الصمد ..
افتح . . .

عبد الصمد : (يضحك من نفسه) الله يلعنك يا ابن الحرام انت
والفص بتاعك . . طيب طيب . . جاي لك يا ابن
مبروكة . . صبرك بالله ركبي سايبه (ينهض بصعوبة
على طرقات أخرى ملحة ، والضحك يغلبه ، وبعد محاولات
مضطربة تزيد من ضحكته على نفسه يتمكن من فتح
الباب ، فتتعالى أصداء المولد) خش يا ابن مبروكة .

(وفى الحال يرتد عبد الصمد ساقطاً على ظهره يدفعه
شوال منتفخ ويدخل بركات الذى يرتدى فوق جلبابه
سترة قديمة من سترات الجنود ، ويأتى بالشوال على

الأرض وهو يلمث . ثم يسرع بإغلاق الباب
فتخنت أصداء المولد .

بركات : الجماعة لسه فى المولد ؟
عبد الصمد : (يتحامل على الشوال حتى يقف مترنحاً) بقی یا ابن
مبروكة أنا مستحمل زقة ؟

بركات : الجماعة فى المولد ؟ كلهم ؟
عبد الصمد : (يدعك جنبه الأيمن) جتك الغم ، الزقة رجعت الوجع
فى جنبى العيان .

بركات : (ما يزال يلمث) انت الى الفص ما خلحك .
عبد الصمد : من ساعة ما ادتهرلى فى العصارى وهو ملقحنى على
الحصيرة .

بركات : لازم بلعته . . أنا قلت لك استحلبه . . أبو جنب اللى
عندك ده هو اللى جاب خبر الحاج حمجازى بعد
ما صرف على الحكماء دم قلبه من غير فايدة . .
وأبو جنب مالوش إلا المدعوق دا يا وله . .
مش قلت لك شغل له القهوة السادة وانت تصهلى .

عبد الصمد : ما عندناش ريحة البن . . وشيلة إيه دى اللى انت
سارح بيها فى قلب الليل ؟

بركات : (يقرفص إلى جانب الشوال وهو يحفف وجهه بطرف
جلايته) ونوسة رخرة معاهم فى المولد ؟

عبد الصمد : (يتعوج على الحصيرة ويسند رأسه إلى الجدار)
وانت دخلك إيه تسأل على نوسة ؟

بركات : باسأل على خطيبى يا جدع . .

عبد الصمد : انت لسه قرئت فتحها ؟

بركات : وانت تطول تبنى عادلى (يربت بيده على الشوال)

آهى حاتفرج وبكره أقرأ فاتحتها .

عبد الصمد : (يدعك جنبه) قات لوهيبة خلى الواد منصور يروح
يتفرج مع خالته نوسة واقعدى انتى معايا ، قالت لى :
أنا وحشنى رقص أبو ريشة . .

بركات : (يداعب الشوال) حاتفرج إن شاء الله . . وزى
ماخذت انت وهيبة وخلفت منها منصور آخذ أنا نوسة
ونخلف صبيان وبنات زى ما أنا عايز يا ابنى . .
مش هو المهر اللى حابس دى ؟ (يطبطب على
الشوال) آهو المهر بيتدبر يا عبد الصمد !

عبد الصمد : انت لاقى تاكل لما عايز تتجوز وتخلف ؟

بركات : لازم أحجز نوسة قبل ما حد يطلع مهرها من جيبه .

عبد الصمد : حاتأكلها منين ؟ من خفة يدك ؟ وإلا من المدعوق اللى
ما حد عارف إن كنت بتتعاظاه وإلا بتبيعه ؟

بركات : آهو بالطش مع الدنيا وتلطش معايا . . حلفتك
بسيدي شهاب الدين وليلته المفترجة لتسكت بى .

عبد الصمد : حتى الشغل فى البنادر خبت فيه يا بركات . . لا نفعت

فى مصر ولا فى السويس . . وآهى الحرب خلصت

بقالها سنة وكل الناس رجعت منها بفلوس إلا انت . . .

مازادش عليك إلا الفشر والحكاوى اللى بتحكيها . .

اللى يسمع كلامك يقول ما خليتش فى البندر راجل

ولا ست ، ولا مصرى ولا انجليزى ، ولا عسكري

ولا حرامى ولا ابن حلال ولا ابن حرام ، إلا لما

كان لك معاه دور . .

بركات : يعنى أنا كنت لقيت شغل عدل ولا اشتغلتش ؟

عبد الصمد : لقيت اللى لقيته ورجعت لنا زى ما انت .

- بركات : ويعني اللي فضلوا هناك عملوا إيه ؟
- عبد الصمد : أقله ما اشتغلوش مع الانجليز يا بركات .
- بركات : يعني كنت عايزني أفضل أنهج من العزق بالفاس
اللي حيلتي في أرض اليه علشان أطلع بتلتميت قرش
في السنة . . . يعني ما حصلتش قرش في اليوم . .
قالوا القرش بيعجرى في إيد اللي يزق عمجله على هناك
ويشتغل معاهم في المعسكرات . . رحت نهجت من
العتل واللفح والإهانة ما طقتش . . هجيت تاني . . هو
أنا حا أعيش العمر كله أنهج ؟
- عبد الصمد : ودخت السبع دونخات على قلة فايدة ورجعت تلطش
برضه .
- بركات : الله بقی يا عبد الصمد يا ابو فرماوى . . انت حاتقلب عليا
المواجه ليه ؟
- عبد الصمد : والشوال ده فيه إيه ياوله ؟
- بركات : (يعوج طاقيته) فيه الليالى الملاح ياوله !
- عبد الصمد : الليالى الملاح ؟
- بركات : فيه نص مهر نوسة ياوله !
- عبد الصمد : رجعت تنط على الزرايب ؟
- بركات : لا . . . دى بضاعة غالية . . . اللي فيه ياوله بورقة
بخمسة . . ورقة من اللي تعالى المقام وتشق الحيط
وتفوت فيه . .
- عبد الصمد : بطل مزع بقی .
- بركات : انت عمرك شفت ورقة بخمسة جنيه ؟
- عبد الصمد : (يتحسس الشوال باحترام) داشىء طرىء ياوله .
- بركات : شيل إيدك . . حاسب على الرزق . . أنا حا أسيبه

عندك قيمة نص ساعة لحمد ما أروح أجيب الدكتور
عمر وآجى . .

- عبد الصمد : الدكتور عمر ؟
بركات : هو اللي حايشتري البضاعة .
عبد الصمد : راخر بيشتري منهوباتاك ؟ الشوال دا فيه إيه ياولة ؟
بركات : فيك من يكتهم السر ؟
عبد الصمد : فيه إيه يا ابن مبروكة الشوال ؟
بركات : اللي فى الشوال ده عباس الصرماتى .
عبد الصمد : (تفيقه دهشة شديدة) عباس الصرماتى ؟
بركات : بعينه العورا .
عبد الصمد : عباس الصرماتى إيه ياواد يا بركات ؟ هه ؟ عباس
مامات امبارح ياولة والبلد جمعت تمن كفننه ودفناه
الصبح وخلصنا منه .
بركات : دفناه الصبح وطلعته أنا تانى بالليل . . . ما تفهمنى
بقى . .
عبد الصمد : طلعتة ؟
بركات : آى طلعتة . . الدكتور عمر عايزه .
عبد الصمد : (ينتفض من الرعب وهو ينقل بصره بين الشوال
وبركات) طلعتة وجاييه لى هنا يا ابن مبروكة ؟
بركات : جتلك الغم فى قلة مروتك . . . ياواد مسافة ما أروح
أجيب له الدكتور !
عبد الصمد : (يمسك بجلاية بركات وهو فى فزع شديد) تجيب له
الدكتور ؟ . .
بقى بعدما جابو له التسريح . . وغسلوه وكفنوه . .

وقروا على روحه الفاتحة ودفنوه : تجيب له انت
الدكتور ؟ ليه بتي ؟ يدي له حمنة ؟

بركات : ما تفوق آمال وتفهمنى : أنا ورايا أشغال .
عبد الصمد : عباس الصرماتى ؟ هنا فى الشوال . . افتح الشوال ده .
بركات : اتلهى ما انتش حمل بصة .

عبد الصمد : بتي فتحت طربة الأعور وجبت البحة فى الشوال
ولفعتها على كتفك زى زكية القمح ، وحاجيب لها
الدكتور كمان ؟ ... ورينى اللي فى الشوال يا ضاللى .
بركات : (يتهد ويفك الحبل الملتف حول قمة الشوال ويوارب
فوهته قليلا بين يديه) بص يا بنى آدم . . الأعور
والا مش الأعور ؟

(عبد الصمد يلقى نظرة ثم يسنده بركات قبل أن يقع
من طوله) .

بركات : صدقت يا بنى آدم ؟

عبد الصمد : (ينهار إلى الأرض) خده واطلع بره . . خده واطلع بره
دا كان منجس الدنيا وهو عايش . . ياما راح بتفيدة
يا ما رجع بنظيرة ، ماطالش ينجس دارى وهو عايش
جايه انت ينجسها وهو ميت ؟ !

بركات : ماتعقل آمال جاك خابط .

عبد الصمد : فتحت الطربة على الميت ؟

بركات : يعنى فتحت سراية الحكومة يا خي !

عبد الصمد : وما خفتش ؟

بركات : خفت . . إنما جبته .

عبد الصمد : والدكتور عمر ابن الحاج نعمان بيشتري الميتين ؟

بركات : يلزمه تمرين على الأموات . .

عبد الصمد : يعنى من كتر ما هو فالج ؟ آهم كل ولاد الحاج
نعمان فلدحو ما عدا عمر صاحبك . . كل سنة يسقط
وعمره ما حيبقى دكتور .

بركات : الدكتور عمر دا زين شباب البلد يا جدد .
عبد الصمد : ما كانش الحاج نعمان كل ساعة يشتكى منه .
بركات : كان قعد سايرك الحاج نعمان واشتكى لك من
ابنه يا عبد الصمد يا بوا فرماوى ؟

عبد الصمد : آهى الناس كلها عارفة . . فى مصر يسبب المدرسة
بتاعة الضب ويمشى فى المظاهرات وينحشر فى اللى
مالوش فيه . . وكل يوم والتانى إنذار لا بوه لما الراجل
يا ولداه عي بقلبه واحتار فيه الأطباء . .
بركات : إشن فهمك انت فى اللى بيعمله الدكتور عمر فى
مصر ؟

عبد الصمد : آهم يقولوا الباشا اللى اسمه النقراشى ، ديك اليوم قلبه
من ع الكوبرى كان حايجيب داغه .
بركات : (يضحك) اسكت اسكت بلاش أمور جهل .

عبد الصمد : الكلام دا أنا سامعه من عبد المتجلى أفندى وهو قاعد
يحكى الحكاية على مصطبة الشيخ كامل . . والتانى اللى
جه بعد النقراشى راخر قارش ماحة عمر ابن الحاج
نعمان . . الباشا اللى اسمه سدى ده . . الواد ده
حاضيع نفسه بأقول لك . . إخوانه التانيين ما هم
مهديين يا أنخى وفاتحين نفس أبوهم . . اللى موظف
واللى تلميذ . . اشمعنى هو اللى فهم فى السياسة
أوى . . هو أبوه قلبه وجعه إلا منه . . ياراجل . .
بركات : انت لا تعرف عمر ده يبقى إيه ولا إيه اللى جارى فى

مصر . أنا الى أعرف . . أنا الى شفت . .
 حذفتى الدنيا فى زنقة من زنقاتى على بيته فى شارع
 القصر العينى . . لبدت عنده كام شهر . . خدمته
 هو ورققاته . . تلامذة إنما الواحد منهم بألف راجل . .
 سمعت كلامهم وعانيت أفعالهم . . لا يهمهم صدق
 ولا سليم زكى . . ولا ميت ألف جوفى . . ساعة ما يملوا
 الشارع يرجو الأرض (يرفع صوته مشوحاً بيده) :
 لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . . الجلاء بالدماء . .
 تسقط معاهدة ستة وثلاثين . . كنت معاهم يوم
 كوبرى عباس . . وشفيتهم لما هجموا على عسكر
 الإنجليز فى ميدان قصر النيل كما الأسود . . بعينى دى
 شفت عمر . . الى مش عاجبك . . وهو يضرب جاسوس
 من جواسيس الحكمدار وقع فى إيد التلامذة قبل
 ما يفتحوا عليهم الكوبرى . . عمر دا كبير يا عبد الصمد
 كبير أوى ، بس انت الى مدفون هنا فى قبرك
 ولا دارى . .

- عبد الصمد : جاسوس ؟ !
 بركات : بصاص خياص ، وبقرشين بيع ولاد بلده .
 عبد الصمد : عمر ضربه ؟
 بركات : شرحه !
 عبد الصمد : ولا خافش ؟
 بركات : هى الأسود بتخاف يا بوفرماوى ؟
 عبد الصمد : وبعدين ؟
 بركات : (يتهدد) - وبعدين سبتهم فى مصر بيرجوا الأرض
 ويفوزوا آدم الحكومة وحكمدارها ، وحذفتى الدنيا

- هنا تانى ، وزاملت ديب القرافة !
- عبد الصمد : إنت نهايتك حاتكون إن شاء الله على المشنقة . . .
ابقي شوف !
- بركات : (يشير إلى الشوال) مشنقة ليه هو أنا اللي موته ؟
- عبد الصمد : يعنى لو كان حد شافك وانت جايه أروح معاك
فى داهية !
- بركات : مين اللي يشوفنى ؟ الناس ملهية فى فتة المولد . . .
ومن ساعة الدكتور ما يدفع ويشيل إحنا خالين
المسؤولية والميت ده ما نعرفوش .
- عبد الصمد : خد الميت بتاعك يا بركات يا بن مبروكة وغوروا
افتوا الاتنين من وشى خلى الليلة تقوت على خير .
- بركات : دول خمسة جنيه ياوله . . . جنيه ينطح جنيه . . . ينطحه
من غير ما يعوره . . . يسمى عليه قبل ما ينطحه . . .
جتك الغم وش فقر . . .
- عبد الصمد : دارى ماهش دكان أموات يا بركات .
- بركات : دا نص مهر نوسة يامغفل !
- عبد الصمد : نوسة لو عرفت تفقع بالصوت فى وشك .
- بركات : وأشيلها من دارك وأوفر عليك لقمتها وأفرش مندبلى
على الزملة .
- عبد الصمد : آدى اللي كان ناقص . . . تلم مهرك من الجبانة . . .
- بركات : (ينهض بكبرياء) وماله ياوله ؟ وإذا كانوا رفقات
الدكتور عمر فى المدرسة بتاعة الطب يلزمهم رخرين
ميتين إحنا مستعدين نورد لهم طلباتهم . . . إحنا حانغلب
فى إيه ؟ . . . أفحت وأطالع ، وادفع وشيل . . . والأعور
بسعر المفتح . . . والجنيه برضه اسمه الجنيه . . .

- عبد الصمد : والله انت عيشتك تغم .
 بركات : يعنى اشمعنى دى اللى تغم ماهى العيشة كلها غم فى غم
 أروح بى أجيب الزبون !
 (يجمدان على صوت طرقات مفاجئة على الباب)
 عبد الصمد : (يستبد به فزع مخبول) ضيعتنى يا ابن مبروكة ؟
 بركات : انكتم لما نشوف إيه العبارة (يرفع صوته متأسكاً)
 مين اللى بيخبط ؟
 نوسة : (صوت من الخارج) هو أنت هنا يا بركات ؟
 بركات : (يطرقع بأصابعه راقصاً) دى نوسة يا وله ! دى نوسة
 يا وله ! دى نوسة يا وله !
 (بركات يوارب الباب فتدخل مع نوسة دفقة من صهالة
 المولد ، ويرد الباب) .
 نوسة : سانشير عليكم .
 عبد الصمد : (يلمح نظرتها المبتسمة لبركات) إش رجعلك مبدرة ؟
 نوسة : ادلعدى منصور ابنك ياخويا . . الدنيا نسمت
 ووهيبة حكمت رأيها إلا آجى آخذ له الحرام بتاعك . .
 عبد الصمد : (يسارع بترع الحرام من تحت الخدمة المعالقة على مسمار
 الجدار ويمد يده) يلا مع السلامة لا الواد تستلمه
 السعاة .
 بركات : ديهلى . . ماتطول بالك أمال يا جدد على ماتاخذ
 نفسها .
 عبد الصمد : (يشير بحركة مبهمه فى اتجاه الشوال) ما احنا عايزين
 كل حى ياخذ نفسه !
 نوسة : ياخى قول بس أبل ريتى من مية الزير السقعة .
 عبد الصمد : (يقتفز ليقف أمام الشوال بينها وبين الزير) هات

- يا بركات القلة .
- نوسة : اشمعي القلة يا عبد الصمد ؟
- بركات : (يحضر لها القلة) ماتدقيش يا نوسة .
- نوسة : ومية الزير مالها يا عبد الصمد ؟
- عبد الصمد : بعد ما خرجتو جالها سخونة !
- نوسة : (تضحك وهي تتناول من بركات القلة) ماتبقاش تتقل عليه كده يا بركات .
- بركات : (يأخذ منها القلة بعد ما تروى ظمأها) دانا باعالج له جنبه . . . هنيا .
- نوسة : الله يهنيك وينولك اللي في بالك يا بركات .
- عبد الصمد : (يشير لبركات . في اتجاه الشوال فيمز بركات رأسه ، ويدفع عبد الصمد نوسة برفق نحو الباب) لفوا الواد كويس .
- نوسة : ما تسيب عبد الصمد ينام شوية يا بركات وتيجي تتفرج على أبو ريشة وعمايله . .
- بركات : يعني عامل السنة دى اللي ما بيعملوش في كل مولد ؟
- نوسة : إلا السنة دى يا بركات .
- بركات : هيه ؟
- نوسة : تقولش وسطه مخاوع في الرقص .
- بركات : والنبي إيه ؟
- نوسة : عليه رقص السنة يا أولاد !
- بركات : طيب ما تتعلمي لك منه حاجة تنفعك في المستقبل !
- عبد الصمد : (يعجز عن الاحتمال) يا جدعان . . يا أمة المسلمين دا وقته !
- نوسة : ياللا معايا يا بركات . . الراجل هريدى أبو مسلم

شيخ الغفر قاطع سكتي ما أعرفش ليه وكل ما يشوفني
يحذف عليا كلام . .

بركات : (في اهتمام) قاطع عليكى ؟ وعائز إيه منك هريدى
أبو مسلم ؟

نوسة : أنا ياخويا عارفه . . دور يجيب لى سيرة البيه . .
ودور يقول لى سراية البيه هى اللي حاكمة العب كله
مش دوار العمدة . . أقول له أmaal العمدة بيتقى إيه
يقول لى رئيس وزارة . . قلت له أmaal إنت صفتك إيه
بقي قال أنا اللوا هريدى أبو مسلم . . لوا يعنى إيه
يابركات ؟

بركات : كبير الأمن . . زى واحد فى مصر اسمه اللوا سليم زكى .
بس اللي أعرفه إن شغلة اللوا ماهش كده أبدا . .
هو بيلبس الرجال طرحة مش يفك طرحة النسوان !

نوسة : دى كانت شغلة عباس الصرمانى !

عبد الصمد : أيوه والنبي ياخنى تفكيريه بعباس الصرمانى !

بركات : أنا جاي معاكى .

عبد الصمد : رايح فين ؟

بركات : رايح أربى هريدى أبو مسلم وأوقفه عند حده . .

عبد الصمد : والورقة أم خمسة جنيه نازلين نطح فى بعض من غير ما

الواحد منهم يعوز أخوه ! تسيبها لمين ؟

نوسة : إيه دا اللي بتقوله يا عبد الصمد ؟

بركات : دا كلام رجالة مال كيش حشرة فيه .

نوسة : يعنى ما انتش جاي معايا ؟

بركات : روحى اننى وأنا أحصلك .

(بحركة آسفة يوارب بركات الباب ، لكن نوسة فى

- طريقتها إلى الخروج تلمح الشوال) .
- نوسة : الله إيه الشوال ده يا عبد الصمد ؟
- عبد الصمد : (ينظر نحو الشوال) الشوال ؟
- (نوسة تعود خطوات في اتجاه الشوال : فيقفل بركات الباب ، وتتلاشى أصداء المولد) .
- نوسة : فيه إيه الشوال ده يا بركات ؟
- بركات : دول شوية درة يابت . . من عزبة البيه . .
- نوسة : مش حلفت لى انك حاتبطل النطفي الزرايب والغيطان ؟
- بركات : ما هي دي آخر نوبة يا نوسة !
- نوسة : يا بركات أنا حلفت لأمك الليلة في مقام سيدي شهاب الدين إني أعقلك وأتوبك ونقسم لقمطنا الحلال على ثلاثة . .
- بركات : لقمة الحلال ضيقة يا أعز من عيني .
- نوسة : ما أنا كمان حاشغل وأجيب فلوس إنشا الله ألف على الدور أملا مية وأجيب م السوق وأطحن وأعجن وأخبز وأغسل (تلتفت إلى عبد الصمد) وانت يا عبد الصمد بقي مشاركه إنشا الله النوبة ؟
- عبد الصمد : ربنا هو اللي عالم . .
- (يفتح لها الباب ويغلقه بسرعة بمجرد خروجها)
- بركات : جت سليمة !
- عبد الصمد : ليلتك سودا وماهش فايتة على خير .
- بركات : شد حيلك أmaal ، دي أصلها ليلة مفترجة .
- عبد الصمد : ياسيدي شهاب الدين اقصف لى عمر ابن مبروكة وريحني .
- بركات : أنا حاش أخطف رجلى بقي أجيب الدكتور عمر يشيله

ونخلص منه .

- عبد الصمد : وأنا ما أقعدش مع الميت لوحدى .
 بركات : هو حايقوم بمسك فى خناقك ؟
 عبد الصمد : ياواد يا ابن مبروكة الأموات لما حرمة .
 بركات : مش أحسن ما يا كلهم الدود - وإلا يفحت عليهم
 ديب القرافة ؟ . .

وهم يعنى حاسين بحاجة من دى ؟ دول فى ملك تانى
 ياجدع انت . . نايمين على زهرهم وكل واحد حاطط
 رجل على رجل ولا سائل فى العيشة واللى عايشينها . .

- عبد الصمد : (بعد سكتة ذاهلة) طيب يا بركات قوم هات الدكتور
 عمر ياخذ الميت بتاعه قبل الفجر ما يفضحنا والبلد
 تزفنا احنا والأعور للنيابة على صاحبات أبوريشة . .

- بركات : (يخف للخروج منتعشاً) تحيا المجدة .
 عبد الصمد : جتنى الغم صحىح اللى عرفتك وصاحبتك .
 بركات : (عند البواب الموارب) أوعى له !
 عبد الصمد : (يقفل الباب بسرعة ، وينكمش على الحصيرة)
 ياسايل السر على عبيدك جمد قلبى . . آمين يارب
 العالمين . . مدد يا أهل الله . . مدد ياسيدى شهاب
 الدين . . مدد يا أبو الكرامات . . يا بوريشة مدد . .
 ياندهة المنضام يا بوريشة ، يا بوريشة ياسند المنضام . .
 والسعد فى ركابك خدام . .

(يستلقى على الحصيرة لحظة بين اليقظة والغيوبة ،
 بين الحقيقة والحلم ، فيدهمه كابوس، نسمع فيه معه
 رنات عالية لصاحبات رقص تدوى فى داره - من كل
 ناحية مرة - ويشب واقفاً وهو يرتعد من الخوف) .

(تضطرب حركاته وتلغثاته المحبولة مع رنات الصاجات التي تأتيه المرة بعد المرة من هنا ومن هناك) .

أبو ريشة يظهر ظهوراً فجائياً (شأن تهاويل الكوايس) وقد علق في كتفه بندقيّة من بنادق الخفراء ، وفي يده صاجات رقص . وهو مجذوب بالاحية ، متوقد الشخصية ذكي العينين ، وفي حزامه مجموعة مجلات وصحف قديمة معلقة بفتلة ، وفي ركن عمامته طرف قلم بارز مديد الطول .

عبد الصمد : كراماتك يا أبو ريشة . . ياندهة المنضام ، يا بو قلم سيد الأقلام .

أبو ريشة : (ينتقل بخفة ويطوف بالدار على إيقاع الصاجات في حركات ذكر راقصة) مدد مدد عبد الصمد . . مدد مدد عبد الصمد . . مدد مدد عبد الصمد . .

عبد الصمد : (يعبر عن سعادته بالمعجزة بهتاف عصبى) خدامك ومحسوب كراماتك عبد الصمد أبو فرماوى .

أبو ريشة : أبو ريشة له أحباب ، يسعدها بالنغم ، أما اللي حظه خاب ، ياويله م الألم ، تفتتح الأبواب ، بالريشة والقلم ، والكل يبقوا أحباب ، الديب والغنم !

عبد الصمد : (يهتف) والله يادار عبد الصمد نلتها من غير ما تطلبها . .

أبو ريشة : جيتلك وبابك مقفول . . ومخلك مسطول . . جيت لك ما بين يديك وعينيك . . وقلبي غضبان عليك . .

عبد الصمد : دنا غلبان . وعيان . ومطحون . وكل منهو بيفعص فيا شوية .

أبو ريشة : لكن نفسك كبيرة يامفعوص .

- عبد الصمد : أنا واقع في عرض الريشة والقلم .
 أبو ريشة : إزاي تاخذ من بركات الفص ، من غير ماتقسمه
 معايا بالنص ؟
 عبد الصمد : والله ما حاشني عنك غير أبو جنب . . ساحني أبوس
 إيدك .
 أبو ريشة : لوجتني كنت شفيتك وعفيتك : ورجعتك مبسوط
 لبيتك .
 عبد الصمد : أدى احنا فيها .
 أبو ريشة : (يعاود الحركة الراقصة ، فيقلده عبد الصمد) :
 لف معايا لف . .
 لف معايا لف . . .
 لف معايا لف . . .
 (يتوقف أبو ريشة فجأة عن الرقص ، ويستمر
 عبد الصمد فترة قصيرة يتطوح وحده) .
 أبو ريشة : أنا اللي ماسك عنك العمدة والغفير وحايش عنك
 بلاوى كثير .
 عبد الصمد : مدد يامسكت الحكام . ياندهة المنضام . يامفسر
 الأحلام ياحامل الأقلام . يا بو الصاجات بترن ،
 بترن ، بترن . . .
 أبو ريشة : (يتناول البندقية ويرفعها في يديه) بص . . جودة الغفير
 : إدانى بندقيته . . سلمنى سلاحه ونام . . والعمدة
 باس إيدى . . . وشيخ الغفر اللي راعب البلد يشوفنى
 يضرب تعظيم سلام . . واليه الكبير كل ما أقصده
 يفتح درجه الكبير ويبسطنى . . امسك البندقية .
 عبد الصمد : عمرى ما مسكت سلاح .

- أبو ريشة : امسك البندقية !
 عبد الصمد : لما بالمس سلاح إيدى بتترعش .
 أبو ريشة : امسك البندقية (ويشرع فى الرقص ضاربا بالصاجات
 بمجرد انتقال البندقية إلى يدى عبد الصمد الخائف) :
 العمدة فى إيدى والكل عبيدى .
 عبد الصمد : (يرفع البندقية عالية بين يديه ويدخل فى الرقص) :
 العمدة فى إيدى ، والكل عبيده .
 أبو ريشة : العمدة فى إيدى ، والكل عبيدى .
 عبد الصمد : العمدة فى إيدى ، والكل عبيده .
 أبو ريشة : اللى تحت ساكتين . .
 واللى فوق مبسوطين . .
 دعواتى مطمئناهم !
 نغماتى منياهم !
 صاجاتى مرقصاهم !
 عبد الصمد : مدد يا أبو القلم مترين . .
 أبو ريشة : (بعد كل جملة دقة واحدة بالصاجات) :
 مطمئناهم بدعواتى !
 منيهم بنغماتى !
 مرقصهم بصاجاتى !
 عبد الصمد : وأنا والله لولا وجع جنبي لأرقص معاك للصبح . . لو
 عندى صحة وفوقان لأرقص وأضحك وأحب الدنيا . .
 أنا ما أقدرش أضحك . . ما أقدرش أرقص . . لكن
 برضه ما أقدرش على زعلك ياسيدنا . .
 أبو ريشة : (فى طرب وانسجام ، يعاود الحركة الراقصة) :
 لف معايا لف . . .

لف معايا لف . .

لف معايا لف . .

يدوخ عبد الصمد في الرقصة ويقع في نهايتها على
الخصيرة . ويختفي أبو ريشة كما ظهر .

عبد الصمد : (يفتيق فلا يجد عنده بندقية ولا مجذوباً) بسم الله الرحمن
الرحيم . . بسم الله الرحمن الرحيم . . السماح يا أهل
السماح . . الرضا يا أهل الرضا . . جه منين ؟
راح منين ؟ . . حلم وإلا علم ؟ علم وإلا حلم ؟
يتكرم على الخصيرة ، ثم فجأة ينبعث واقفناً على طرقات
جديدة على الباب .

جودة : (صوت من الخارج) افتح يا عبد الصمد يا أبو
فرماوى .

عبد الصمد : ياترى مين ؟ ياترى حلم ؟ ياترى علم ؟ ياترى إيه ؟
ياترى ليه ؟ ياترى مين ؟

جودة : (صوت من الخارج) افتح يا عبد الصمد يا أبو
فرماوى .

عبد الصمد : (يدور في البيت في لوثة) ليلتك سودة يا عبد الصمد
يا أبو فرماوى . . مد إيدك للكلبشات يا عبد الصمد
يا أبو فرماوى . . جت لك الحكومة يا عبد الصمد
يا أبو فرماوى . . حكمت المحكمة يا عبد الصمد
يا أبو فرماوى . .

صوت جودة : أنا جودة الغفير .

عبد الصمد : (ياطم وجهه في رعب) جودة جالك جودة . . جودة
جالك جودة . . ووراه إنشا الله العمدة والنيابة ونفسك
في إيه يا عبد الصمد يا أبو فرماوى . .

يستسلم ويفتح فتتعالى أصوات المولد ، ويمسح الطريق
في خوف ليدخل الغدير وبندقيته معلقة بكتفه ،
ويرد الباب . .

جودة : مالك يا عبد الصمد ؟ بترعرش كده ليه .
عبد الصمد : هو كده أبو جنب ، لما يستلمني يرعشني ويرعش أبويا .
جودة : سلامتك يا بو فرماوى .
عبد الصمد : تسلم وتبرق عن قريب بإذن واحد أحد شيخ غفر .
جودة : بيقولوا المشيخة ما طلعتش من عيلة أبو مسلم من أيام
سيدنا نوح .

عبد الصمد : بس انت تزيناها عن هريدى أبو مسلم .
جودة : عايز الحق ؟ . . لأ . . أنا أحب النوم وهو صاحي . .
مفتح ومفنجل . . حتى لو خطف له تعسيلة بينام زى
الديب . . عين مغمضة وعين مفتحة . . ومسنود
من فوق ياجدع . .

عبد الصمد : ربنا يكفيننا شر الجميع .
جودة : (يتجه نحو الزير فيقفز عبد الصمد أمام الشوال)
لحمة سيدى شهاب الدين بتعطش .

عبد الصمد : الكوز مش نضيف . . عندك القلة مينها عجب . .
قربع وانبسط وارجع زى الصقر لزمام الناحية !
(ما إن يفرغ جودة القلة فى حلقه حتى يسرع
عبد الصمد نحو الباب) . .

جودة : (بتلكأ) سمعت حكاية الواد صابر أبو خضرة ؟
عبد الصمد : (يمسك فجأة بالبندقية ويفحصها) بدمتك يا جودة
ما غفلت الليلة ولا رمشك اللي فوق لمس رمشك اللي
تحت ؟

- جودة : ما حصلش .
- عبد الصمد : حشدش لعب في بندقيتك ؟ تكونش سلمت سلاحك
لحد ولا انتش فاكر ؟
- جودة : لا شوف بقى ! . . تبقي لما تأخذ فص من الواد بركات
نقسمه سوا . . علشان ما تخرفش .
- عبد الصمد : شفت حد دخل عندى الليلة ؟
- جودة : لا . .
- عبد الصمد : وما سبتش الدرك ولا دقيقة ؟
- جودة : مسافة ماخطفت رجلى لحد دار الحاج نعمان خدت
منابى من اللحمه ورجعت . بتسأل ليه ؟
- عبد الصمد : (يوارب الباب) مع السلامة يا جودة .
- جودة : بقى ماعرفتش حكاية الواد صابر أبو خضرة ؟
- عبد الصمد : تصبح على خير يا جودة .
- جودة : ليه وليه يقول لامراتى ما تروحش تخبز آل فطير فى
سراية البيه . . العمدة بعث شيخ الغفر يجيب
صابر . . مرات صابر فقعت فى وشه بالصوت . .
ياناس ماهش عايز حريمه يخبز لحد غيره ! !
- عبد الصمد : الدرك فاضى يا جودة !
- يخرج جودة ويقفل عبد الصمد الباب ويتكوم على
الخصيرة ، ويهمد لحظة . ثم يشهق فجأة من
الرعب وهو يعتدل على ركبتيه .
- (الكابوس الثانى)
- عبد الصمد : الشوال . . الشوال . . الشوال يلعب . . (الحركة
تزداد فى الشوال ، فياظم فخذه بكفيه) حوستك
يا عبد الصمد . . الشوال يلعب . . (فوهة الشوال يسقط

عنها الرباط : وتبدأ رأس عباس الصرماتى فى الظهور
الحقنى يا جودة . . مدد يا ابو ريشة . . أى واحد فيكم
ياحقنى . . الحقنى يا شيخ الغفر يا بوعين مفتحة وعين
مغمضة . . ماهو اللى طالع لى راخر عين مغمضة
وعين مفتحة (يبدأ الصرماتى فى الخروج من الشوال)
أنا فى جاهلك ياسيدى شهاب الدين . . أنا فى عرضك
ياسيدى عباس يا صرماتى .

عباس : (يتمشى فى البيت بعينه العوراء وفى يده مخرازه الطويل
مترنماً بنفس نغمة « لف معايا لف » :

عد معايا عد . . .

عد معايا عد . . .

عد معايا عد

عبد الصمد : أعد إيه . . ؟ إيه اللى هنا أعده ؟

عباس : الصرم القديمة .

عبد الصمد : نعم ؟ !

عباس : عد الصرم القديمة .

عبد الصمد : لا مؤاخذه . . أنا افتكرت اللى حاتقول لى عدهم

نسوان !

عباس : (يقرب مخرازه من عين عبد الصمد) عد الصرم
القديمة .

عبد الصمد : أنا خدام الصرم القديمة . .

عباس : قدامك أهيه . . آدى كوم . . وآدى كوم . .

وآدى كوم . .

عبد الصمد : حاضر .

عباس : عد الكوم ده الأول .

- عبد الصمد : حاضر .
- عباس : واعمل لك همة .
- عبد الصمد : حاضر حاضر . حاجة حاجة يامؤمن . . داشيء كثير ماله عدد ! !
- عباس : ودول سايبهم ليه ؟
- عبد الصمد : أنا أصلى واخذهم بالدور كوم ورا كوم .
- عباس : ودول فيهم فردة لوحدها ليه ؟
- عبد الصمد : على الحرام من وهمية ما شفها .
- عباس : انت حرامى . . سرقت فردة !
- عبد الصمد : أعمل بها إيه ؟ دانا طول عمرى حافى !
- عباس : فين الفردة الناقصة يا حرامى ؟
- عبد الصمد : طول بالك دلوقت تلاقىها . . المال الحلال ما يضعش .
- عباس : دى الصرم اللي رقعها فى خمسين سنة . .
- عبد الصمد : ربنا يزيد ويبارك !
- عباس : بتقول طول عمرك حافى ؟
- عبد الصمد : وكعابى مشققة .
- عباس : يعنى عمرك ما نفعتنى ؟ بيتى كفاية عليك عين واحدة (عبد الصمد يصرخ عندما يقترب المخراز من عينه ، فتظهر صرخته الدكتور عمر وكأن الأرض انشقت عنه هو الآخر ، ووجهه مبتسم ، وهو فى معطف ناصع البياض . .)
- عمر : مالك يا عبد الصمد ؟
- عبد الصمد : عباس الصرماتى عايز يعورنى .
- عمر : عباس ؟ هو فين ؟ دانا عايزه . .
- دانا بادور عليه . .

- عبد الصمد : أهه . أهه .
- عمر : دانا محتاجه . . دانا مشترية . . دانا بيني وبينه تار . .
- عبد الصمد : استلمه . . أهه . . شيل الله يبارك لك .
- عمر : تعال يا عباس .
- عباس : لما أشوف الفردة الناقصة راحت فين .
- عمر : تعال يا جاسوس . . تعال لى فوق الكوبرى . .
- عباس : كوبرى ؟ كوبرى إيه . . أنا مش بتاع كوبرى . .
- أنا بتاع الصرم القديمة .
- عمر : دانا مشتاق لك يا بتاع الكوبرى !
- (يخرج من جيب المعطف ساطوراً كبير الحجم)
أنا تارى بايت
- عبد الصمد : يجعله مبروك عليك !
- عمر : ناقصنى تمرين كثير .
- عبد الصمد : شيل واتمرن وانبسط ، ربنا يحظاك !
- عباس : عايز منى إيه ؟
- عمر : أرد لك جميلك .
- عباس : أنا ما أعرفكش .
- عمر : إزاي ؟ دا حنا اتقابلنا كثير قبل كده . . وأنا عارفك
- وانت عارفنى . . أفكرك ؟ . . فاكر البيه والعمدة
- وشيوخ الغفر بتوعك عملوا فينا إيه على الكوبرى ؟
- بوم بوم بوم . . فاكر كوبرى عباس ؟
- عباس : اللى عمرى ما شमित عليه نسمة .
- عمر : أنا شमित نسمة . . بوم بوم بوم . . لا مفاوضة إلا
- بعد الجلاء . . الجلاء بالدماء . . مش هو اللوا هر يدى
- أبو مسلم بتاعك اللى بوم بوم بوم . . تعال تعال . .

أنا لازم أتمرن للجايبات اللى أكثر من الراحات .
 عبد الصمد : (بينما يختفى عمر وعباس يرمى على الحصيرة) لف
 معاهم لف . . عد معاهم عد . . دوخ معاهم دوخ . .
 عمر : (يعود إلى الظهور وحده بسرعة خارقة والساطور
 فى يده ملوث بالدم وعلى معطفه يقع دموية كبيرة)
 خلاص يا عبد الصمد . . خلاص . . ريمحك
 منه .

عبد الصمد : ربنا يريح قلبك .
 عمر : وأنا كمان ارتحت .
 عبد الصمد : أتمرت ؟
 عمر : شرحته . . وفتحت دماغه وقريت اللى فى مخه . .
 إصحى بى وفوق وفرفش واضحك وارقص .
 (يختفى ، ويهمد عبد الصمد فوق الحصيرة ، ويعلمون
 الخارج نباح كلاب تخرسه صيحة عالية من صيحات
 الحفراء) .

عبد الصمد : (يتقلب ثم يفرك عينيه ويجلس ، ويجد الشوال على
 حالته التى تركه عليها بركات) وبعدين فى الليلة
 اللى مش فايتة دى ؟ . . جم منين ؟ . . راحو فين ؟
 يكونش القمص بتاع ابن مبروكه لحس عقلى ؟ . .
 أكونش اتجننت . . آدى القرن . . وآدى القلة . .
 وآدى الزير وآدى غطاه . .
 (فجأة تشتد على بابه طرقات تدفعه فى هذه المرة إلى
 حالة من اللامبالاة) والله ما قادر أقوم بى من مطرعى . .
 اللى قادر ينخش من الحيط زى اللى دخلوا يتفضل واللى
 مش قادر يرجع !

- بركات : (صوت من الخارج) افتح يا عبد الصمد .
 عبد الصمد : مين النبوة دي ؟ إنس وإلا جن ؟
 صوت بركات : أنا بركات يا عبد الصمد .
 عبد الصمد : احلف انك بركات .
 صوت بركات : والله العظيم بركات .
 عبد الصمد : طيب جلدك اسمه إيه ؟
 صوت بركات : عبد الغنى أبو كمبورة .
 عبد الصمد : وأملك ؟
 صوت بركات : مبروكة . . . افتح بقى .
 عبد الصمد : (يحبو من الحصيرة إلى الباب ويفتحه على حذر ،
 فينقض منه بركات ويغلقه بسرعة دون أن يصحب
 دخوله في هذه المرة أى صدى للمولد) ما كان لسه
 يدري
- بركات : (زائغ العينين مضطرب الحركة) اسكت يا عبد الصمد
 بختى الليلة مهيب مش عارف ليه . . .
 عبد الصمد : وأنا اللي جرى لى الليلة بسببك ماينحكيش . . . فين
 الدكتور عمر ؟
- بركات : (يقرفص عند الشوال) الدكتور عمر راح طنطا .
 عبد الصمد : طنطا ؟ يعنى ماهش جاى يشيل الشوال ؟
 بركات : لا ماهش جاى . . . الحاج نعمان جت له نوبة القلب
 على غفلة والمولد برد . . . والناس نازل عليها منهم الله . . .
 بختى الحلو . . . !
 عبد الصمد : ياليلة مش فايقة . . .
 بركات : الحاج نعمان فى حالة الخطر .
 عبد الصمد : واحنا اللي مش فى حالة خطر ؟

- بركات : الدكتور عمر قام على طنطا بالعربية علشان يجيب
الدكتور فتح الله بتاع القلب . . حايضى لنا بتي
والا يشوف أبوه . . دبرنى يا عبد الصمد .
- عبد الصمد : شوف أما أقولك بتي . . شيل وارحل . . تبعه تحرقه
خلصنى منه والسلام . . انت سامع ؟
- بركات : حا أشيل يا عبد الصمد يا خويا . . حا أرجعه . .
عبد الصمد : ترجعه ؟
- بركات : أنا قدامى غير كده ؟
- عبد الصمد : ترجعه فين ؟
- بركات : مطرح ما طلع . . هو مش له طربة ؟
- عبد الصمد : وحياة منصور ابني ديب القرافة عنده دم عنك .
- بركات : مافيش نصيب . . ناولى شوية مية أبل ريتي .
- عبد الصمد : رجعت الميه من زورك .
- بركات : حا أشيله . . طمن قلبك . . حانشيله يا أعز الحبايب
سوا بإذن واحد أحد .
- عبد الصمد : سوا ؟ أنا ياوله ؟
- بركات : أمال يطلع عليه النهار عندك نروح احنا الاتنين
في داهية ؟
- عبد الصمد : أنا مالى وماله يا جدع ؟ أنا بابيع ميتين والا لى بهم أى
اتصال ياوله ؟
- بركات : احنا دلوقت رقبتنا فى حبل واحد .
- عبد الصمد : أبوه . . لف ياخويا الحبل على رقبتي انت راخر لف . .
لف . .
- بركات : ايد تشيل وايد تفحت لحد ما نرجعه مطرح ما طلع
ويا دار مادخلك شر . . أمال حانعمل به إيه ؟

حانخله ؟

- عبد الصمد : بقى دى عيشة اللى أنا عايشها ؟
 لا أنا صاحى ولا أنا نايم . . .
 لا أنا حى ولا أنا ميت .
 لا ورايا ولا قدامى . .
 والف . . وأعد . . وبلبع . .
 وآهو جالى بتاع شيل معايا شيل ، افحت معايا
 افحت ، اتشقق معايا اتشقق . .
- بركات : توبة ياشيخ على إيدك إن عدت أبيع أموات تانى ،
 انشا لله يكون الميت بميت جنيه .
- عبد الصمد : وان حد مسكنا فى السكة ؟
- بركات : أقول انك لا تعرف أنا رايح فىن ولا شفتك من أول
 الليل .
- عبد الصمد : والشيلة عليك ، أنا وسطى مفكوك .
- بركات : ماشى كلام الجدةان .
- عبد الصمد : ومن صباحة ربنا لا أعرفك ولا تعرفنى ، ولا لسانك
 يخاطب لسانى ليوم القيامة .
- بركات : ماشى كلام الجدةان .
- عبد الصمد : قوم الفع بلوتك .
- بركات : (ينحن ويساعده عبد الصمد فى رفع الشوال) زقة
 لاجل سيدى شهاب الدين هات لى ابن الفرطوس على
 كتفى .
- عبد الصمد : (يوارب الباب ويتأكد من خلو الطريق) جودة
 نايم بيشخر . . قدامى يا ابن مبروكة ، ياما جاب
 الغراب لاه .

بركات

: (وهو ينوء بحمله) ياما حمل وشلناها يانوسة .
 وحياتك بعد كام شهر ما أنا إلا بايعه له برضه .
 بس المرة دى عضم !!!

(ستار)

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

في عصر كل يوم كنت أقوم بهذه الرحلة البغيضة ، فأقبع في ركن العربة والعصابة على عيني والخدام ذو العين الواحدة يصف لي بعض ما تمر به في الذهاب والعودة بين العباسية حيث كنا نسكن وشارع (فؤاد الأول) حيث كانت عيادة الطبيب ، فكأن «سمعان» هذا كان عيني في محنتي .

وكنت أدعه يصور لي بأسلوبه الفذ ما تقع عليه عينه الواحدة وأعكف على فصول حياتي الساذجة الصغيرة أتمثل في ظلام الأربطة صورها ، ولم تكن أول مرة قدر لي فيها أن أخضع لمبضع جراح العيون ، ولن تكون فيما أحسب وأحس الأخيرة . لقد سبق لي أن غانيت هذه المحنة في فناء مدرسة شبرا الابتدائية ، هناك في ذلك الركن القصي حيث نصبت تحت شجرة الحمير تلك الخيمة البيضاء التي جعلنا ننظر فيها ولا نقرّبها ، ونسمع عنها أكثر مما ترى أعيننا منها .

وكنت ، منذ جاءتنا الخيمة بمعداتنا ، وطنت نفسي على يوم رهيب في الأيام ، ذلك بأن عيني كانتا مريضتين منذ الحداثة وهما أبداً مثقلتا الجفن . . وكان حتماً أن يجيء دوري ، فسرنا ذات صباح إلى الخيمة صفّاً من سبعة أطفال أبرياء مطرقة رعوسهم واجفة قلوبهم كأنهم يساقون ظلماً إلى المشنقة . واستقبلنا الطبيب في ردائه الأبيض وهو يقلب في وعاء من الزنك عدداً من الأسلحة المعدنية البراقة ، وثمة تلك الرائحة الكريهة القوية الخاصة التي أبغضها إلى اليوم وأبغض معها عيادات الأطباء ومخازن الأدوية ، الرائحة التي تضم معاني الصحة والمرض في جوها الحاد الثقيل .

وفي ظلام العصابة البيضاء ، أذكر تلك اللحظات القاسية التي عشناها في تلك الحيمة . وقد وقفت أرقب رفائي إذ يحماون الواحد تلو الآخر إلى «المشرحة» فيرفع « شارب الدماء» ذو الرداء الأبيض سلاحه يميناه في غير اكتراث : ويمد يسراه فيفتح بأصبعين منها عين « الضحية » ويدفع جفنيه إلى الوراء في غلظة مهنية تعودها وألفها . . ونغلق نحن عيوننا حتى لا نشهد المبضع وهو يهوى « في » عين الصديق ، وإن هي إلا دقائق معدودات حتى نرى صاحبنا العزيز يخرج محمولا على الأعناق بدون ضجة أو اهتمام . . .

وتعود إلى ذهني صورة عودتي إلى البيت في ذلك اليوم البعيد في عربة كهذه العربة : ومعى هذا الخادم الأمين نفسه الذي ألفت أن يقوم لي مقام بصرى كلما حجبت اللوائف نور الدنيا عن عيني . وكيف حاول « سمعان » في الطريق أن يضحكني ويسليني ، فلما بدا لي أن أسأله كيف فقد عينه وعما فعل يوم أن فقدها . أضحكته هذا السؤال وقال إنه ظل يبكي بالأخرى حتى بدا له أنه قد يفقدها أيضاً إذا أمعن في البكاء فكف عنه وقنع بقسمته . . .

في ذلك اليوم تعلمت أن الأمور في هذه الدنيا نسبية قبل كل شيء . . .

ورأيتني بعين الذكرى أدخل البيت فأنال من أهلي عطفاً جميلاً ، ويعدني أبي هدية طيبة اختارها يوم يرفع الحجاب عن بصرى ، وكان عجباً أن يقع اختياري على « نظارة سوداء » . . ثم تقبل خالة لي في مثل سني كانت في ذلك العهد تقيم معنا فتقول لي : إن « فوزية » تسأل عني وقد رأتني أدخل البيت في رعاية الخادم والأربطة حول رأسي فخشيت أن يكون قد أصابني شر في الطريق . . وأنهمض في حراسة هذه الخالة الصغيرة فأقف في النافذة . وأسمع على الثور من ناحية بيت فوزية صوتها المشفق يسألني في حنان ولطف عما أصابني . . ثم لا أكاد

أجيبها حتى تكون يد قاسية قد ردت النافذة في عنف ، وإذا هو أبى
قد دخل علينا لينهاني في غضب عن مخاطبة تلك « المرأة » . . .

وتنسب بي العربية وأنا أتمثل في الظلام محيا « فوزية » التي كانت أسرتي
تمنعني عنها وتغلق في وجهها النوافذ كلما سمعتها تنادي بي من بيتها القريب
وما كانت تدعوني لتلحق بي أذى . بل كنت أجد عندها ما لا أجد
في بيتنا من الروح والأنس والمحبة . . كانت فوزية « صديقتي » . .
نعم صديقتي الوحيدة في الشارع . . وكانت في العشرين ، وكنت دون
العاشرة . . وكانت حسناء . . نعم ، الحسناء الوحيدة في الشارع . .
وكانت تلبس كغيرها من النساء ، لكن في زينتها قليلا من التكلف
والإسراف لم يكن يخفى على ، ولم يكن يسوءني وإن ساء غيري . . كان
لها عطر يدير الرؤوس ، ويعطر الأنفاس ، ويذيع من حولها فيمس القلوب
كعصا الساحر ، ويقول عنه أبى إنه « فضيحة » تضح منها السموات .
نعم ، كانت غانية . . .

ولم تكن هي تحدثني عن حياتها ، ولكنني فهمت مما يتطاير حولي
من الهمس أن صديقة طفولتي تكسب عيشها من هذه التجارة
المريبة التي كانت أول مهنة احترفتها المرأة . . وكان أهل الشارع يكرهونها
ويسبونها ويغلقون في وجهها أبوابهم ، وترسم على وجوههم أمارات المقت
والاحتقار لذكر اسمها . . وكانت هي تعرف ذلك وترضخ له وفي عينيها
هذا الظل الشقي التعس الذي كنت أحبه فيها وأحبه ما عشت في عيون
النساء .

وأحسبني كنت الشيء الوحيد الطيب الكريم للبريء في حياتها .
في أول مرة رأيته كنت مع رفاقي نلعب الكرة في الشارع الضيق
الطويل ، وبعض النسوة من ساكنات الشارع قعيدات النوافذ والشرفات
والمشربيات يتفرجن على لمونا وصخبنا ، فهن المشتركة معنا في اللعب
بنصائحها تسديها من مقامها العالي ، والعاثة بما نحن فيه من لعب كأنه

الجد ، واثى تود لو نزلت إلينا لترح مرحنا وتضحك الحياة وتغضبها معنا . . . وكأن على أن أدير ظهري وأضرب إلى وراء الكرة المصنوعة من الجوارب القديمة ، فما كدت أنهياً لقذفها حتى حدثت ورأى معجزة صغيرة : ذلك أن حدة النقاش التقليدى بين رفاقي تلاشت دفعة واحدة حتى كأنهم اختفوا من المكان فى نغضة عين ، وصدرت فى الوقت نفسه حركات غريبة من النوافذ والشرفات . فالتفت محجماً عن إرسال الكرة لأتبع الأمر . فرأيت زملائي قد تجمعوا صففاً إلى الجدار وأبصارهم رانية إلى مدخل الشارع . وتتبع بيبصرى أبصارهم المتحفزة المتطلعة ، فما وجدت شيئاً يستحق أن يكف له الأطفال عن الحركة والجدل ، وتختفى رعوس النسوة من هذه الفتحات اللأى يعرفن الحياة ويطلن عليها من وراء خشبها . . . وإنما كانت هناك فتاة مقبلة تنهذى فى شىء من الرفق والعجب . . . حتى إذا ما أصبحت منا على خطوات ، رأيت الرفاق الصغار يتنازعون بينهم أمراً فى همس خطير ، وما كادت القادمة ذات الجمال والدلال تمر بهم حتى انطلق الصف كله خلفها كأن هزة كهربائية واحدة قد حركته ووجهت إرادته تلك الوجهة الواحدة المنكرة :

— الملعونة . . الملعونة . .

واضطربت خطا العابرة ، وانسدلت أهدابها على وجنتيها ، واصطبغ باون الدم محياها الحزين . وتقاصت أناملها فوق حقيبة يدها ، وعضت أسنانها شفتيها ، وكأن الدموع توشك أن تطفر من عينيها لتستدر الشفقة والرحمة من أولئك الطغاة الفمجرة الذين كان صوتهم الرهيب المنكر يتبعها كظلمها ، وهم يدقون أكفهم الصغيرة دقاً منغوماً على وقع الكلمة الظالمة . . . وعندما ثبت إلى نفسى صرفت رفاقي بلسانى ويدي عن هذا اللهو العنيف الظالم . ولم تلبث العابرة أن اختفت فى أحد أبواب الشارع غير بعيد من بابنا . بعد أن التفتت نحوى فى إيماءة شكر وعرفان . .

وما كادت تفعل حتى عادت الرعوس النسوية الفارغة تبرز في فتحاتها ، وتصايح نسوة الشارع الضيق الطويل ، وكان عجباً أن أسمع هؤلاء النسوة اللاتي احتجبن عند مرور المنبوذة ، قد انطلقن يصفن معظفهن وثوبها ويتحدثن حديث العارفات عن نوع قماشهما وثمان المتر منهما ، ولم تنس إحداهن أن تحت أولادهما على قطع الطريق عليها كلما خطرت في الشارع . بعد أن نالتني بالسخرية وتوعدتني برفع أمرى الفاضح إلى أبى المدرس الذى « لا يعرف كيف يربى أولاده قبل أن يتصدى لتربية أولاد الناس . . »

وتنسب بنى العربية دائماً بين العيادة والبيت ، وفي مخيلتى هذه الصور القديمة العزيزة ، و (سمعان) ماض فى « إذاعته » لا يكف عنها إلا ليسعل أو يبادل العريجي الحشاش نكتة لطيفة أو دعاية عابرة . . وإنى لأجسم الأمانى فى ظلامى : فأتحيل أن فوزية ستلقانى بعد هذه الأعوام السبعة ، وستلقانى من جديد وفوق عيني هذه العصاة البيضاء ، فأنسم فى الظلام عطرها الذى لا ينسى ، وتحنو على كما كانت تحنو على عهدنا الماضى ، فتأخذنى فى ذراعها إلى صدرها ، وتذوب على يدي عطفاً ودموعاً وقبلاً ، وتغمر كتنى وحدى ورأسى المعصوب بقبالاتها الممتزجة بالدمع والعطر . .

ولست أكنم عن « سمعان » هذا الذى أحلم به يقظاً ، وإنه ليسخر منى فأنصرف عنه غاضباً إلى ذات نفسى أنطوى عليها وراء ظلماتى ولا أعود أعبأ به إذ يذيع بطريقته الفريدة وصف ما نمر به من المناظر والحوادث ، وهو يفعل ذلك فى صوت جهير يلفت أنظار المارة ، وكان هو لا يعجبه هذا الالتفات فيشتبك أحياناً فى معارك كلامية مع أولاد البلد ، وقد يحلو له أن يلتحم مع بعضهم فى « قافية » يطرب لها صاحبه العريجي الحشاش وإن كانت تماؤزى ذعراً . . فى ذات يوم ، وكنا نجتاز فى عودتنا ميدان العتبة الخضراء الذى كان بحاله القديمة مدينة

كاملاً غريبة . توقف « سمعان » فجأة عن إذاعة آخر الأنباء . وسمعته
يطلب إلى الخوذي أن يأخذ بلجم الخيل لتكف عن السير . ثم أحسست
به يقفز من العربة إلى الشارع وهو يهتف بي في دهشة وفرح صادق
« إن فيك يا بني شيئاً لله . . »

ومالت العربة على جانبها الأيمن وقد هدأت الخيل وأوشكت أن
تكف عن الحركة المنتظمة السريعة . . ثم ذاع من حولي العطر القديم
الذي طالما عطر أنفاسي وأيامي ، واحتواني جسد دافئ وطوقني ذراعان
وأطبقت علي في شفتان حارتان وتهادت العربة في رفق وقد أصبح الخادم
الظريف إلى جوار السائق يحكي له قصة لا أسمعها . .

وهمست حين نخلي بيني وبين الكلام : فوزية ! !

فلم تجبني من فورها ، فقد كانت - بين البكاء والضحك -
مضطربة لا يقر لها قرار ، وأفعم روحي عطرها المألوف ، واضطراب
جسدها الملتصق بي ، ودق قلبي في صدري كالطبل ، وانقلبت أرض
الله الواسعة عربة يجرها زوج من الخيل العجفاء في شارع صخب
من شوارع القاهرة ، ثم أشربت روحي ذلك الصوت الحبيب يهتف بي :
حدثني ما بال عينيك ؟ ألا ترحمانك أبداً يامسكين ؟ وهل كتب علي
ألا أراك إلا وعلى نور عينيك حجاب ؟ . . أتذكر عهدنا ؟ . . أتذكر
كيف كنت تسعى إلى ملتصقاً طريقك براحتيك ، فأدخلك بيتي ،
وأسكنك صدري ، تنام في أمني ، وتصحو علي حي ، أبكي لنفسى
فتبكي لي ، وأضحك لك فتضحك للدنيا ، فما كانت الحياة عندنا يومئذ
إلا دموعاً وضحكات . .

قلت : ما أحسب عيناى أكتفتا يا صديقتي ، وأكبر ظنى أنهما
لن تدعاني طويلاً قبل أن تطلبا إلى فدية جديدة عن نورهما من دمي
وأعصابي ، ولكني أعدك وأشهد السماء أنني لن أسلم في المرة القادمة

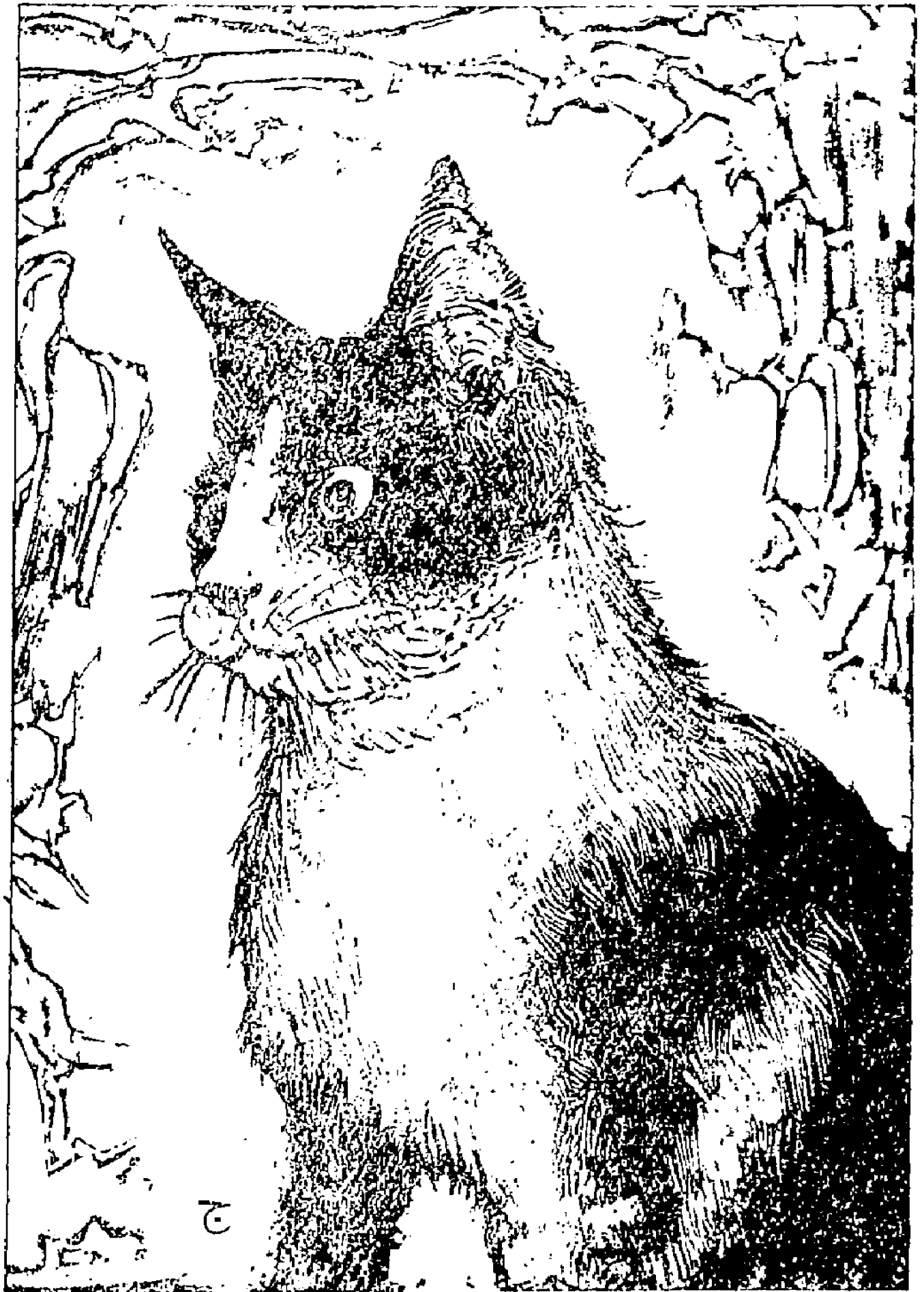
تسليماً فليست المسألة لعبة بعد كل هذا الذى عانيت وإنما هى مسألة فيها نظر !

قالت : مسكين يا حبيبي . إننى أذهب أعواماً من عمري ثمناً ليد سحرية تهبط الآن فترفع عن بصرك الحجاب لأرى روح الرجل الذى حل فى عينيك مكان روح الطفل ، وتمتحن من فورك أثر السنين السبع فى صديقتك التى فرقت بينك وبينها الليالى . .

قلت : إني لضمنين على الزمن بهذه الساعة الرائعة ، ولا يعجلنى أن أحت البصر ، فإن حرمانى المؤقت منه يجعلك تسبغين على هذا العطف اللذيذ الذى قد أحرم بعضه متى ارتد . . . ثم إن لى فى هذا التصور فى الظلام لذة الخلق الفنى . . اننى أتصورك الآن ، وأراك رأى العين ورأى القلب ، وأتمسك بحياك بأناملى ، وأتخيل رسمه البعيد الراسخ فى مخيلتى ، ويرسم خيالى خطأ متموجاً يلمع فى هذا الظلام كجدول من الفضة الذائبة يحدد لى شخصك الحبيب . فهذه ثروة شعرك حيث يبدأ الجدول الفضى رحلته وسط السواد ، وهذا هو يميل فى رقة فيعبر عن جبينك وعينيك وأنفك وشفتيك وذقنك ، ويدخل بعد هذا دخولا لطيفاً إلى حيث عنقك ويهبط بعده

. ثم يصل لى وقد تهيج صدرى ولهت بأنفاسى إلى قدميك .

وعندما قالت لى ، فى إيجاء الأنوثة البليغ ، إنها سعيدة إذ ترانى قد بلغت مبلغ الرجال ، أحسست فى تلك العربة ، وفى تلك الساعة ، أنى أسعد رجل صغير فى العالم . . . ولست والله أذكر ما أجبت بها به ، ولعل سمعان فى مقعده العالى سمع طرفاً من حديثى ، فإن له أذنين كبيرتين



وإن لم تكن له غير عين واحدة . فقد سمعته يغالب الضحك وهو يهمس
 في أذن صاحبه الخوذي همساً خبيثاً ، ثم سمعت الخوذي يسعل وهو يهمس
 بسوته على ظهر الخيل قائلاً :
 — مسألة لم يعد فيها نظر !



[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

أسمع صوت أجنحة السكون الطائر في هذا الليل الذي ضرب قبته فوق كوخى الرينى الصغير ، وحول حديقتى الخضراء المشرفة على النهر . والنهر يجرى تحت قدمى إلى غايته . وقد زارنى في هذا الصباح طيبى الخاص . وقضيت الليل بعد انصرافه في مقعدى الطويل بالحديقة حتى أقبل الليل وبين يدي كتاب ، وفي حجرتى قطى شهرزاد تمر راحتي على ظهرها فتقرأ إلى ما تيسر من أواردها الغامضة .

والربيع من حولي كأنه القصة الضاحكة ، وقد جئت الريف مستشفىاً من داء بشع أنقذنى منه ذلك الطبيب العظيم ، وما أرى من وجوه الأحياء إلا وجهه بين الحين والحين ، ثم صاحبتى بصدق حبها وكريم مودتها .

ولشهرزادى وقار وعموض إذ هى تتحرك في خطى جدتها الفهد ، أو تنام ممطوطة في أحلامها . أو تتخذ أحد هذه الأوضاع المترفة التى تجعل منها تمثالا يخلب اللب حيناً ويرجف القاب حيناً . رفيقة وحدتى وفخر كوخى وسيدته ، توحى فيه بالحكمة ، وتملأ صمته بقوتها الناعمة وضعفها الساكن .

شهرزاد فى حجرتى ، تمر أناملى فوق شعرها الدافئ فتحسن نخته ذلك البدن الغض الحار وهذه الروح الصغيرة البريئة المعقدة تضطرب اضطراب الحياة والشباب . وأصابعى الفضولية تتخلل كساءها البديع حتى تبلغ نعومة وسادة قدمها ، فصدتها على الفور أطراف مخالب حادة هى تحت تلك الوسادة خديعة كبيرة . وضايقتها ذلك الإصرار الفضولى منى على الاطلاع على دخيلة قدمها ، فدارت بعنقها الراسخ

كأنها تهم بعض يدي عقاباً لي ، ولكنها على غير ماتوقعت
لحست ظهر يدي بلسان كأنه المبرد ، وبادلتنى النظر من عينيها الصافية .
وأعجبني وسرني أنها - على غير عادة النساء - تتكلف هذا
الإغضاء الكريم عن جرائي . فقبلتها في رأسها ، وبين عينيها المرتابتين
المتكبرتين كعيون بعض النساء . . . وقلت لها : في أذنهما ، إننا في مايو ،
شهر الحب ، وإنني سوف أجلب لها صاحباً لينجبا لي سرباً ظريفاً من
الأطفال العميان الأعزاء .

وكنت أحسب أنني أسرها وأرضيها ، ولكنها نظرت إلى غاضبة عاتية ،
فأحسست بغتة تلك الرعدة اللذيذة الممتعة الغامضة التي ترميني بها
أحياناً هذه البكماء الصغيرة . وكنت مفلساً ، ولكنني كنت أحس
هناء جديداً ساذجاً لا عهد لي به ، وكان طيبي قد أذن لي في تناول
بضع كئوس من الخمر كل يوم . . . وقد طلع على فجر الليلة وأنا في
مقعدي هذا قد شربت من خمر أطيبها ، وكنت أحدث نفسي :
من الخمر الذي زعم مرة أن الإملاق متعة لذيدة ؟ . . . كنت أحدث
نفسى كأنها مخلوق آخر مستقل يعيش في الكوخ معي ، وقد وضعت
« لها » كأساً أمامي وجعلت أقول لها : « إننا زوج من الحمقى ، مشكلة
بسيطة كهذه لا نجد لها حلاً » . . . فتتقترح نفسي على : « لندع علاج
هذه المشكلة مؤقتاً ونشرب كأساً جديدة أحدها في صحة الآخر » . . .
فرفعت كأسي في يدي وقرعت بها الكأس الأخرى المليئة التي كنت
وضعتها « أمامها » عند طرف المنضدة الآخر ، وقلت (لها) كأنها
هناك حقاً تسامرني : « في صحتك » . . . وخيل إلى أنني أسمع على
الفور صوتها وكأنه صدى صوتي : « في صحتك » . . .

وسكتنا ، وطال سكوتنا . . . وصمت الليل من حولنا لا يعكره
سوى صوت أجنحة السكون الطائر في الآفاق .
وقالت شهرزاد على حين بغتة : إنك ترتعد . أترك تحسن البرد

في هذه الليلة الدافئة المشرقة من ليالى الربيع ؟ . . أم لعلك ذكرت ليلة أخرى قديمة كانت أيضاً من ليالى الربيع ، وكانت مشرقة صافية عرفت فيها سلطان ذلك الشيطان الرجيم الذى أوْشك أن يحطم شبابك ؟ إنك ترتعد ، كأنك ماتزال تسير خلف تلك المرأة التى تتقدمك إلى القاعة ذات النور المريض الخافت والسقف المنخفض العريض ، وقد نثرت على أرضها حشايا ووسائد تمدد فوقها رجال ونساء ينتشر فوقهم سحب من الدخان الأسمر . . لقد ارتعدت أمام ذلك المشهد الذى كان صدمة عنيفة لأعصابك ، وسألت قائدتك وأنت تود لو أخلى بينك وبين الخروج : أهذه وجوه قوم « نسوا » ووجدوا السعادة في النسيان ؟ ما أظن هذا النسيان من الروعة المترفة بالقدر الذى صورت لى ، وما أظن الخيالات الطيبة ترقصهم وتغعم قلوبهم — كما قلت لى — بالفرح ، وما أود أن أبقي . وإنما أبغى أن يقودنى هذا الغلام الذى فتح لنا الباب : إلى الأحياء في المدينة التى تمرح الآن فوقنا .

قلت لسميرتى : ولكنى لا أحب هذا الحديث يا شهرزاد !

قالت كأنها ما سمعت قولى : ولكنك بقيت ، ولم يقدمك الغلام إلى الباب ، وإنما قادك وصاحبتك إلى حشية من تلك الحشايا الممتورة ، ورفع إلى كل منكما عوداً طويلاً يمحور فى بوتقته ذلك السر من أسرار الغيبوبة . . ومددت ، أيها المسكين ، إلى العود الذى يرفعه إليك الغلام الراكع أمامك ، يداً مترددة مشفقة ، ورفعته إلى شفتيك وداعبت بهما ببسمه ، ثم حزمت أمرك فجذبت منه نفساً قصيراً سريعاً . يالها من نكهة . . شىء طريف حقاً . . ثم أقبلت عليه ، وعلى أعواد بعده ، فلذت لك النكهة وتذوقت نشوتها ، وأدهشتك قفزات ذهنك العجيبة ، وجعلت المرثيات ترقص من حولك وتتناثر كالشظايا ، وخيل إليك أنك تسرع نحو سكينه النفس التى تنشدها ، وأن الصفاء الروحى الذى تفتقده يسعى إليك . . أتذكر ؟ أتذكر تلك الليلة البعيدة من ليالى

الربيع ؟ . . أتذكر كيف ألقى الزمن السلاح وولى عنك هارباً : فلم يعد الماضي والحاضر والمستقبل في وملك إلا أنا واحداً ، وزين لك أن كل أولئك الرجال والنساء رفاقك في السلاح ، وأنت تحبهم ، وأنت أخ لهم . . ألم يكونوا مثلك يبحثون عن دواء للسأم ومضيعة خطيرة للوقت تجمع بين الأنفس الكسيرة على المحبة والرضا والصبر ؟ . . أتذكر ؟ . . أتذكر قلبك يامسكين وهو يرقص نشوان في غفوته ؟ . . ولعلك في ليلتك تلك النائية خلعت أنك تشارف الحكمة وتقبض بيدك على صولجان المعرفة وتربع على عرش الصفاء . . وعندما خرجت مع الفجر وأقبلت تودع صاحبتك . ضحكت وقالت : « إنك ستعود ، ستعود » . . فضيت وكلمتها ترن في وعيك كأنها كلمة القدر .

وسكنت شهرزاد فعادت أجنحة السكون تخفق في الليل تريد أن تدفعني من جديد إلى الجنون بعد أن دفعت عني أطيايف الجنون وتهاويله . . فقلت لصاحبتى وأنا أمسح على ظهرها : لا أحب أن تحدثني بما أفر من ذكره وأرتعد من سطوته ، فكفى حديثاً عن الماضي الذى لن يعود وإن بقيت آثاره وإليك فانظري هذا العصفور الجميل الذى أضله الليل وحيره ، فهو يتخبط فوق رأسينا في ورق الشجر ؟

قالت : لا يا صاحبي ! ! إنك تحاول أن تصرفني عن حديث أعلم أنك لا تحبه ، ولكنى أعلم أن شفاءك لن يستوفى حظه من الكمال حتى تسمعه فلا يفزعك ولا يشقيك ، وإنما يكون قصة من ماض بعيد تسمعها وترويها وأنت الصحيح المعافى الذى لا يخشى نكسة ولا يرهب مافات ولن يعود . . إنك رجل ضعيف لا عزيمة لك ولا إرادة ، قد صاححت بك تلك المرأة وهى تودعك صيحة الإغراء ، أو لعلها كانت صيحة النذير ، وإذا بك تعود حقاً ، ثم تعود . . وإذا أنت مدمن مسكين أول دعواك وآخرها أن اللهم أحينى مجنوناً وأمتنى مجنوناً واكتبنى عندك في كتاب المجانين . . نسيت كل شىء إلا ساعة النشوة . . وكان يزين لك

أن حياتك قد غدت حليماً رائعاً ، وأن هذا الساحر الذى قادتك إلى بابه امرأة من نساء الليل ، هو حقاً ذلك « الوطن الواحد » الذى يبحث عنه الفلاسفة والمفكرون والمجانين جميعاً ، فيه رباط القلوب وقرابة الرجال ، وزوال فروق الجنس والدين واللغة والجاه ، وعن طريقه وحده تأتى إلى الدنيا كائنات جديدة متحابية متآخية تجردت من غلظة الكائن البشرى وصارت أذكى وأظهر وأسمى ، تتفاهم دون حاجة إلى لغة ، لأنها تتخاطب بعقولها الحديدية التى صاغها الساحر وترتبط تحت رايته بوفاق الأخوة والمحبة ودين السلام . . حدثنى عما وجدت فى الأفيون من حكمة . . حدثنى عنها يوم أصبح هذا السيد المطاع الذى أسلمت له نفسك وأبدلت به دمك فى عروقتك يسيطر على حياتك . . وحدثنى عنها يوم تحس الموت قريباً منك دانياً إليك ، يقيم معك فى غرفتك إذا أقبل الليل ويتمثل لك فى كل لقمة تطعمها ، وفى كل سيجارة تشعلها ، وعلى حافة كل كأس ترفعها إلى شفئك . . ألم يكن شبح الموت رفيقك ومركبك ؟ ألم يكن يطوف حولك يغريك بنفسك ويغرى نفسك به ؟ ألم يكن يحصد بدنك وروحك حصداً لا رحمة فيه ولا مهل ؟ . . أنسيت الليالى التى اعتكر فيها صفاء روحك ، وضلت حكمتك ونبضت شرايينك نبضها الأليم ، واحتبس صوتك وجلت مصيبتك ؟ . . ينزع ظمؤك لعابك ، ويترجرج مخك الملتاث فى جمجمتك الخاوية ، وثمة أيد باردة تجس بدنك وتتحنس مخياك . . وتمضى الليالى ، وكلما زدت هذا البدن التالف وهذا الروح الهالك من السم الذى تسقيهما ، زادك شوقاً إليه وإلحاحاً فى طلبه . . . صرت تعيش عليه ، تحس الحاجة إليه قبل تناوله ، وبعد تناوله ، وأثناء تناوله ، دائماً ، دائماً . . ثم لا ينقذك إلا ذلك الطبيب العظيم الذى يحى العظام وهى رميم . .

— كفى ! كفى بربك يا شهرزاد . . إنك تعذبنى . . وعذاب الآخرين لا يعينك مادم سعيدة ، ومادمت لك لذتك الموفرة . . إن

أنايتك لا حد لها . . .

فما راعنى إلا هذه الطعنة تأتبنى منها على غير انتظار :
 — إن الأفيون إذن قد أتلّف عقلك وأضاع إنصافك !
 ولم أملك فى غضبي الجائح إلا أن أرفعها وأقذف بها بعيداً ،
 وأدهشنى أن أجد هذه المقسوة ، بعد إساءتها إلى ، لذة ومسرة فى نفسى . .
 وسممت أن أعتذر إليها ، وإذا صوتها من ورائى يقول لى : كذلك
 كنت أحسبك ، وأكبر ظنى أنك وقد فعلتها سيلد لك منذ اليوم أن
 تسىء إلى ، وأنتك ستطردنى يوم تفرغ من لوك بى ، هذا الذى يتقل
 بين الرقة والعنف ، وبين الرضا والغضب ، أو يوم تعرض لك قطعة
 جديدة أنضر منى شباباً وأعز مكرراً . . وما كنت أتوقع منك غلظة القلب
 وكان العفو أيسر ما أنتظر منك ، وقد وقفت عليك حياتى وشبابى ،
 وجعلت همى أن أدخل السرور على نفسك التى صرعتها فى فجر الشباب
 بحماقتك ، أتمرغ على ظهري فى حجبك ، وأبيعك جسد الرخص العصبى
 تداعبه وتجسه وتنعم به ، وأقبل كفك وأعضها لك ، وأرفع رأسى إلى
 راحتك مادة عنى ومسيلة أجفانى كعاشقة ، لأنى أعلم أن هذه الحركة
 تثيرك وتعجبك ، بل ترضيك ، بل تأسرك . .

قلت : بل أكرهها . . وما أنت إلا أنثى ناعمة خطرة تحت هذا
 الكساء الأبيض الفاخر . . إنك تخيفينى بضعفك . . إن مجرد لمسة
 منك تكفى أحياناً لبعث الرعدة فى كيانى العصبى كله . . والود الذى بيننا
 دائماً معلق بخيط . . وما أستطيع أن أركن إلى مودتك ، فهى فى أصلها
 وحقيقتها أناية مقنعة غادرة . . كلكن هكذا . . ناعمات ظريفات . .
 وعميونكن خادعة كاذبة . . ولكن مخالب غادرة تحت الحرير ، وعشقكن
 عداوة ، وقبلاتكن السم المقسوم . . .

قالت فى صوت ما سمعته منها قبل ذاك : يحسن بنا إذن أن يذهب
 كل منا فى سبيله ، وقد بعثنى فما يعنياك أن يشترينى هذا أو ذاك ؟

إنك لم تعد تصلح لعشرة جنسنا . . إن كل ما يستطيع أن يفعله الآن
 رجل مثلك هو أن يتأمل السماء حتى يموت . . أن يصلى : ويصلى ،
 ثم لا يكون له بعد طول الصلاة في نعيم الأرواح الطيبة رجاء كبير . .
 فجمعت نفسى الطعينة فى كلمة واحدة :

— اذهبي !

وغابت شهرزاد فى سكون الظلمات .



موسیقار خدیجہ

كان عبد الرحمن يحب السهر ويطيب له أحياناً أن يطوف بصالات
الرقص الصغيرة بعد انتصاف الليل وانتهاء العمل في الجريدة ، ليشرّب
كؤوساً من الكونياك المريب الحامض ويتحدث ضاحكاً إلى السقاة
والتوادين والراقصات وكل إنسان يلقاه .

وكانت صاحبة أحد تلك الملاحى صديقة له تحترم صفته الصحفية
وترحب به وتشكو له هموم مهنتها ، وعندها فن هزيل ومرح مصنوع
متوتر ونساء مطلليات متوترات الأنفس بالرغبة في الكسب والكحول
والمخدرات وبالموسيقا الجمعجاعة .

وإلى هذا المكان أخذني صديقي الشاعر ذات مساء . . دفعني إلى
التاكسي الواقف أمام باب الجريدة قائلاً إنه يعرف كيف تساورني
أحياناً الرغبة في أن أخرج من جلدى .

ودخلنا من دهليز طويل ، بين نصفين من الصور المعلقة ، وجلسنا
حول مائدة قصية وطلبنا كأسين ، على حين كانت مغنية قصيرة ممتلئة
تتأوه في ميكرفون أمامها بصوتها المفجع ، والدنيا زائطة .

وفي الحال أخذ عبد الرحمن يتلقى التحيات من الجرسونات وبعض
الزبائن السكارى وبنات المحل المبدولات وينتشر بلذة مريعة خارج
ذاته .

ومن شفتيتين من الكأس الأولى راح يدندن مع النغم الشاحب الفقير
وهو يدعوني إلى الخروج من جلدى . .

وجلست إلى مائدتنا فجأة راقصتان . . وكانت إحداهما واسمها
« شوشو » تعرف عبد الرحمن ، وهى بيضاء الجلد وممتلئة أكثر مما

يلزم لامرأة واحدة ، وينادى بها العالم الذى تعيش فيه باسم « شوشو لظلف »
 أما زميتها فكانت سمراء مهزولة تحمض قاموساً من النكت المكشوفة
 وكان اسمها « نعيمة » . . . نعيمة زغزغ . . . وكان دمها ثقيلاً . . . وبعد
 ساعة كانت المائدة أمامنا قد امتلأت بكؤوس الكونياك والويسكى
 وأطباق الخبز المقشر والفول السودانى وأعقاب السجائر . . . وكان
 عبد الرحمن يفرّد ذراعيه كالحجدافين ويهبط بعجزه الهزيل عن الكرسي
 ويتطوح كالمجنوب راقصاً ومطرباً مع النغم بأصابعه . . . وإذا بامرأة
 على المائدة التى وراءنا تطيل النظر إلى صديقى وتبتسم لمرحه وهى
 تجرع فى ثبات كأساً من الكونياك . . . وكانت وحدها .

جن جنون عبد الرحمن بمسحة من نصارة فى ذلك الوجه الحسن المثل
 الذى ابتسم له ، فهبط بقوامه الدقيق الطويل الذى لا يخفى الكثير من
 بنيانه العظمى ، وقصدها وكلمها فقامت ومشّت معه نحونا مترنحة
 تكاد تنهار على الأرض فى كل خطوة . . . وما إن اصطدمت بالكرسي
 الوحيد الخالى عند فائدتنا حتى تشبثت به وشغلته دون أن تنظر إلينا ،
 وقالت وهى تضحك :

— آدى حال الدنيا ! !

ونادى عبد الرحمن بصوته الحشن صديقه جمعة الجرسون وطلب
 خمس كؤوس جديدة : فقالت السكرانة وهى تشير بسبابتها إلى صدرها
 العارى :

— الكاس بتاعى أنا . . . دو بل . . .

ثم رفعت صوتها حتى جلعجل فى ركننا كله :

— والدور ده على حسابى . . .

بدأت أخص هذه التحفة باهتمامى ، تاركاً لصديقى الشاعر تنشق
 عبير شعورها الدائر ومحاولة تقبيل عنقها ، بعد دقيقة واحدة من تعرفه
 إليها . . .

كانت ثملة وكان هذا أبرز ما فيها ، لكنها ناضجة ، وقوية الشباب ،
وثوبها أنيق ، وكأس الكونياك عندها جرعة نصيبها في حلقها ، ثم تقول
للساقب الذي لم يكده يستدير لينصرف :

... واحد دو بيل كمان !

وكانت تضحك .. تضحك باستمرار .. وفي ضحكها رنة خيل ..
سألها عبد الرحمن عن اسمها أكثر من عشر مرات ، فكانت تقول
وهي تنفجر في كل مرة بضحكها الجوفاء التي ترن أحياناً رنيناً مقبضاً :

— اسم إيه انت كمان ..

— بتشتغل هنا ؟

— أنا زبونة زيك ..

وقالت الراقصة نعيمة وفي صوتها نبرة خيق واضحة :

— حضرتها أول مرة تشرف عندنا الليلة .

أما زميلتها الملاحظة فقد مالت على أذني وحمست غيها وأنفاسها

تضايقتي ببخار الكونياك الرخيص :

— دى شربت الليلة أكثر من خمستاشر كأس .. وبتدفع ثمن كل

كأس ساعة ما يجيبه لها الجرسون ، وتطلب غيره .. والكأس عندها شقطة ..

جاية لنا منين الداخية دى مش عارفة ...

فسألت شوشو وأنا أنحى وجهي عن لسع أنفاسها :

— رقاصة ؟

— إحنا عارفين .. دى البت فتحة نفسها فانت مرة جنبها وحاولت

تحش معاداني كلام ما عرفتش .. والبس فتحة قالت لنا في الكواليس :

نمرة مكشوفة .. البنت دى حاترجع بكرة وبعد بكرة ، زى غيرها ،

وبعدين تتدل وتركع وتطلب تنزل الشغل ..

وسمع مني عبد الرحمن هذه المعلومات في همسات سريعة متقطعة

فزادته هوساً في مغازلتها ، وظهر له أن اسمها توحه ، أما من تكون وكيف

جاءت وحدها فلا حديث ولا كلام .. وما من شك في أن ما فتن
الشاعر السكران منها هو غموضها : حتى لقد راح يتحدث عن « أبل
الهل التمل » وعن شعر مكنون في عينها ينتظر من يرتله . .

وكانت يداها العصبيتان تعصفان بأعقاب السجائر في المنفضة وهي
تنفجر بضحكة شهوانية ملتاثة كلما قبل عبد الرحمن كتفها أو
عنقها . .

والموسيقا الرخيصة التي نحتقرها أنا وعبد الرحمن صارت تعجبنا حتى
ندندن معها كالمهاويس . . سكرنا والمرأة تضحك بينما ضحك الجنون
وصارت الأنغام التافهة — وهي تمر فينا — تتحدث إلينا عن ثمول ،
ولذة ، وهروب ، ولبيب . . وأن هذه الموسيقا المحبولة لتدفع إلى الشرب
بغير حساب . . كلنا سكرنا ، ولكن توحة كانت بالوعة كونيكا ،
وكانت عينها مع كل كأس تزدادان لمعاناً لا ندرى إن كان من نار
داخلية ويأس ثقيل راسخ . .

ولحظت أن صديقي حصر هدفه في إقناعها بالخروج من هذا المكان
وأنها تسأله وهي تطلق ضحكاتها المثلوجة التي ضاقت بها آخر الأمر
أعصابي :

— نروح فين ؟

— انتي تعبانه . . أوصالك بيتك ؟

— بيتي ؟

— أيوه . . النهار قرب يطلع ياتوحة .

— وبعدين ؟

— تعزميني ، مثلاً ، على فنجان قهوة .

لم يبد عليها أولاً أنها فهمت غرضه الحقيقي ، ثم أدركت معنى ذهابه
معها إلى بيتها فأنفجرت في هذه المرة بضحكة عاوية غريبة تمشت في بدني
ذبذبتها كموج من صقيع .

وقالت له :

— طيب نشرب الأول كاس كمان . .

وأحسست في تلك اللحظة يداً متوددة تستقر من خلفي فوق كتفي ،
فالتفت وإذا بزميلنا إسماعيل ، بكل تلك الطيبة التي تشع من وجهه الممتلئ
وعينييه النهمتين . وكان مسكران كعادته في انقضاذه على هذا العالم
ليتصيد أنثى . .

وصافحت إسماعيل وأنا أشعر أن عبد الرحمن وتوحة يقفان في صعوبة
وقال عبد الرحمن لنا وهو يسند رفاقته بذراعه :

— عال . مع بعض بقي لحد ما أرجع لكم . . كلها ساعة .

ومشي بها وصوت إسماعيل عابده النساء جميعاً يثقب أذني :

— إيه دي ؟ . . منين دي . . وقع عليها إزاي دي ؟

ولكن المرأة لم تكذ تمشي خطوات حتى تهاوت ، فأصدر إسماعيل
من أنفه صوتاً اشهر به ، وحمل عبد الرحمن صيده خملاً وخرج به وتركني
في قبضة فضول إسماعيل . .

والموسيقا تصرخ وتقول . . ونعيمة زغزغ الآن تتأوى على المسرح
في رقصتها الثانية والأخيرة بكل عريها الرخيص المنفر . . وصاحبي إسماعيل يعاديني
باستفساره الملح عن تلك المرأة . . هل سنراها بعد ذلك ؟ وهل أعرف
المكان الذي أخذها إليه عبد الرحمن ؟ . . وكيف حال الجوار الليلة ؟
وهل أنجزت أنا الاتفاق مع شوشو المربطة معنا من أول الليل أم أن
خبيتي ثقيلة ؟ ..

وربما كان قد مر ربع ساعة قبل أن يظهر عبد الرحمن مرة أخرى
في الباب — كالمقديفة المنقضة — ويناديني ، بصوته العريض ، من
فوق الموائد المكتظة بالرجال والنساء . . .

وكانت عودته غريبة ، وطبعته خطيرة ، وفي مظهره جد عجيب
طارئ ، فأسرعت إليه تاركاً لإسماعيل ، في الليالي : فتعة مسامرة الراقصة

ذات اللحم الأبيض . .

— إيه يا عبد الرحمن ؟ .

— ادفع بسرعة وتعال . . أنا فى التاكسى على الباب . .

لوحت لإسماعيل بيدي ليفهم أى عائد بعد قليل ، ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم . فخطر لى أن هذا هو إسماعيل الذى توقظ ريبته دائماً كل مسألة تتعلق بالنقود ، وأنه لا شك يخشى على عاداته أن يكون فى الأمر مقلب مدبر له من ناحية دفع الحساب . . فأعطيته بقبضتى المشتبكتين عهداً اطمأن به قليلاً وأسرعت إلى التاكسى الذى كان بابه مفتوحاً فى انتظارى . .

— مالك ؟ .

— اركب . .

— رايجين فين ؟

لم يجبنى عبد الرحمن ، بل صرخ فى السائق :

— لف بنا على كيفك شوية يا أسطى .

وهنا لمحت فوق الدواسة فى أرضية السيارة جسماً جامداً منكمشاً على نفسه فى غموض . .

— الله . . دى . . دى توحة . .

— أيوه . . دى توحة . .

لم أدخل التاكسى ، وطار الكؤوس التى شربتها من مخى ولم أعد أدري ماذا أتصور . .

— مالها ؟ حصل إيه ؟

وتهد عبد الرحمن ومسح على جبينه بيده المشعرة العصبية :

— حصل إيه . . فى التاكسى أول ماسبناك ابتدأت تضحك . .

تضحك . . تضحك زى المجنونة . . وسابتنى أبوسها زى ما أنا عاوز . .

وتضحك . . عقلى بى حايطير . . وبعد شوية وقفت التاكسى قدام

عمارة ومسكنتى من إيدى وعينها زايغة وجرتنى وراها لباب الشقة
فى الدور الثانى . . وحطت فى الباب مفتاحها اللى طلعت به بصعوبة
من شنطتها وفتحت وقالت لى وعينها بتطق شرر : « خش يا بنى آدم » ..
ومدت يدها ولعت نور الصالة . . ترايزة أكل وحواليها كراسى . .
وفوق الترايزة . . فوق الترايزة . .

ونفضت جسمه كله رعدة قاسية . . .

وامتدت يدى بغير وعى إلى خصلة من شعر المرأة الملقاة فى الدواسة
كالمتاع ، فأبعدتها عن فمها الذى يسيل منه اللعاب ، وسألته :

— شفت إيه ؟

— شفت كفن . . وعلى الكفن شفت بنت صغيرة عمرها يجى أربع

سنين ، ميتة ! !

— ميتة ؟

— ميتة يا أخى . . ميتة . . وأمها . . الجنون ضحك لى فى عينها

وهجمت على وصوابعها كانت حاتحرق عيني وهى بتقول : هى

كل من شربت كامسين علشان تنسى بلوتها تبقى صيدة . . ووجت

تضحك تانى رحت طابق بكفى على بقها وجريتها على السلم بعد ما رزعت

الباب قفلته على اللى متمددة فوق كفنها مستنية الصبح والحانوتى . .

أنعمى عليها فى السلم . . شاتها فوق كتنى ورميتها فى التاكسى ده . . أهيه . .

أهيه . . بص . . اسمها توحة . . .

وهنا كان صاحبنا إسماعيل قد ظهر على باب الملهى ورآنا فانقض

على نافذة التاكسى وثقب أذنى صوته الثمل وهو يقول لنا :

— مين حايدفع الحساب يا جماعة . . . ! !

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

[REDACTED]

هى : كل هذا الصمت . . .

هو : هل خبيت أملك ؟

هى : إني أعجب لصمتك . . أما تقول شيئاً ؟

هو : أتراك كنت تنتظرين فى شخصى ثثاراً عظيماً ؟

هى : لا : بل محدثاً بارعاً . . وما أحب الثروة ، ولكنى لما قيل لى
إنى ألقى اليوم ذلك الكاتب الذى عشت طويلاً فى قصصه ، أعددت
نفسى فى طريقى إلى هذه السهرة العائلية للاستماع إلى ما لا أذن سمعت
ولا نفس وعت .

هو : نعم . . هذه يا سيدتى العزيزة هى المشكلة الدائمة ، وإن
الأمر لينتهى دائماً بصدمة . . وأكبر ظنى أن الكاتب لو اصطنع لكل
من يلقاه من الناس أول مرة شيئاً من الأستاذية الحكيمة والبيغائية المتعالية
لفاز برضاه وإعجابه ، وربما بهره أيضاً ، فما أشد ولع الناس بأن
يهروا . . ولكنى لا أعرف إلا الصدق فى ظاهرى وباطنى ، ولا أعرف
أن أتخذ لمن ألقاه مظهراً لا صدق فيه ، وأنا بطبعى رجل صامت ينطوى
على نفسه فى تأمل أو يرقب الناس فى فضول . . والصمت البليغ
عندى حديث كامل ولغة ، ولكنه حديث الأقلية ، وليس من سبيل
إلى فرضه على الناس كافة .

هى : إنما خلق الناس ليتكلموا . .

هو : لو أحصيت السنين التى يضيعها الناس فى لغو الثروة أوليت
من مجالسهم فراراً إلى عمق الصمت .

هى : ولكنك تسكت فتطيل السكوت ، وتسمع وكأنك لا تسمع . .

ألا تهز نفسك نكتة رائعة ؟ . . ألا تعرف كيف تطرح عنك ذات ساعة همومك ومتاعبك وأفكارك وتخلص نفسك للمرح وحده . . مرح الصبية اللذيذ الغامر . . أو مرح الخالين من الهم ، الناعمين بالعيش ؟ . . إني مارأيتك منذ ساعات تضحك من القلب . .

هو : إن لبعض النفوس ياسيدتى هموماً عميقة سحيقة الأغوار ، ومن الظلم للناس أن يحدّثهم صاحبها بها . .

هى : أما فى هذه فأنت على حق . . وهل يعرف الهم إلا من يكابده . .

هو : قد ينتفض الهم على سن القلم ، ولكن للقلم نفسه حيائه ، فما بالك باللسان . . ومن للناس بسر من يطوى النفس على ألمه السحيق ، ويقتات فى ليل الجراح وصمت الوحدة بالعميق الحارق من الأشجان والأحزان . . وبعض الناس أدرى من بعضهم ياسيدتى بالألم . .

هى : ملأت نفسى حزناً على هذا الصنف من الناس . . الذى لم ألق منه أحداً . . ألا حدثنى عن هذا !

هو : يحكى ياسيدتى أن رجلاً كان له مخ من ذهب . .

هى : أهى أسطورة تلهينى بها ؟

هو : بل قصة حقيقية ، على ما قد يبدو لك من غرابتها . . وإني أقصها عليك وأناشدك أن تسمعى بقلبك ، فهى باب أفتحه لك لتنظري منه إلى آلاف من المساكين قد تختلف قصة كل واحد منهم فى بعض تفصيلاتها عن هذه القصة ، ولكن قصصهم جميعاً لا تخرج عنها فى صميمها . . هو إذن رجل كان مخه كله من ذهب . . وقد فحصه الأطباء الجُهلاء صبيّاً ، فما فطنوا إلى حقيقة أمره . . وقد زعموا لأهله يوم ولد أنه لن يعيش فما يعيش فى دنيا الناس مخاوق له هذا الرأس الضخم الثقيل الذى لم ير له الناس مثيلاً . . ولكن الرجل ذا العقل الذهبى عاش . . عاش يجذبه رأسه الكبير ، وبقوده بين البشر ، وكأنه يحره جرّاً ويدفعه دفعاً ، فيمضى متعثر الخطو يكاد يظن به الناس

الظنون . . وذات يوم سقط من أعلى السلم في بيت أهله ،
فصدمت الدرجات الرخامية جبينه الذهبي صدمة انبعث منها رنين
المعدن الصافي . . فذهب أبوه . . وهبت أمه . . وأقاماه من سقطته وقد
شجت رأسه ، فإذا به قد سالت من جرحه اليسير نقطتان أو نقط ثلاث
من . . . الذهب . . وقال أهله وقد علموا أن له مخاً من ذهب :
ليكونن قرة أعيننا أسعد أهل زمانه ، بل أسعد من عاش على الأرض من
البشر . . واعلمك ياسيدي تخمين ما كان عند ذاك من أمر أمه وأبيه .
فقد كتما عن الناس أمره ، وادخرناه سرّاً وكترأ . .

هى : والصبي السعيد ؟

هو : أما الصبي المسكين فإنه لم يعلم يومذاك عن حقيقة قدره شيئاً
فإذا بدا له أن يسأل أمه عن سر منعها له من اللعب مع رفاقه ، أجابته
الكانزة بقولها : لئلا يسرقك المصوص يا كترنا الغالى !

هى : وهل تلقى الكنوز فى عرض الطريق ؟

هو : وعرف المسكين معنى الوحدة صغيراً . . الوحدة فى أهله ،
والغربة فى الدنيا . . وعلمته الوحدة تحت ثقل رأسه أن يطرق فيطيل
الإطراق ، وأن يتأمل فيحسن التأمل . . فلما باغ من عمره الشباب
حدثه أبوه ذات يوم وأمّه تسمع بالسر العظم . . وقرأ العقل الذهبي
فى عيني أمه لمعة الجشع المروعة فروعه كنزها ، وبكى بين جنييه قلبه ،
فما كان يحسب أن تكون أمه أول الظامعين ، وما كان يدرى أنه أحد
الموعودين بأن يعصروا للناس قلوبهم ، فامتدت يمناء المتشنجة ، ومن
رأسه اقتلعت أناملها الحزينة المعولة قطعة من الذهب الحر الوهاج
وألقته فى حجر أمه . .

هى : لو كنت أمه . . ! !

هو : وجهته قوته الوهاجة الجبارة ، ودار برأسه ثراؤه العريض ،
وثملت روحه حيناً من الدهر بنحمر الغنى والسلطان ، واستبدت به فى

زهرة العمر نوازع الشهوات ، فحشى على الشوك واحتضن الخطايا . .
وهجر بيته وأهله . . ونثر في دروب الحياة من ذهبه ، كريماً في سفه
ظمان في جنون . . خيل إليه أن كثره لن ينضب . . نثر الذهب ذات
اليمين ، ونثر الذهب ذات الشمال ، ونثره في كل أرض بدون حساب . .
وهل من نبع ياسيدتى لا يغيض ؟ ولكنه الشباب ياسيدتى . . وآه لو
عرف الشباب . . فلما قام المسكين من نومه ذات صباح ، بعد ليلة
أشبعها مجوناً وعبثاً ورواها متعة ونعيمًا ، خفت على يده رأسه ، ونطق
في عينيه ذبوله ، وارتعش في ضميره ضعفه . . ونظر حوله فإذا هو وحيد
بين أطلال السهرة وأطياف الشهوة وبقايا الشراب . . وحيد كأنما ضربت
من حوله صحراء من جليد . . من شر الفناء استغاث برب كان في
سوق الخطايا قد نسيه . . وإذا الذى نسي ربه يتضرع إليه ويناجيه
لأن أبقيت لى سؤر كثرى لأكبحن شرة نفسى المحسورة ، ولأقبضن
عن السرف السفية يدي . .

هى : لو كنت أمه لما تركته للنساء يفترسنه . .

هو : لقد علمته الحياة ما لم تعلمه أمه ، فعافت نفسه اللذات واعتزل
الناس ، وغلت يده إلى عنقه ، وسرى الشح في دمه . . إذا
دقت الفتنة بابه نام عنها ، وقصرت يده عن رأسه ؛ وتعلمت أنامله
الصبر على نبع الذهب ، ولكن قلبه الملهوف الظامى لم يلبث أن عشق
أنى أولعت بالطرائف الثمينة والأشياء الغالية والترف الداعر وزينة الحياة
الدنيا . . كان محبباً مخلصاً ، وكانت غاوية ضلت سبيلها . . أذابت بين
أناملها أكثر مابقى له من ذهبه . . وظلت تحاوره وتستدرجه حتى باح
لها بسر . . لتلك التى كانت ، إذ يحبها ، تأكل رأسه . . وإن هى
إلا أيام حتى هب المسكين من نومه ذات ليلة على ألم شديد في رأسه ،
كى يشهد في ضوء القمر حبيبته وهى تعدو هاربة وفي قبضتها قطعة
أخرى اقتلعت بالدم من مخه الذهبي . .

هى : حرام . .

هو : ولم يبق إذن من المخ العجيب غير بقايا . . حبات وذرات
فى حنايا الرأس وحول العظام . . وكان ينتظره بعد ذلك الهول الأكبر . .
حبه الصادق الشريف الكبير . . فقد عرف عاطفة بكرّاً لم يهتف بها
من قبل قلبه على طول ما عرف النساء . . وخرج كالمجنون إلى شوارع
المدينة ، يفكر فيمن أحب فى حزن كبير ، ويجمع غصص الندم
على كنز أضاعه فى كل سبيل . . وكان الليل . . ورأى فى واجهة
حانوت مضيئة بالنور زينة النساء ، ثياباً ومتاعاً وحلياً ، وبينها حذاء
لطيف من الحرير الأزرق . . وبدا للشريد المسكين الضائع أن هذا الحذاء
الرشيق إنما صنع لينعم بدفء قدم الحبيبة . . فتحسس رأسه فى وجل . .
ولكن تردده لم يطل ، فحزم أمره ودخل الحانوت على حين كانت
صاحبه فى ركن منه قصى . . ولكنها ما لبثت أن سمعت صرخة صارخة
مروعة ، فأقبلت فى ذعر . . ثم أدبرت فى رعب . . فقد وجدت أمامها
رجلاً يوشك أن ينهار ، وفى عينيه الحملقتين إليها نظرة تفيض بعمق اليأس
وساحق الألم . . فلما نظرت إلى يسراه أبصرت الحذاء الأزرق الجميل
على حين كانت على يمينه المبسوطة نحوها بضع حبات من الذهب المخضب
بالدم . .

هى : حقاً إنه مسكين . .

هو : فاعلمى إذن أنهم كثيرون ، وأن كل واحد منهم يستحق
منك هذه المهمة الراحمة . . كثيرون أولئك الذين ينظرون فى صمت
ويتأملون ، ويتأملون . . أولئك الذين يمشون على الأرض هونا ، ويخلفون
فيها عطراً ، والذين كتب عليهم أن يعيشوا من عصير قلوبهم . . ولعلك
تعلمين الآن ياسيدتى ، وقد استمعت إلى تلك القصة القديمة الحية
ماذا يفعل المسكين من أولئك المساكين عندما تطحنه الرحى فيسحقه الألم
ويسأم الحياة . .

بلا سيف

أستطيع أحياناً أن أتصور ما كان للحوسيقى حتماً من جمال خارق
في الزمان القديم الساذج ، عند فجر البشرية ، وهو الزمان الذي كنت أحب
أن أعيش فيه . .

أتصور أن أول جماعة من البشر التقوا بواحد منهم يضرب الوتر
فينفث أنغامه الفطرية قد ضجوا بين يديه بالبكاء في فرح قدسى وخرّوا
له ساجدين .

منذ ليال ، وعلى دقائق الطبل يقرعه المارد الزنجي القابع على الأرض
أمام نار الخطب ، في ذلك الملهى القاهري المعروف ، برزت الراقصة
الزنجية « زامبا » بقوامها الفارع المهتز كضبابه أبنوسية مرحة ، وعلى
أساريرها وفي أعطافها فرحة فطرية بالانطلاق والحرية ، فكأنها
البركان يتوثب ليطلق الحمم ، وكأن عينها العاصفتين المتكبرتين تبثان
من حولها حياة جائشة دافئة ، وكأن خصرها ينثر في كل انتفاضة مرسومة
فكرة مجسمة ، وكان أعضاء بدنها الملهمة على وقع النغم الفطري تصور
في صمت معجز أدق خلجات النفس وأصدق نبضات الروح . .

ورأيت الزنجي قارع الطبل ، في إحدى لفتاته ، وقد افترت شفاته
المكتنرتان عن أسنانه البيضاء المنسقة ، يابوح بيمناه لصديق الذي
يشاركني مائدتي بدون أن تنقطع الصلة السحرية العجيبة بين يده
الأخرى والطبلة . .

قال : إن « زامبو » صديقي . . صديقي منذ عهد بعيد .
وارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وهو يقول لي : عرفته في باريس
قبل الحرب . . وهو فيلسوف ، وفنان ، وإنسان . .

وأتمت « زامبا » رقصتها الفطرية الجميلة وانحنت لجمهورها ثم اختفت وراء الستار ومعها زميلها قارع الطبل ، فلما عدت بعد قليل من حلبة الرقص وجدت صديقي الذي تركته وحده يجلس بين قوسين من « زامبا » و « زامبو » وقد صار كلاهما في ثياب العصر . .

وكان واضحاً أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يروى فيها « زامبو » قصته لغريب ، خضوعاً منه لرغبة صديق . . ولم ألبث أن تبين أن العازف الزنجي الذي يوشك أن يباغ الأربعين رجل يحب أن يستخلص من الوقائع علامها ، ومن الأحداث عبرتها . .

لقد أنفق طفولته وشبابه في أرض لا سلطان لأحد عليها ، عند أحد أطراف إقليم من أقاليم القارة الأفريقية السحيقة التي يوطد الرجال البيض أقدامهم في ربوعها . . وكانت الأرض بكرّاً ، ولا تدفع ضريبة ، ولا تفتح لأي أجنبي دخيل قلبها البتول ، ولا تقر لغير أهلها السود الأحرار سلطاناً . .

وكان « زامبو » سيد مقدراتها ، وزعيم شبابها . .

ما من رجل أبيض واثقه الجراءة على اقتحام حدود الأرض الأبية إلا وجد نفسه تحت رحمة رماح « زامبو » وأعوانه الأشداء . . وهكذا عاشت القبيلة ذات الشوكة والبأس . . عاشت على الحرية والأمن ، وعلى المنعة والرخاء . . خيرات موفورة ، ورجال من المحاربين الأشداء أولى العزم والكبرياء ، وأطنال سعداء يمرحون أمام الأكواخ ، ونساء جميلات نهودهن المكورة على صدورهن كأنها أحقاق العنبر . .

ولكن البيض لم يلبثوا أن ضاقت عزيم بتلك الأرض المتمردة العاصية ، في قارة تنتشر عليها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ظلال سلطانتهم . . كيف لا يبسط سلطانهم سطوته المردوبة على تلك الرقعة الصغيرة من الأرض المدللة قاوب ساكنيها بحب الحرية ؟ . . وتناهى إلى « زامبو » ورجاله نبأ ما يبيتون ، فأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة

فلما أقبلوا عادوا بجرحاهم ، وخلقوا للأبطال السود قتلاهم ، والأسرى ،
وأجساد الذكريات . . . ومرت الأعوام . . .

ثم سمع الزعيم أن تلك المملكة من ممالك البيض قد بعثت إلى الرقعة
الواسعة التي تحكمها من القارة السوداء قائداً جديداً يقوم فيه الحديد على
مكر الشعب ، وخفة النسناس .

وتبسم « زامبو » عن أسنانه المنسقة البيضاء ومد يده إلى كأسه الثالثة
وهو يغمض عينيه الحميلتين اليقظتين كأنما يسترجع في ظلام الجفون
المطبقة تلك الأحداث البعيدة .

— وجاء من قومنا من يحدثنا بمدينة مسحورة أقامها البيض في كبرى
المدن التي يحتلونها من وطننا ، بناء ضخم فيه ألف شيء وشيء مما ابتكرت
الحضارة وصنعت المدنية ، ومما يباع ويشترى ، وكل ما فيه رائع وجميل
من البندقية إلى المرأة ، ومن القرط إلى المخراش ، وفيه فوق ذلك كله جياذ
خشبية تدور وتدور ، وأراجيح تعلو وتهبط ، ومغنيات ليس أجمل
من أصواتهن ، وراقصات بيض حور حسان ليس أشهى من وصالهن .

وكان من الطبيعي أن ينتشر هذا النبا في قومنا كما ينتشر الجراد في
الأرض المنكوبة ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الغرب إلى الشرق . . .
فلما خفت تمرد رجالي بعثت إلى القائد الأبيض برسول يسأله : أيستطيع
« زامبو » وحاشيته أن يحصلوا على كلمة شرف تخول لهم زيارة المدينة
المسحورة والعودة منها بدون أن يتعرضوا لخطر أو غدر ؟ . . . وعاد الرسول
يحمل إلى إجلال القائد واغتيابته بهذه الزيارة الميمونة ، ووثيقة شرف
يتعهد فيها بحمايتنا من كل سوء حتى نبلغ بعد زيارة المدينة مأمنا
من وطننا . . .

وهكذا ، في صباح من الربيع ، دخلت في طليعة رجالي تلك المدينة
التي يسود البيض فيها السود . . . وتلقنا بالتحية بعثة ترحيب بيضاء .
وقضينا أياماً جميلة في الاستمتاع بروائع الحضارة المجاورة من أقصى

الشمال ، ثم استبد بنا الحنين إلى الأوطان ، فعاد موكبنا يخترق شوارع المدينة ، وإذا بالقائد الأبيض نفسه ينتظرنا في الميدان الكبير لكي يؤدي لنا بنفسه تحية الوداع . . ولم يكن معه حرس وإنما وقف إلى جانبه رجل أبيض آخر في ثياب مدنية كان يشرف على قطيع من العمال الوطنيين يعملون دائبين تحت الشمس في مبنى جديد يرسون قواعده . ولقينا القائد الأبيض بتحيةة عسكرية ، ثم قدم إلى زميله قائلاً إنه « المهندس » التقدير الذي يقيم هذا المبنى الجديد ، وإن صاحب المبنى من أبناء جلدتي الأغنياء ، وسوف يكون بيته هذا من ثلاث طبقات ، كأنه ثلاثة بيوت ركب بعضها بعضاً بسحر ساحر . . .

فسألته في دهشة لا مزيد عليها :

— ثلاث بيوت لأسرة واحدة ؟

قال في هدوء وإقبال :

— بل لثلاث أسر ، تدفع كل واحدة منها عن سكنائها أجراً

كاملاً . .

— يدفعون لمن ؟

— للمالك طبعاً . .

— ومن هو « المالك » هذا ؟

— أى مالك . . كل مالك . . أنت مثلاً . . تتفق مع هذا المهندس

البارع وتدفع له نفقات البناء وأجره البسيط ، بعد أن تكون قد دفعت

« للحكومة » ثمن الأرض . . ولكنك لا تلتفت أن تحصل على كل

مادفعت له وللحكومة ، من الأقساط الشهرية التي يدفعها لك السكان . .

— فهمت . . وهل يسع « المالك » الواحد أن يبنى أكثر من بيت

واحد؟ . .

— بكل تأكيد . . أى عدد من البيوت تتسع لتشيده موارده .

— فهمت . .

أجل . . . كنت قد فهمت حقاً . . . وبلغ من فهمي أنني لم أعد قط
إلى أرض آبائي وأجدادي . . . تركتها نهياً لمن يطمع فيها . . .

ورفع « زامبو » كأسه الرابعة إلى شفثيه ، ثم رنا إلى زميلته « زامبا »
وقد ضحكت في عينيه الحميلتين ابتسامة حزينة وديعة :

— لن أنسى ذلك الثعلب الأبيض الداهية الخبير بطبائع النفوس . . .
إنه لم يشهر في وجهي سيفاً ، ولا أقبل على أرضي يسحب مدافعه ،
ولكنه بكلمة واحدة بارعة قد استطاع أن يجعل من الثائر الوطني مالكاً
يشار إليه بالبنان ، ومن الإقليم المتمرد أرضاً خاضعة يسودها الهدوء !

وتولتني الحمى في المدينة ، فكم من أراضٍ اشتريت وكم من عمائر
بنيت . . . لا ثلاث طبقات فحسب ، بل خمساً ، وستاً وكم من قوم
أسكنت في بيوتى ، وكم من أجور دخلت خزائنى . . .
ولاذ بالصمت مرة أخرى ، وكأنما يسألنى أن أتصور وحدى باقى
القصة وعاد يسترجع فى ظلام أجفانه المغمضة ذكريات ماضيه . . .

وكان يمكن أن تنتهى الحكاية عند هذا الحد ، لولا أن لمحت صاحبه
فى عيني سؤالاً حائراً فتولت هى الإجابة عنه . . .

— ولماذا إذن يطوف اليوم بمدائن العالم ، مع طبلته وراقصته ؟ . . .
تلك هى قصة المدينة التى نسترد بالشمال ما منحتة باليمين . . . لقد علمته
بعدئذ كل شروورها وأذابت أمواله فى مبادئها وظلماتها . . . وليس يأسى
« زامبو » العزيز على شىء مما كان له . . . إن كل همه الآن هو أن ينسى
وأن ينعم ضميره فى حباب الكئوس المترعة . . . ثم يعمد إلى طبلته فيدق
عليها أمام نار الخطب بأنامله الملهمة ، وأنهمض أنا « زامبا » زوجته
فأهز أمام السادة المترفين والسيدات الرفيعات يهودى العنبرية وأردافى
الأبنوسية ، ونكسب بذلك عيشنا . . .

إننا اليوم ياسيدى ، قوم متمدنون . . . ! !

كان لقاء على غير ميعاد . .

ولو كنت أقل إيماناً بسلطان المصادفة ، لهرتني عندما لقيت في
الليلة الماضية ذلك الفنان البوهيمي الصديق دهشة بالغة . .

ليلة البدر ، ولكن في السماء سحباً ثقالاً ، مسفية دانية .

ومن المصباح القائم على واجهة ذلك البيت المظلم الساكن في الضاحية
الوادعة من ضواحي القاهرة ، كان النور المطمئن الحالم ينبعث في صفاء
هادئ ، وينير لي ساعة الوحدة التي هربت إليها من ذلك الملهى الأنيق
الذى تعتر به تلك الضاحية والذي أنفقت فيه الساعات الأولى من الليل ،
مستمعاً إلى الموسيقى والغناء ، ومتأملاً ألوان الرقص وصنوف الناس — من
أجانب ومصريين — ممن جاءوا إلى المرح العصري الصاخب يقتلون
الليل . .

— معذرة . .

وكان الصوت الذى هتكت نبرته المهدبة ستر الوحدة من حولى
لشباب وسيم تتدلى فوق جبينه الأسمر خصلة من شعره اللامع الأسود ،
وتبرز من تحت قميصه الحريري الأزرق المفتوح عن صدره في الليل
البارد عضلاته القوية الصلبة . . وكان قد بزغ فجأة من حيث لا أدري ،
يريد أن يشعل من سيجارتي سيجارته . . وكان في هيئته ما يوحي للوهلة
الأولى بأنه أجنبي ، فلما كرر رجاءه تبينت في لكتته الخاصة إذ
ينطق الفرنسية ما يتم عن أصل أسباني . .

وسقط نور المصباح على وجه الشاب وهو يشعل السيجارة من عود
الثقاب الذى قدمته له مشتعلاً بين راحتي المضموتين ، فخيل إلى من

فورى أنى أعرف هذا الوجه وأحسست أنى رأيته من قبل ، فى مكان ما من الأرض ، ومن الماضى ، منذ أعوام لا أدرى عددها . .

ورفع بصره إلى وجهى ليشكرنى ، فأومضت فى عينيه السوداوين بارقة دهشة ، وحقق فى وجهى قبل أن يقول لى وفى ملامحه أمارات محاولة شبيهة بمحاولتى للعودة بالذاكرة إلى الماضى :

— أيها السيد . . . ألم نلتق من قبل ، فى زمان بعيد ؟

قلت : سبقتنى بالسؤال . . . ولكنى لا أدرى . . أن لى ذاكرة متعبة . . ولكنى مثلك واثق أننا ، قبل الليلة ، التقينا .

قال : دعنى أقدم لك نفسى . . ربما كان فى ذلك ما ينعش ذاكرتنا ، ويبعث الماضى حيا . . بدرو . . بدور الراقص وعازف البانجو . . مدريد حتى ١٩٣٥ ، فرنسا من ١٩٣٦ إلى قيام الحرب . . كباريه « الجبسى » بالحي اللاتينى . . مونمارتر فى ليالى المعرض الدولى : بدرو وأنغامه العجورية وزميلته التى كانت تراقصه أو ترقص وحدها على أنغام البانجو التى يعزفها . . دعنى أذكر اسمها ، فإنكم معشر الشرقيين تذكرون النساء دائماً دون الرجال . . « إيزابيلا » . . إيزابيلا السمراء كورقة التبغ ، الرقيقة كنسمة الفجر . . « إيزابيلا » ذات الصاجات والدف والعينين البديعتين بلون الشهيد . .

وصدق البوهيمى الفنان ، فإنه لم يكد يرسم لى تلك الصورة السريعة بصوته الدافئ الأسمر وإشارات يديه اللاتينية المعبرة حتى انبعث من أحد أغوار ذاكرتى ذلك الماضى كله دفعة واحدة ، بكل دقائقه الهاجعة تحت أثقال السنين ، وشجى العيش . . كأنما مر ذيل ثوب « إيزابيلا » الأسود الموشى برقائيق الدنتلا الحمراء على صفحة ذاكرتى فنقش فوقها سطور الماضى حية تتكلم . . وصحت وأنا أقبض على كتفى « بدرو » فى حماسة منفعلة :

— بدرو . . نعم الآن عرفتكَ . . يا صديقى العجوز . . أربعة عشر

عاماً ، عمر آخر يا « بدرو » . . إني الآن أذكر كل شيء . . نعم ،
كل شيء . .

— أجل . . لما لوحث لك أنا بصاجات « إيزابيلا » ، أيها الذئب
المصرى العجوز . .

— قل لي يا « بدرو » . . ماذا جئت تفعل في بلادنا ؟
— وهل لي صناعة تعرفها غير الرقص ، والغناء ، والعزف على
البانجو ؟
— أين ؟

— في هذا الكاباريه القريب . . وأنت . . ماذا كنت تصنع هنا
وحدك في الليل ؟ . . تطارد ظبية شرقية ناعمة من ساكنات هذا البيت . .
وتحت المصباح تغني لها ، وقد انتصف الليل ونام الناس . .
فرفعت له يدي اليمنى وحركت أناملي أمام عينيه في نور المصباح . .
— لا يا « بدرو » . . انظر . . ألا ترى أن حق في القنص قد سقط
برغبتي ورضاي ؟

وهاج « بدرو » في الشارع الساكن وماج :

— رباه . القيد القيد . . لماذا صنعت هذا بنفسك يا . . ألا تقولى . . لي
اسمك ، فقد نسيتك كما كنت نسيت اسمي . . آه ، نعم . . هو هذا
وكنت تحب أن تسمع « إيزابيلا » وهي تناديك ، لأنها دائماً كانت
تنطق اسمك ملحوناً ، وكان اللحن يعجبك . . حدثني الآن ، عن تلك
التي استطاعت أن تضع في أصبعك هذا القيد الرهيب . . كيف
حدث هذا . . لقد كنت حرّاً كالهواء يا صديقي . . ولكن . . أتسكن
هنا ؟ . . لا ؟ . . فما الذي جاء بك إذن إلى هذه الضاحية في
منتصف الليل ؟

— كنت هناك في الملهى . . ولكنني خرجت منذ ساعة أنشد راحة

أعصابي في الوحدة والهدوء . . إن تلك الموسيقى الصاخبة البربرية
يابدرو تقتل سكينه النفس !

— لو انتظرت ربع ساعة لرأيتني وسمعت أغنيتي الجديدة التي
فتنت بها القاهرة . إني يا صاحبي منذ شهر أبعث التهديدات بصوتي
في صدور هوانكم الحميلات . . كيف لم يبلغك صيتي . . وأنت
أيها العجوز ماذا فعلت بك الحياة . . ؟ . . وهل حببتك جميلة ؟
أهـى سمراء ؟ ومتى عدت من فرنسا ؟ وماذا تصنع في وطنك ؟
— أكتب . . .

— آه . نعم . . أذكر الآن أحاديثك لي ولإيزابيلا عن القصة
والفن والأسلوب العربي . . وهل بلغت في دنياكم هذه العجبية شيئاً
من النجاح ؟

— لا يا « بדרو » . . لا تحاول أن تغريني الليلة بالحديث عن
حاضري ونفسي . . تعال نعيش في الماضي . . في ذلك الشيء الجميل
العريق الذي بعثه لقاءنا هذا الجميل العجيب . . « إيزابيلا » . . أهـى
معك هنا ، حببتك السمراء الفاتنة التي كانت تحبك حباً من السماء ؟ . .
لكم أشبهى أن تقول لي : « نعم هيا بنا إليها . فأعود معك من فوري
إلى الملهى لأقطف من ثغرها ، في دهشتها قبلة » .

وأطرق « بדרو » وهو يشعل سيجارة جديدة ، فلما جلسنا على
الرصيف جنباً إلى جنب تحت المصباح ، قال لي بدون أن ينظر
نحوي :

— « إيزابيلا » قتلها جندي ألماني ثمل في منيارناس قبيل تحرير
باريس . .

ووقع بيننا صمت عميق أليم ، وكان كالانا مطرقاً يتأمل أرض
الشارع وهو يجذب من سيجارته أنفاساً قوية نهمة ينفثها في الليل . .

وفجأة ، بدأ يهيمهم بنغم مبهم خافت بدون أن يرفع بصره عن الأرض . .

ونخيل إلى أن روحى تلتقط من وراء السنين ذلك النغم القديم الذى يسترجع أخى « بدرو » فى نفسه كلماته الرقيقة الراقصة . . سم ارتفع صوته الرخيم العريض قليلا ، واستقام له اللحن فانطلق به قلبه ولسانه وليس ثمة سوى من يصغى إليه إلا السحب القرية وذلك المصباح فوق رأسينا :

الليل يا « إيزابيلا » !

الرقص يا « إيزابيلا » .

أيها السمرء كورقة التبغ !

العذبة كنسمة الفجر .

يا من تذكرنى عينك بالشهد .

ويلفنى شعرك كما يطوى الليل السر !

هذه ساعة الرقص فقوى وارقصى !

الليل يا « إيزابيلا » . !

الرقص يا « إيزابيلا » !

هزى الدف فى يمينك .

وارفعى بيسراك ذيل الثوب .

وميل أمام أبصارنا المفتونة واطبرى .

إنك حلم أياalina ، وقصة هوانا كلنا . .

وهذه ساعة الرقص ، فقوى وارقصى !

وسكت « بدرو » وعاد ذلك الصمت يعيش عميقاً حياً تحت

المصباح . .

كانت الأغنية القديمة قد حملتنى إلى صفحة بعيدة من صفحات

الماضى النائية . . إلى ليلة عشتها منذ أربعة عشر عاماً فى قرية صغيرة

على ساحل فرنسا الجنوبي . . ليلة عيد انقلاب الليل فيها نهائياً ، وضجت
عذارى القرية طواها بالغناء ، وأرسلت أجراس كنيستها الصغيرة العتيقة
إلى السماء ، ضراعاتها المعدنية من خلال البرج القديم ، على حين كان
تمثال ربة العجر ، في محراب الكنيسة المزدان بالأزهار والشموع ينتظر
القرايين . .

الليلة السحيقة ، كأنها كانت منذ قرون . .

كنت يومذاك سائحاً في الأرض جواب آفاق ، أحياناً دائماً
— كما يحيا أولئك العجر أنفسهم — حياة القافلة . . وكنت في ربيع
عام ١٩٣٦ ، الرجل الوحيد الذي دخل الكنيسة الصغيرة بدون أن يحمل
قرباناً . .

قلت لصاحبي « بدرو » تحت المصباح :

— أتذكر يا « بدرو » ؟ . . أنت وأنا راكعين أمام التمثال في
محراب الكنيسة الصغير ، وبيننا « إيزابيلا » ترتجف شفتاها بدعواتها
الحافنة المتصلة ، ومن حولنا جموع الضارعين والضارعات ، وقد وضع
كل غجري وكل غجرية ما حمل من القرايين أمام تمثال تلك العذراء
شموعاً موقدة . . وأحذية أطفال . . وقطعاً رقيقة من الوشى . . وصوراً
فوتوغرافية للأحبة . . أين كانت نائمة في أعماق نفسى هذه الصورة
الحية البديعة ؟ . . في السهول الخضراء المعشبة ، وعلى الطريق البيضاء
المتألقة في ضوء القمر ، تلك المواكب الغريبة من نساء عمقن خصوصهن
بالمناديل الحريرية ذات الألوان الفاقعة ، وتدلّت من آذانهن الأقراط
الضخمة ترقص حلقاتها على أكتافهن ، ورجال من عشاق الحرية
الوثنية ، من كل شريد في أطراف الأرض يقضي عمره على قدميه ،
أو فوق صهوة جواد لا يعرف له هو الآخر وطناً . أو في مركبة من تلك
المركبات الضخمة التي تجرها جياد هزيلة عجفاء ، وتمضي كالأفكار
الهائمة في السهول والوهاد على أنغام قيثار غجرية تنوح وتشكو في الليل . .

قال « بدرو » وبصره عند شريط الأفق الراقص تحت نور البدر ،
هناك بعيداً في ثغرة بين بيتين بعيدين من بيوت الضاحية المصرية
النائمة :

— كانت « إيزابيلا » تحب هذا الهيام تحت قبة الليل . . وكانت
تغنى ، وكانت ترقص . . تغنى الحياة وترقصها . . وكانت تقول إنه
ليس من حق أحد أن يسألها من أين هي قادمة ولا إلى أين هي ذاهبة
فليس لأحد أن يسأل الشهاب المنطلق في كبد السماء : لماذا يحول
في الليالي الزرقاء . .

مع ذكراها الطيبة عشت مع مواكب الغجر وقد أقبلوا من كل
صوب يحملون النذور والقرايين إلى ربهم العذراء التي يحجون إليها
من قديم الزمان ، كما يحج المسلمون إلى مكة والمسيحيون إلى بيت المقدس . .
إنها عقيدتهم ووجدانهم ورمز غرامهم العميق الكبير بالحرية ، أخت
الفن . . إن الجنون بالحرية هو دينهم . .

وعشت تحت السماء الزرقاء وفي ضوء القمر مع صبايا الغجر
المترنحات بأغان تضطرم بالغزل الجريء الملهب ، أو تفيض بالحزن
الذليل المنكسر . . وعشت مرة أخرى مع ذلك الغلام البوهيمي الصغير
الذي رأيته يحمل « مندولينه » ويمضي إلى مركبة حبيبته التي لم تتم
عامها الثالث عشر ، فيقف تحت نافذتها ويرفع صوته الصياني بأغنية حب ،
ربما كان هو نفسه واضع كلماتها وموسيقاها : « افتحي نافذتك
يا حبيبتي . . وافتحي قلبك ، ليدخل عطر هواي . . وإذا كان أبوك
قد نام ، فليكن باب المركبة ما تفتحين ! »

كان يئسها هواه والقبيلة كلها تسمع . . ولم يكن عليه من بأس ،
فبعد بضع سنين يتزوجها ، وينجبان بنين وبنات ، وسيحب البنون ،
وتحب البنات .

قال بدرو وهو يشعل سيجارة أخرى :

— كانت لنا حياتنا . . حياة جميلة . لكنها حرة . . كانت تموج
في الأغاني والألوان والعطور والأنغام . . كنا نملأ الليل . . وكانت لي
فوق ذلك كله « إيزابيلا » . . « إيزابيلا » سيدة البنات السمراوات ذوات
الشعر الطويل المحلول حول النار . . إنها تغني . . إنها ترقص . . إنها
الحب . . شعلة من حياة . تسبح في الجوبنشوتها ، وتسجل في رقصاتها
أوضاعاً فنية جديدة بالخلود . .

قلت : حقاً . . لقد كنت أحس في بعض الأحيان وأنا أشهد رقص
إيزابيلا وتلك الأوضاع البديعة التي تهديها إليها فطرتها إن الدنيا تفقد
جمالاً جميلاً جديراً بريشة الرسام وإزميل النحات ليخلد على الزمان . .
ولست أنسى يا « بدرو » شعرها الأسود الطويل الثائر وراء ظهرها ،
وكأنه إطار من الأبنوس يضم حسنها المذهل الفريد . .

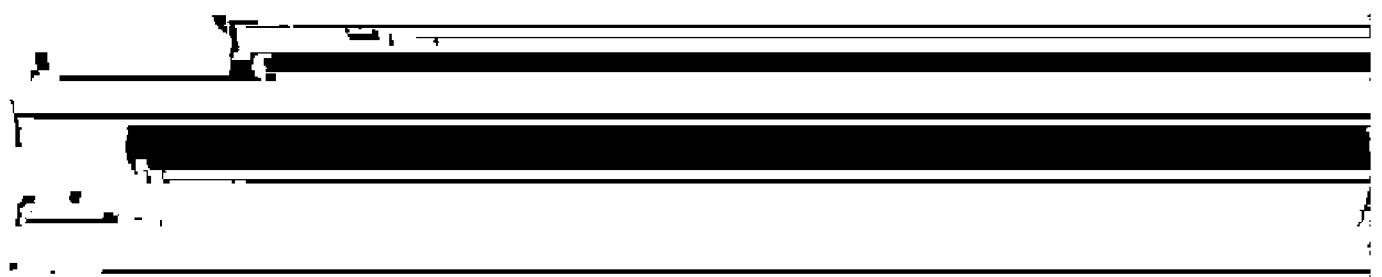
قال ويمناه المرفوعة بالسيجارة إلى شفتيه ترتعد :

— وأتأها جلف ألماني فظ فقضى برصاصة واحدة على كل ذلك
الجمال وكل ذلك الحب . . أراد منها ، هي التي لا وطن لها ، أن تخون
في جسدها فرنسا التي تأوينا ، فأبت « إيزابيلا » ، وماتت شهيدة . .
رأيت صدرها الذي طالما توسده رأسي المتعب الشاكي وقد مزقه الموت ،
ورأيت دمها يسيل على يدي ، حاراً صارخاً . . الدم الذي كنت أعلم
علم القلب أنه يجري بحبي ، وينطق باسمي . . الدم الذي صاغت أحلامه
أنغامي وهمساتي . . الدم الذي أراقته على أرض منبارناس رصاصة ألمانية قذوة
ظالمة ، كانت موعودة يوم صبت في مصنعها بتحطيم قلبي . . وحياتي . .
ودفنتها . . وعشت بعدها مجنوناً بحزني . . مقتاتاً بلوعتي ، مترنجاً
بفجيعتي . .

ورفع « بدرو » عينيه المخصلتين بالدمع إلى المصباح الذي يعلو
رأسينا ، وتأمله ملياً من خلال الدموع ، وخيل إلى أني أسمع ضربات
قلبه تحت قميصه الأزرق الخفيف وهو يهمس في سكون الليل :

— حدثني بعض مواطنيك عن فلسفة « المكتوب » عندكم . .
 حسن يا صديقي . كان مكتوباً أن يرى دموعي هذا المصباح المصرى
 الحالم . . قبل أن أعود لأغنى وأرقص عند البرابرة الذين اجتمعوا هناك ،
 ليقتلوا الليل . .





كنا قطعاً من الغرباء ينتزعون رزقهم في الأقاليم بلا رشاقة ولا عزة ، وكانت أقدامنا المتعبة تظل في الأحذية العتيقة أكثر من خمس عشرة ساعة في اليوم ، فهي لا تكف عن التثاؤب الألم كأنها هي الأخرى أفواه ذابلة ، وكانت عيوننا إذا داعبها الهواء الحر الطلق تتشكى وتطرف ، مجروحة من جمال النور .

وكان « محمد المصري » أحد الرجال الأربعة في الفرقة . . وفي الرواية المضحكة ذات الفصل الواحد ، التي تبدأ بها برامجنا منذ سنتين كان يقوم بدور الخواجة « خريستو خرلبو سكلاريدس » تاجر القطن الأريب الذي يلفظ الحاءات كطلقات الرصاص ، وعليها نقط تثير في جماهير الفلاحين الطيبة عواصف ساذجة من الضحك . . جاءنا من حيث لا ندرى فصار واحداً من هذه الجماعة العجيبة التي تضم مع رئيسها وأعوانه ثلاث نساء ، والتي تتجول باسم الفن في بعض أنحاء الوجه البحري حاملة اسم « فرقة التمثيل الراقى الوطنية » . . وكان له وجه هضيم ، ووجنتان ناتئتا العظام وشدقان غائران ، وحذاء يشد بعضه من خشية الفناء بعضاً فما كاد يظهر على المسرح في سترته المهلهلة وقبعة الخوص المزرية ووجهه الملطخ بأصباغ فاقعة حتى يضح القطيع الطيب بالضحك والدعابة الحشنة ، وإذا مشى تأرجح في الهواء عن غير عمد كورقة الشجر الخافة وهو ينظر إلى الأشياء من ارتفاع مترين . .

هذا الزميل الذي لقيته على طريق الحياة كان إنساناً لطيفاً وكلنا أحبيناه ، الرجال والنساء . . وقد لفتني إليه أول الأمر بؤسه الصارخ ،

ولقب غريب يطلقه عليه زملاؤه الرجال في الفرقة ، إذ يتنادونه « محمد البخيل » في بساطة يتلقاها بابتسامة شاحبة منكهشة . . . ومنذ التقطت غريزته اهتمامي به صار يلتقاني بمودة صريحة يؤثرني بها ، ويحنو في أوقات فراغه على طفلي ممدوح الذي يجوب معي أرض البشر في مهد من القمش المجدول . . .

طالما حاولت أن أجذبه إلى الحديث عن نفسه ، ولكنكم وددت أن أسأله . كيف لا أراه مرة واحدة جالسا مثلنا إلى طعام . . . وكان يطيب لنا ، أنا وزميلتي لوائحظ . كى نحطم الجدار الذي أقامه حول نفسه وننديه منا ، أن نداعب نخجله ونخرج انطواءه .

— تاخذ سيجارة يا محمد يا مصرى ؟

— ما أقدرش يا مديحة يا اختى . . الحكيم مخرج على . . أعصابى يا اختى ، بعيد عنك . .

— لا انت يظهر بى زى ما بيقولوا عليك صحیح . . بخيل !

وتنكشه لوائحظ في فترات الاستراحة في عبث حنون :

— حا اعمل قهوة يا محمد يا مصرى . . تاخذ معايا فنجان ؟

— ممنوعة يا اختى على . .

— من إيدى أنا ؟ . .

— تسلم إيدك الحلو . . عايشان بس ماترعلش آخذ فنجان . .

ونتأمله وهو يتذوق كل رشفة من الفنجان الفخارى الكبير .

— كويسة يا محمد ؟ . .

— تسلمى يا روحى . . أصل الحكيم بقى ما نغنى من المنبهات

خالص . . قال لى أعصابك يا محمد ، لا تروح فى شربة قهوة . .

صحة ما فيش يا اختى . . ربنا يسلمك ويحرس لك شبابك .

وتروح أيام وتجيء أيام ، ونزلنا بلداً وعرضنا برنامجنا ليلة بعد ليلة . .

وحدث أن فن ابن العمدة بلوائحظ فبعث إليها مع « أنيسة هشتك »

بهدية من الفطير المشلتت ، وهمست لواحظ في أذنى همسة فتظاهرننا
بدعوة الجميع إلى الوليمة الفاخرة ونحن نغنى قبل كل إنسان فتانا
المسكين . .

— يلا يا اولاد . . على حساب أولاد العمدة . . اهجم يا محمد
يامصرى على خير المنوفية قبل ما يبرد ولا يلهغه الأستاذ بركات ويتاويه . .
قال الأستاذ بركات مدير الفرفة وهو يتشمم الفوطة التى تحتوى الوجبة
الدسمة ويمهد لانقضاض الجميع عليها :

— يا جماعة يمكن الفطير مش كويس على أعصاب الجدة . . !
لكن لواحظ الصغيرة نافحت عن فطيرة كاملة كانت من نصيب
صاحب النصيب ، سلمت أعصابه . .

ترى أين أنت يا لواحظ اليوم . . . كنت يوم الفطيرة ترقين من الرحمة إلى
الحبة ، طفلة لا يزال ظل من النضرة الطاهرة يجول حائراً فى عينها . .
لأول مرة فى حياتك كنت تنتزعين قوتك . فتتعرين وترقصين فى الليل .
حكايته كلها حكيتهالى . . لمديحة أختك الكبيرة التى عصرتها التجربة
قبلك . . أمك التى أصابها العمى وهى مكبة على آلة الخياطة فى حارة
بير جوان . . والمخلب البشرى الذى مزق وجودك قبل أن تتمى عامك
الخامس عشر . . والقروش التى تدخرينها القرش على القرش لتحقيق
بها ، يوماً ما ، حلمك القهار : أن تعيدى إلى أمك البصر . .

أكل محمد المصرى الفطيرة ، ومرت الأيام والحلية دائبة وراء الستار
الممزق والنور الصناعى المختق ، على عمل تؤديه فى شىء من الولاء
الغامض للفن بدون تفكير ، وبدون أن نحمل معنا ندماً ولا أسفاً ،
ولا ذكرى . . بدون أن نحس إقبال الغد ولا إقبال الشقاء ولا الشيخوخة
البائسة الباردة . . لكن لنا على الأقل هذا الحق : أن يجد كل منا
كتفاً تؤاخذ كتفه على الطريق المجهولة ويستمد من دفئها صبراً على
الكفاح . .

جاء محمد المصرى مرة فجلس إلى جوار مهد طفلى وغنى له ، ثم قال لى :

- أنا باحب البنت لواحظ . . .
- وهى والله تعزك يا محمد . . .
- فانحنى يهمس بترنيمه فى أذن الطفل ، ويحنى عنى نظره .
- ماتتجوزها يا محمد ؟
- خايف عليها ، أحمل ذنبها ، وأنا مسكين . . .
- اطلع يا بنخيل ، انت محوش . . .
- ملاليم . . .
- طيب لواحظ بتحوش علشان تعمل عملية لأمها . . . فهمنا وآمنا . . .
- إنما أنت تبخل على نفسك ليه . . . حتى السجارة ؟
- شوقى يا ام ممدوح يا اختى . . . أنا يلزمنى قبل ما نخلص الرحلة
- دى يكون معايا تحويشه كويسة . . . عشرة جنيه . . . أقله عشرة . . .
- ولحد دلوقت ، بينى وبينك ، بقيت بللم قولى سبعة قولى تمانيه . . .
- مكنت صغيرى من ثدى وعدت أناقش زميلى . . .
- ليه ؟ . . . لازم حاتشبك الحبوبة ؟ . . .
- أبدأ . . . لواحظ أنا عارف أنه حرام أتجوزها وأشيها هى فوق
- هم أمها . . . إنما أحكى لك وانى تفهمينى . . . بقى أنا عندى اتفاق أشتغل
- فى رحلة الصعيد الحاية مع فرقة الكوميدي الكبير بتاعة المسيرى من أول
- نوفمبر . . . واحنا هنا قولى حانشطب ونلم عزالنا فى أواخر يونيه . . . يعنى
- بإذن واحد أحد ها أقعد عواطلى زى العادة يوليو وأغسطس وسبتمبر
- ويمكن شوية من يونيه وشوية من أكتوبر كمان ، فوق البيعة ، وأنا يامديحة
- يا اختى جربت الجوع قبل كده وبينى وبينه معرفة . . . أعرفه كويس ،
- وما بقتش بقى أستحمل المرمطة أعصابى . . . ومعدتى . . . وأسنانى . . . كلى
- ولا صيت ولا فلوس ولا مستقبل . . . العشرة جنيه اللى أحوشهم المرة دى

من تحت الضرس يوكأوني وييسطوني طول الصيف ، وبعدها يحلها
ربنا والأستاذ المسيرى . . أما لواحظ . . خلينى بعيد عن لواحظ أحسن . .
يعنى لازم تيجى مرسطة البنية فى الدنيا على إديا أنا . . ؟
لكنها ما إن تظهر حتى أكاد أسمع بين ضلوعه المهزولة وجيب قلبه
الخافق فى هيكله المنهف . .

— يا صباح النور ياسى محمد . .

— يا صباح الجمال يا أخت النجوم . .

وتبرق عيناه ويكتسى الجلد فوق عظام وجنتيه الناتئة بشبهة من ماء
يرقرق وأحسن أن فى الدنيا حولنا نغماً يعلو على مصيرنا الذى يصرخ
دائماً فى وجوهنا بأننا لم نخلق للسلام والراحة والهناء . .

* * *

صار بينهما شىء يعلمه الله وأحسن معهما جماله يزدهر فى قلبى . .
رأيت يخطف قبلة من يد لم تنسحب منه . . وشعشت لهما روحى وهما
ياوذان بنجواهما الرقيقة وراء ذلك الستار الممزق الذى يفصل وجودنا
عن وجود الناس . . وراقبت فى حنان الأم كل ذلك التقدم البطيء
المهذب لغرام حلو يشد الوثاق على رجل وامرأة يكافحان معاً فى الدنيا
ويحصلان من محالبها على القوت ، وشىء من هناء الروح . . يارب
امنحهما قوة الحب يستعينان بها على هذا البلاء الذى اسمه الحياة . .
ما أطفهما وهى تقبل عليه فى رقة عذرية عجيبة على مثلنا فى النساء ،
وتمد له يدها وفيها رسالة جاءها بها الحفير من فندق المركز حيث تركنا
بعض متاعنا ونخط سيرنا . .

— اقرأ لى الجواب ده ياسى محمد . .

وتناول محمد المظروف من يد لواحظ وفضه وتأمل السطور الأولى
من الرسالة قليلاً ثم قفزت نظرته إلى ذيل الورقة وقال لها :
— من الشيخ عبد العليم برضه . .

— اقرأ لي يا أخويا . .

تحنج محمد المصرى ثم تلا عليها :
حضرة بنتنا العزيزة الآنسة لواطظ المصونة ، طرّف المحترم الأستاذ
بركات أفندى مدير جوقة التمثيل الراقى الوطنية بجهة منوف .

« من بعد إهداء مزيد السلام والسؤال عن صحتك الغالية وصحة
الست مديحة صاحبكم ربنا لم يحرمكم من محبة بعض وكذا الست أنيسة
تخبرك الست أمينة والدتك أنها حزينة جداً وحصل لها مرض من انقطاع
مكاتبكم من قبل ليلة نص شعبان الفضيلة بست أيام وعدم ورود أى
نقدية من التاريخ المذكور . . خصوصاً وأن الدكتور عبد السلام بك
الحكيم باشا عاوز يعمل ذا العملية يوم ١٩ الجارى وعاوز المقاوله مقدماً
وحضرتكم لم ترسلى للآن أكثر من سبعة جنيه وستين قرش وفاضل الانتاشر
والأربعين قرش. غير سفلقة الترجية ولزوم التغذية وخلافه وتحلفك الست
أمينة والدتك بترية والدك المرحوم أنك ياست لواطظ لم تتأخرى أكثر
من كده فى ورود باقى النقدية لزوم العملية وإذا أمكن حضورك
يوم ١٨ الجارى لحضور العملية تانى يوم يكون لكم الشكر . . ومن
جهتنا قايمن بالواجب أنا وحرى والبنت نفيسة كريمتى وجميع من بطرفنا
يهادوكم السلام ختام » .

حسانين عبد العلم
صاحب البقالة الزينية الوحيدة
حارة بيرجوان بالسيدة زينب مصر

* * *

أسدل الستار فى الساعة الواحدة من الصباح وأطفئت الكلوبات
ونحلت الساحة من الجموع المتناقلة ، وبعد قليل توجه الأستاذ بركات
وسلامة وعبد العزيز البربرى مع ابن العمدة إلى الدوار حيث كانت
تنتظرهم « قعدة مزاج » ومعهم أنيسة هشتك لخبرتها فى تسليك الجوزة

ورصها وتوليّعها ومنادمة روادها ، وختل لنا الأرض الفضاء والسكون
تحت سماء تلذ في غيبة القمر رؤية نجومها .

جلست لواحظ على الأرض أمام المنصة الخشبية التي كنا طوال
الليل نرقص فوقها ونغنى ، وتمددت إلى جوارها على مزقة من ستار
قديم ووضعت رأسي في حجرها وجعلنا نتأمل السماء في صمت عميق .
كان طفلي نائماً ، في الداخل ، لكن أذني المرهفة كانت تتوقع في كل
لحظة أن تسمع بكاءه . . وكان يأتينا من الحقول البعيدة رجع رتيب
مريح من نقيق الضفادع ومن ورائه صدى ناء لأنين السواقي الدائرة
على النهر البعيد . . وكان محمد المصري راقدًا على ظهره غير بعيد منا
وعيناه تسألان النجوم وهو يمزغ بين أسنانه عوداً يابساً انتزعه من
عشب الأرض وتأمله طويلاً قبل أن يلوكه . . ودمست لواحظ في
أذني مائلة على بوجهها وشعرها الطويل يغمرني بأريج الطبعي اللطيف :
— محمد راخر ما اتعشاش !

تصورت في الحال العشاء الدسم الذي هرع إليه في الدوار رفاقنا
الثلاثة وزميلتنا المرحّة وقلت لصديقتي في همس ضاحك وأنا ملى
تتخلل شعرها :

— انتى فاكره ييمضغ العود علشان جعان ؟ !
— لا . . بس شكله فكرنى أننا ما كلناش حاجة . . أقوم أجيب
العيش والخبنة والبطيخة من جوه ؟ . . زمان المزغودة أنيسة بتنهش في ورك
الوزة . .

قالها وعينها على زميلنا ، ثم نادته :
— محمد . ناكل لقمة ؟

اعتدل محمد ، وتأخر رده قليلاً :

— نشق قبله البطيخة نشوفها قرعة ولا ايه حكايتها !
ونهض معتمداً على الأرض براحتة وتأرجح قوامه الأثري نحو الستار

فرفعه وغاب وراءه قليلا ثم عاد وهو يضم إلى صدره بطيخة ، وفي يمينه
سكين .

قال وهو يضع البطيخة على ورقة من جريدة قديمة ويشهر فوق
قلبها سكينه .

— ممدوح لقيته عريان غطيته ، ونائم يا أختي في أمان الله .
وطعن البطيخة فما إن سمعنا صوت انشقاقها حتى صاحت لواحد وهي
تضحك :

— قرعة مافيش كلام . .
وتهاوى شطرا البطيخة تحت أعيننا متفتحين عن قمرين في بياض
الحليب .

قال محمد وهو يتهدد ويقفز عامداً إلى ما كانت تدور حوله من
أول الليل نحواطره :

— يادى البخت ياربى . . بى ياستى هم كام جنيه اللي ناقصين
قلتي لى ؟

ظلت نظرة لواحد عالقة بالوجه الضامر الذى باغتها صاحبه بهذا
السؤال ، وارتجفت يدها المستندة إلى ركبتي وهي تقول له في صوت خافت
يرتعش فيه الفهم العميق :

— احنا فى البطيخة يا محمد ولا فى الفلوس ؟
— كام جنيه يا شيخ عبد العليم قلت لى ؟ . . أيوه . . اتناشر وستين
قرش كمان . . سى محمد المصرى معاه تمانية ونصف نخل النص يتفنجر به
يبقوا كام ؟ يبقوا تمانية . . ولواحد ياترى معاه كام ؟ . . هه ؟ . .
قولى ياست لواحد . .

— إيه الكلام ده ياستى محمد . . . بكرة تتعدل . .
— وما تتعدلش الليلة ليه ؟ . . معاكى كام بس قولى لى يابنت
الحلال ماتوجعيش قلبي . .

ظلت زميلتي في تردددها الحائر وبادلها الممتلئ المكتنز بالشباب
يرتعد كله . فأهبت بها وقد مستني بدوري من أمرها وأمر صاحبها
هزة من الطرب :

— يا اختي انطقي بقي . .

— معايا . . معايا جنية صحيح . . و . . شوية فكة ، مش عارفه

كام . . ييجي نص جنية برضه . . أنا عارفه . .

وفي حركة تمثيلية مقصودة ، ركع الأخ محمد أمامي ورفع إلى مقام
كفين ضارعتين :

— يامديحة بابنت الكرام ، قولي لنا معاكي كام !

— معايا اللي يكملهم خمستاشر بإذن الله . .

لمعت النجوم فوق رؤوسنا ، ولمعت انعكاسات من إشراقها في حبات

الدموع التي انبثقت في عيني لوحظ وتناثرت على وجنتيها . .

وتلامست عن غير قصد أناملنا وتعانقت خفقات قلوبنا وشاع في

الوجود كله من حولنا دفء بديع .



فی صحت شہی

— هل شرب الدم البشرى يفيد الصحة ؟

كان السائل رجلاً مهزولاً يضطرب جفناه باستمرار فوق عينين شاذتين
وفي ابتسامته غيبوبة وخيل ، وجدته جالساً أمامي ذات ليلة منذ بض
سنين في عربة قطار في الريف .

في أول اشتباكنا في الكلام حياني وسألني عن صحتي ، ثم قال
إنه يعمل سائقاً لسيارة ، نقل في شبين الكوم ، ثم شكأ لي من حال
الصحية وشتم الأطباء بالفماظ الحشاشين ، ثم فاجأني — بعد محطتي
أو ثلاث — بذلك السؤال العجيب حقاً : هل شرب الدم البشرى
يفيد الصحة ؟

ولم ينتظر ردى بل أخذ فجأة يضحك من نظرتي المفروعة !
جفنيه الخافقين .

— بدمتك ، ألم تشربه ؟

— أشرب ماذا يا رجل ! !

— ولو مرة ؟ . .

وكان القطار البليد يتسكع ويطيل الوقوف عند كل شبه محطة
وقد نسيت أن أقول إن عربة القطار لم يكن فيها غير راكبين آخرين
أو ثلاثة ، نائمون فوق مقاعد بعيدة عنا ، وإن الوقت كان ليلاً ، وإن
لا أحاول هنا أن أروي القصة السخيفة المألوفة عن حالة رعب أما
مجنون خيالي ، بل أن أكون أميناً على تصوير لقائي مع هذا برجا
لا أستطيع أن أنساه ولا أعرف مصيره .

قلت له وقد بدأ يخيفنى البريق الشاذ فى عينيه :

— أهذا مزاح معقول يا أسطى ؟

— الأسطى شلبى . . محسوبك .

— تشرفنا .

— يفيد الصحة أم لا يفيدها ، بذمتك ؟

قلت له وأنا أحاول أن أضحك وأتبسط :

— الأسطى فى حالة فرفشة .

فانتقل إلى مقعدى وألصق بى كتفه وقال فى حماسة وانفعال ، ونظرتة تتوه فى خفى جفنيه :

— الحكاية أساسها صحتى . . صحتى فى هذه الأيام ليست على

مزاجى . . دكتور المركز يسخر منى . . والإخوان فى قهوة السواقين

يسخرون منى . . وشىء فى دماغى يقول لى إن شرب الدم البشرى يحدد

الشباب ويرجع الصحة . .

— شىء فى دماغك ؟

— شىء فى دماغى .

— صوت خفى تسمعه ؟

— لا ، أنا لا أسمع أصواتاً . . هناك شىء فى دماغى والسلام . .

ويقول لى أيضاً ، هذا الذى فى دماغى ، إن كثيراً جداً من الناس

يشربون الدم البشرى وأنه هو سبب الصحة التى ينعمون بها .

— أين ؟

— فى الدنيا . . وعندما رأيت حضرتك قال لى شىء فى دماغى

إنك من الشاربين . .

— أنا ؟

— أليس عندك ، فى هذه الشنطة التى على الرف ، زجاجة من

عصير الدم ؟ الليل طويل ، فتعال نشرب معاً . .

- ليس في حقيبي غير سجائر . . . علب كثيرة . . . هل تدخن ؟
 فاضطربت جفونه الثقياة العصبية : وسألني :
 — ما اسمك يا أخي ؟
 قلت له اسمي وقد سحر نظرتي اختلاج جفنيه المرعيبين ، وأسنانه
 الحاربة وراء شفثيه الرقيقتين الشاحبتين :
 — عبد الغفار حسونة .
 — موظف ؟
 — تاجر في بركة القليل .
 — ماذا تباع ؟
 — سجائر .
 — فقط ؟
 — وحلويات ، وكراسات وأقلام ، ولعب وهدايا في مواسم الأعياد . .
 لكن المفروض أنني قبل كل شيء بائع سجائر . .
 وفي شبه توسل أجابني مستعظفاً :
 — لماذا لا تباع الدم البشري أيضاً في دكانك ، في زجاجات ثمن
 الواحدة شان ، وتكسب الثواب في جميع ضعاف الصحة في البلد ؟
 أتكره المكسب ؟ ألا تحب الخير للناس ؟ ما هذا الطبع السيء
 يا عبد الغفار يا أخي ؟
 ورمي شنتي بنظرة ركنية مريبة . .
 قلت له في محاولة بسيطة لتغيير الحديث :
 — هل الأسيطي شاي يملك سيارة النقل التي يقودها ؟
 — لي نصفها ، لكن مسألة إخفاء الزجاجاة في شنتك فيها جرح
 لإحساسي . .
 لم يكن في الشنطة غير هدايا للأهل في البلد ، مجموعة من علب
 السجائر وقليل من ملايسي . . . وقد واقبني الأسطي شاي وأنا أنهض

فى إذعان لإنزاعها من فوق الرف . . وكان « شىء فى دماغى » يقول لى
فى تلك اللحظة إن شارب الدماء هذا خطر . . وإنه عندما يجد أن متاعى
القليل خال من الزجاجة التى يطالب بها سوف يخرج هو من سلته هذه
زجاجة فارغة - لعل امرأته كانت تستعملها للخل - ويملؤها من دمي . .

وفتحت الشنطة فأطل برأسه معى على محتوياتها ، فلما عرضت عليه
أن يختار مما معى العلبه التى تعجب مزاجه ، وضع يده الناحلة المرتعدة
على كتفى وضحك وهو يقول لى فى هدوئه الكريه : «

- طلع الزجاجة يا لئيم . أنا مالى وللسجاير يا سى عبد الغفار ؟
عاشت الأنفاس . . إنما أريد الزجاجة ، فصل على النبي ؟ . .

- يا أسطى شلبي . .

- صل على كامل الأنوار . .

- اللهم صلى عليه . . يا رجل هذا الهزار زاد عن حده . .

- هزار ؟ أتخسبني أهزر معك ؟

وتوقد الحبل فى غيبوبة عينيه وصار صوته مشروخاً منفراً :

- لماذا لا تريد أن تكسب ثواباً فى أخ لك ؟ . . صحتى يا عبد الغفار

صحتي . . ألا تهملك صحتي ؟ . . عندما رأيتك تجلس أمامي قال لى شىء

فى دماغى إن علاجى عندك أنت ، لا عند دكتور المركز . . ليس عند

دكتور المركز إلا كلمة واحدة « بس بطل انت الحشيش » . . أعطنى

أنت يا عبد الغفار . . أعطنى . أعط أخاك شيئاً من الدم الذى عندك ،

وكن ظريفاً . . لا بد لى أن أشرب من الدم البشرى . . ولماذا ترفض

وأنا حتى الآن أطلبه من شنطتك لا من عروقتك ؟ . . هات الزجاجة

لنشرب فى صحتك وصحتي . . هات وصل على النبي . . اخز الشيطان

وتبجح . .

- أنت مجنون !

قلتها وأنا أرتجف إلى جانبه من الرعب ، وتمنيت أن يصحو أحده

الركاب القلائل من النوم ، وتعاق جبنى الطبيعى وكل حى للحياة برحاء جميل ، أن أسمع فجأة الرنة المعدنية المألوفة من قراضة التذاكر على ظهر أحد المقاعد البعيدة فى العربة ثم يظهر الكمسارى كالنبي المنقذ ويرى لنا حلا فى الأسطى شلى . . .
ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . . .

كل ما حدث هو أن هذا الرجل النحيل الذى لا يكف جفناه عن الاختلاج انهار دفعة واحدة وعلى غير انتظار بنى أمام كلمة مجنون . .
وجهه الضامر المتعب اختفى بين كفيه المرتعدتين ، كأنما يريد أن يختفى من الكلمة ذاتها . . . وأخذ الأسطى شلى يتتحب فى طفولة . .
كل ما حدث هو أن هذا المسكين الذى أخافنى قد بكى فجأة خائفاً من الجنون ، وأن قلبى رق له واحترق فيه . . لم يحدث بعد أن توعدتى بشرب دى من عروقى شىء من تلك الأحداث المخيفة أو المضحكة التى كانت تبشر بها بداية لقائنا . . مجنونى أنا الأسطى شلى أرعبنى قليلاً ثم أخذ عطفى كله ساعة طويلة قبل أن نفترق عند نزوله فى محطة شبين الكوم . .
ولا يزال يعيش فى نفسى فزعه من هذه « النوبة » التى تراوده كل شهر مع ظهور الهلال الجديد — على حد قوله — والتى تزداد كل مرة إلحاحاً على دماغه بتلك الفكرة العجيبة المتسلطنة . . أن الدم البشرى وحده هو سبيله إلى استرداد صحته التى أضاعها فى الغرز والأسفار والمواخير . .
إن إلحاح هذه الفكرة يضطهده ويأخذ بخناق فى مطلع كل شهر قمرى ويكاد يدفعه إلى الضراوة والفتك . . وقد ذهب إلى طبيب الصحة وصارحه بحالته وتوسل إليه أن يشفيه فقال له « بس بطل انت الحشيش » وصرفه فى سخرية . . وهو خائف من نفسه . .

وقف شلى على رصيف محطة شبين الكوم يكلمنى وجفناه يضطربان فوق عينيه المحترقتين ، حتى تحرك القطار . . لم يكن يريد أن يفلت يدي من بين يديه . . وكان آخر ما سمعته من كلامه :

— المصيبة يا عبد الغفار يا أخى أنى أول أمس كنت أنقل بطيخاً
إلى طنطا ، فكان يخطر لى فى بساطة كلما رأيت إنساناً فى السكة
الزراعية أنى يسعنى أن أصدمه وأصرعه وأشرب من دمه ثم أعود
إلى عجلة القيادة وأستمر فى طريقى . . وهذا بالضبط هو ما أشعر أنى
سأفعله ذات يوم . . يوم قريب . . وربما كنت أنت آخر من ينجو
من عطشى . . أنا عطشان يا عبد الغفار . . لعلى قاتل أول عابر
سبيل يقع فى طريق سيارتى غداً أو بعد غد . . ولعلى شارب من دمه . .
وأنت ستمر بشبين الكوم فى عودتك إلى مصر بعد يومين ، فأستحلفك
بالله أن تمر علينا . . أنا دائماً بالليل فى قهوة السواقين فى البر الشرقى . .
تعال خد معنا نفسين ودبرنى فى الموضوع . . مع السلامة . . أنا فى انتظارك
لكن . . بشرفك ، ألا يفيد صحتى . . يفيدها أم لا يفيدها . . يجب
أن أعرف . . يجب أن أعرف . . .

هل عرف ؟

إنى لم أره بعدها !

الحجوة

منذ الساعة العاشرة من كل صباح يربط الشيخ على عند صندوق البوستة المدفون في جدار دوار العمدة ، والذي لم يحدث أن ظهر عنده عبد الواحد أفندى البوسطجي قبل الساعة الحادية عشرة .

والشيخ على - وهو كهل نظيف ومؤدب - قلق في انتظاره ومتكلم . . عبد الواحد أفندى هذا شاخ مثل حمارة ويجب إحالتهما إلى المعاش . . إنه يتأخر في طوافه لأنه يفتح الصحف والمجلات ويقرأها ويبخلق في صور النساء العاريات وهن كاشفات في الصور عن كل شيء . . فإذا ظهر البوسطجي كان الشيخ على أول من يهمل لمقدمه ، لكن عبد الواحد أفندى - وهو كهل محطم ونصيبه من الأدب والذوق محدود - يفهم نفسية الشيخ على ويطيب له أن يكايده . . وفي توزيع الخطابات يتلصق ويتباطأ ويدقق تدقيقاً مفتعلاً في شخصية متسلم كل رسالة . . والجريدة مطوية في يده تحت رزمة الخطابات التي يوزعها على الجمهور الملتف حول حمارة في بطء ومناوشة وزعيق ومداعبات . . والشيخ على يتوثب إلى جانب الحمار بدون أن تطاوعه كبرياؤه في طلب الجريدة بشكل قد يكشف شوقه إلى لقاءها .

له في بلدنا أربعة أفدنة وجاه ودوار وحصان ركوب ومكانة لكنه يقول كلما كلم أحداً : أسفاه ! لو أدخلوني المدرسة لكنت أعرف القراءة والكتابة !

وأخيراً يتلقى الجريدة من يد عبد الواحد أفندى لا الذي يعدم دائماً كلمة مسمومة يتوج بها تلذذه بتنغيص غبطة الشيخ على بوصول جريدته . . وهنا يحدث دائماً - كل يوم ، منذ سنوات وسنوات -

مشهد لا يتغير ولا يزيد أو ينقص منه شيء . . . يطبق الرجل الجريدة ويضعها في حرص . من طوق جلبابه البلدى : في جيب هائل يكاد يشغل أحد مصراعى الصديرى المقلم ذى الأربعين زراراً ، وينطلق الشيخ على . . . ينطلق بمعنى الانطلاق . . . وهو يهرول حقاً لكنه مسدد في اندفاعه كالسهم . . . إلى دكان محمود الحياط .

إلى ركن بعينه من حصيرة مصطبة الدكان الداخلية يتوجه الشيخ ويخرج الجريدة المطبقة من صدره ويفردها في عناية ثم يشوح بها ناحية الحياط المشتغل وراء مكينة الحياطة الصغيرة ، ويقول له :
— سيب يا واد يا محمود المكينة دى وتعال نشوف الحالة إيه النهاردة . .
دا يظهر الجريدة مليانة تمام النهاردة . . عبد الواحد أفندى قال لى كده فعلا وهو ييسلمنى الجريدة . .

وكل يوم ، منذ سنوات وسنوات ، يحدث فى دكان الحياط مشهد لا يتغير فيه إلا بعض جزئياته الضئيلة ، نتيجة لاختلاف شخصيات ضيوف الحياط وعددهم فى كل مرة . . . يوقف محمود المكينة فى هدوء ويتناول الجريدة ويبدأ من أول السطر فى الصفحة الأولى لا يبالى سياسة من تجارة ولا إعلانات من حوادث . . ساعة وساعتين وأحياناً أكثر . . إلى أن يجوعوا . . إلى أن يبح صوت الحياط ويتعب الشيخ على من عملية الرضا والسخط والاندعاش والفرح والحزن والتأييد والمعارضة وهى عملية تشترك فيها — مع كل عضلات الوجه والتفاتات الرأس وإيماءات اليد — طرقات اللسان وانتفاضات الحاجبين وبعض الحركات الصوتية التى منها ما يخرج من الحنجرة ومنها ما يكون طريقه الأنف . .

ومحمود لا يشتكى ولا يتململ بل يجد لذة ويتهلل كل يوم لطلعة الشيخ على وجريدته .

والشيخ على يقول له « يا واد » لكنه فارس خيال ومحمود يحب فرسان الخيل النادرين فى المنوفية ، ثم إنه يحب اللبس النظيف ، وهو من أحسن

زبائن الدكان وأكرمهم : والشغل قليل ، والوقت طويل ، وصوت المكنة المستمر والكلام الفارغ من الزبائن والضيوف شيء يثير النفس . .
وجاء وقت صار البوسطجي فيه يعايب الشيخ على بدعابة واحدة
ثقيلة لا تتغير : ماذا لو مات محمود الحياط ؟ !

وكان الشيخ على يقول إن محموداً قوى كالثور ولم يبلغ الأربعين ،
وإنه هو الشيخ على الذي فات الحسين سيموت حتماً قبل الحياط . .
ثم يعود فيقول إن البلد فيها من يسرهم أن يعرفوا حال الدنيا على حسابه !
لكن محموداً الحياط هو الذي مات - فجأة - في معركة دارت
بعضى الشوم في زفة عروسة كانت تمر أمام دكانه . . مات وأغلق
دكانه !

في تلك المناسبة الحاسمة قال له البوسطجي وهو يسلمه الجريدة ،
في شماته :

— البقية في حياتك !

لم يتكلم الرجل بل طوى الجريدة وأدخلها في جيب الصديري ، ثم
مشى وثيداً نحو دكان محمود الحياط . . .

رمى باب الدكان الموصد بنظرة قاسية وأخرج من جيبه منديلاً
كبيراً فرشاه فوق تراب مصطبة الدكان الخارجية الصغيرة ، وجلس .
وأخرج الجريدة ونشرها بين يديه .

وأطال التمعن في سطور الصفحة الأولى وشكلها وصورها . . وأقبل
من الدرب الكبير حمار البوسطجي في طريقه إلى القرية المجاورة ،
ونظر عبد الواحد أفندي في الرجل الجالس وعرفه . .

طالما أغاظه وتسلى به وعكر صفوه . . لكنه في هذه اللحظة أوقف
الحمار فجأة أمام المصطبة ونزل عنه وأقبل فجلس إلى جوار الشيخ
وقد أحس في نفسه عطفاً عليه . . وتلقاه الشيخ على متوجساً ومتحفظاً
للاحتدام . .

— تعرف أنا سمعت الناس فى بؤسته شبين الكوم العمومية النهاردة
الصبح بيتكلموا عن القطن والوزارة . . أخبار مهمة جداً فى الجرايد . .
مليانة تمام لازم الجريدة . . ورينى أما نشوف الحالة إيه النهاردة . .
وقبل أن يتكلم الشيخ على كان عبد الواحد أفندى قد تناول الجريدة
من يده وانحنى فوق صفحتها الأولى بركن وجهه الذى تقع فيه عينه
اليسرى . . السليمة . . وقرأ . .

* * *

صارا صديقين ، حتى إن الشيخ على قال للبوسطجى وهو يودعه
إلى الغد :

— من بكرة إن شاء الله نبحث لنا عن مكان أنسب من مصطبة
الولد محمود . . دى سكة عمومية وميت سلام عليكم . . حانقراً وإلا
نرد السلام ! .. إيه رأيك فى حوش الدوار عندى . . نقرأ على رواقه ونشرب
قرفة على كيفك بتيجىنى مخصوص من طنطا . . علشان كرام الضيوف
أمثال عبد الواحد أفندى !



الفهرس

الصفحة

٥	١ - الرقص على العشب الأخضر
١٧	٢ - نهاية رائد
٥٣	٣ - الرقصة الجديدة
٦١	٤ - فى السيرك (١) صانع الموت
٧١	٥ - فى السيرك (٢) صلاة الوحوش المؤمنة
٧٩	٦ - فى السيرك (٣) الأجراس الصغيرة
٨٥	٧ - فى المجتمع
٨٩	٨ - الأقنعة
٩٥	٩ - فى سوق الزلط
١٠٩	١٠ - الصعاليك
١١٥	١١ - ليلة الشموع
١٢١	١٢ - صافحت الموت
١٢٩	١٣ - بنت الحلال
١٣٩	١٤ - الكابوس
١٦٩	١٥ - عطر فى الظلام
١٧٩	١٦ - استقالة شهر زاد
١٨٧	١٧ - موسيقا رخيصة
١٩٥	١٨ - عمق الصوت
٢٠١	١٩ - بلا سيف
٢٠٧	٢٠ - لقاء تحت المصباح
٢١٧	٢١ - الستار الممزق
٢٢٧	٢٢ - فى صحة شلبي
٢٣٥	٢٣ - الجريدة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٤٠٩٩ / ١٩٧٣
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٣